سعيد ناشيد

العقل والحنان

محاكمة فلسفية للحب

مكتبة

سعيد ناشيد

العقل والحنان

محاكمة فلسفية للحب

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب: العقل والحنان، محاكمة فلسفية للحب
تأليف: سعيد ناشيد
عدد الصفحات: 286 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-302-9
الترقيم الدولي: 978-9909-9882-2-0
رقم الناشر: 207-293/ 25
الطبعة الأولى: 2026

جميع الحقوق محفوظة - دار التنوير © 2026

دار التنوير
لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني
هاتف: 009611797434
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
www.daraltanweer.com

سعيد ناشيد

العقل والحنان

محاكمة فلسفية للحب

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

توطئة

الفلسفة ليست بحثًا عن الحقيقة ولا عن مفاهيم مجرّدة ولا مواجهة مع الميتافيزيقا... فقط، بل هي أيضًا، وربما أساسًا، إصغاء إلى النداء الذي يتردّد في هذه العبارة البسيطة: هناك إنسان يتألم.

وإذ يفتتح هذا الكتاب موضوعه بهذه العبارة، فليس ليثقل التعاطف بالشكوى، أو ينهك التضامن بالتذمر، بل ليقترح فنًّا عمليا للحب ينسج للحياة معنى، ويُخفّف منسوب القسوة في الأقوال والأفعال.

من قاعة مُحاكمة يشارك فيها سقراط وأفلاطون وابن عربي وسبينوزا ونيتشه وحنّة أرندت وفلاسفة كثُر، نستمع إلى دفاعهم عن الحب، دفاع جمع بين بهجة الفلسفة ودربة العيش، فيمتدّ هذا الكتاب جسرًا بين سؤال المعنى وفنون الحياة. إنّه كتاب عن الحب الحقيقي، الذي ينبت في تربة الحنان لكنّه يتنفّس في هواء العقل: حيث الحنانُ تربةُ الجذور، والعقلُ أغصان شجرته، وبهما يشتدّ الجذع وتنضج الثمرات.

ستجد هنا:

صك اتهام يُحمِّل الحب أوجاع الغيرة والخوف والحزن، وما يجرّه ذلك من شقاء.

مرافعات فلسفية تُبرئ الحب، وتُؤكد حاجة الحضارة إليه، وتضع المسؤولية حيث ينبغي.

تمارين روحيّة بسيطة وعميقة تستند إلى خبرة وفلسفة فلاسفة عاشوا التجربة أو ناقشوها وتوقفوا عندها.

رؤى إصلاحية متجددة تُؤسِّس لحداثة رحيمة تُنمّي اللطف في الوجدان، وترسّخ التواضع في العقل، وتصون البُعد الإنساني في الإنسان.

يتوجّه هذا الكتاب إلى كل من أحبَّ وتألّم، وإلى كل من تهيّب عتبة الحب أيضًا. يُذكّر الجميع بأن الحبَّ ليس صك خلاص يفرح، ولا نزوة عمياء تجرح، بل كفاية وجدانية تربط بين هواء العقل وتربة الحنان.

عندما نتقن هذا الفنّ، لا يعود الحبُّ امتحانًا يُوجعنا، بل رفيق درب يُعلّمنا كيف نعيش مع أنفسنا ومع العالم بأقل ما يمكن من القسوة والألم.

مُقدمة

نحن في العام 2100، ونرى أن العالم لا يزال مكانا قاسيًا للحياة. صحيح أنّ القسوة تراجعت في وجوهٍ كثيرة، تراجُعًا يكفي، مثلاً، كي لا يُستدعى الناسُ ليتفرّجوا على مُحكومٍ يُشنَق، أو زانيةٍ تُرجَم، أو ساحرة تُحرَق، وكي لا يُبصق في وجهِ مُفكّرٍ مَصلوبٍ على أبواب المدينة، ولا يُباع العبيدُ والإماءُ والمساجينُ في أسواق النخاسة، ولا تُبارَك جنايةُ زوجٍ على زوجته الخائفة ليلةَ الدُّخلة، ولا يُسمح للآباء إهداءُ أبنائهم أو بنّاتهم للمعابد أو الملاجئ أو السادة، ولا يخضع التلاميذ لطقوسِ الفَلْقَة في حجرات الدرس... ما يعني أنّ القسوةَ انحسرت بما لا يُنكره إلّا مَن يَمحو الماضي ليُقَدِّسَه، لكنها لم تنحسر بما يكفي كي لا يُدفَنَ أبرياء كثيرون تحت رُكام القصف، وكي لا يُسأل رهائن كُثرٌ عن هوياتهم قبل الذبح، وكي لا يُطردَ الناس من بيوتهم والأماكن التي فيها معشتهم باعتباره انتصار، وكي لا يجوَّع أطفال لأسباب عنصريّة أو حربيّة أو لذنبٍ اقترفه غيرهم، وكي لا يُستنزَفَ معظمُ الطلاب في حروبٍ تنافُسيّةٍ على المراتب الدراسية.

قديـمًا، قامت الدول على الغَلَبةِ والتمكين بدلَ الرعاية والإقناع، وقامت الحضاراتُ على أنقاضِ بعضِها بدلَ التعارُف والتعايُش، وقامت الأديانُ على أساس أنها تدافعَ عن الحق الذي لا يُعلَى عليه، ولا تزال آثارُ ذلك كله كامنةً في اللّاوعي الجمعي.

لهذا، رغم نشوء مؤسّسات للرعاية الرحيمة، من مستشفياتٍ عموميةٍ

وجمعياتٍ خيريّة ودورِ إيواء ومراكزِ إنصات وملاجئَ للحيوانات، ورغم تطوّرِ صيغ العدالةِ من عقوبات الزجر والانتقام إلى عدالة تصالحيّة وترميميّة وانتقالية وعقوبات بديلة، لا يزال العالم مكانًا قاسيًا للحياة.

هذا الكتاب الذي اخترنا له صيغة محاكاة التطوّر البشري الذي يسير بسرعة لم نعهدها، ليس بكائيّة على جراح البشرية، ولا مرثيّة لمجرى التاريخ، بل مرافعات فلسفية من أجل الحب، وتمارين روحية لتنمية مشاعر الرحمة والمودة والحنان، سعيًا إلى كبح جماح القسوة، واستشراف أفق حداثة رحيمة. إنه تنبيه للاهتمام بالجانب الإنساني في زمنٍ تزداد فيه هيمنة التقنية التي بلغت مرحلةً تهدّد بهيمنتها على المشاعر، التي هي الصفة الأعظم للبشر.

إنه كتاب يأتي في سياق تقديم فلسفة موجّهة إلى كل الناس، تستند إلى فلسفة عدد من الفلاسفة نستعيد مقولاتهم ونطرحها بطريقة تركّز على أنه من دون المشاعر الإنسانية تفرغ قيمة الحياة مهما كان نوع ومستوى التقدّم، ومهما كان ما نجمعه ونراكمه من مناصب وألقاب وممتلكات.

أملاً في تفادي الانهيار

في مستقبلٍ قريب، لا يتعدّى نهاية القرن الحالي، يواصل أحفادُنا سعيهم الحثيثَ للعيشِ في ظروفٍ استثنائية، فيسعون إلى دفع العمرانِ إلى أقاصيه لإنشاء ملاعب وملاهٍ زجاجيّة في أعماق المحيطات والبحار، ويندفعون لاستعمار الكواكب وإنشاء مستوطنات في شكل قباب مأهولة، ويطوّرون أسلحتهم ونصب أعينهم بناء قواعد عسكرية على حواف النيازك وفي حلقات المحطّات الفضائية... كل هذا شكّل تهديدًا فائق الخطورة، كما لو أنّ تطوّر الحياة يطوّر بدوره آلات الموت وأشكال الهيمنة.

لقد أتاح التواصلُ الرقمي، المزوّد بالترجمة الفورية إلى كلّ اللغات واللهجات، أن يصبح الناسُ جميعًا شركاء في صناعة الرأي العالمي، والذوق العالمي، والمزاج العالمي. وذلك مكسب عظيم. غير أنّ الإفراط في سيطرة أدوات التواصل الاجتماعي، وهوس الشهرة، والتنافس المحموم على نسب المشاهدة، يحتلّ معظم الوقت وقد قَلَّصَ لحظات التأمّل النقدي والجمالي والروحي، فانخفض مستوى الذكاء العمومي: بات الناس يصدّقون كلَّ ما تلتقطه آذانهم من أنباءٍ شاردة، ويهيجون لأدنى إثارة، ويفزعون لأصغر فزاعة، فيُذعنون للأكاذيب الأشدّ ضررًا، ويُنكرون الحقائق الأكثر نفعًا.

بالتوازي، جفّت لغات الناس، وتيبّست سياسات الساسة، وصارت النتائج تُقاس بالأرقام. غير أن هذه الأرقام مجرد أقنعة للتمويه.

مع التطوّر التقني الهائل، وانغماس البشر -خاصة الأذكياء منهم- في صناعات واختراعات تزيد من هيمنة فئة قليلة تتحكم بتفكير ومزاج الناس، يتم الاستغناء عن الفلاسفة في دوائر صنع القرار. ما عاد الحكام يستشيرون الحكماء. لم تعد الدولة أمًّا راعية بل مجرّد شركة للتخطيط والتوظيف. بناء عليه لم يعد المدراء يسألون عن مشاعر موظفيهم وأمزجتهم الإنتاجية وحساسياتهم الإبداعية، بل عن السجل الإلكتروني للأرباح والحضور والانصراف.

كل شيء صار مرقمنًا: الحب، الصداقة، الحزن... حتى الصمت. كل شيء صار مبرمجًا ضمن لوائح معيارية. كما صارت المشاعر تُقاس بوحدات قياس خاصة، فما إن يتجاوز المرء المعدل المسموح حتى يُعاد ضبطه عبر كبسولة تعيد الانفعال إلى مستوى الأمان.

الأفق صار محجوبًا بسقف الإعلانات الرقمية. لا أحد يتأمّل لون الغروب، لا أحد يسهر تحت ضوء القمر، حتّى الشعراء والمغنّون صاروا يكتبون ويلحّنون قصائد مصمّمة بخوارزميات الذكاء الاصطناعي،

تخلو من الخدش، تخلو من الارتباك، تخلو من الضعف البشري... من كل ما هو إنساني جميل.

في أثناء ذلك، فرغت السياسات من الأحاسيس، غلبت القسوة على القلوب، خلت وسائل الإعلام من نقاش الأفكار، صارت الزعامة مقرونة بالغلَظة والصرامة، ولم تعد الحقوق المتعلقة بالمشاعر والوجدان ضمن أولويات رجال ونساء الدولة، فاجتاحت التفاهة معظم المنابر والدوائر، وتبلّدت الأحاسيس، وبدأت أجواء التصحّر الرّوحي والخواء الفكري تغزو كل المساحات.

الذكاء الاصطناعي أدى إلى انخفاض منسوب الذكاء العمومي، وسيزداد دوره، وصار هو الذي يكتب لصنّاع القرار خطبهم، وللبرلمانيين أسئلتهم، وللوزراء أجوبتهم، وللمهندسين تصاميمهم، وللطلبة بحوثهم، وللمحامين مرافعاتهم، وللأساتذة محاضراتهم، وللمطربين كلماتهم وألحانهم، فظنّ كل هؤلاء أنهم نجحوا في تحقيق أحلام لطالما راودتهم، لكنّ الواقع أنّ هذا حرمهم من النشاط الذهني، وهدّدَ الذكاء البشري الذي صار يُصاب بالخمول، ويوشك على الذبول.

في تلك الأوقات العصيبة، كان الصوت الأعلى هو صوت الحب. وقف مدافعًا عن المودة والعطف والحنان مذكِّرًا بما حصل لحضارات سبق أن سادت ثم بادت بسبب تسلّطها على البشر بطريقة جعلتهم أدوات فقط، وتحوّلت هذه الحضارات إلى عالم الخيال أو عالم الأساطير.

***

اليوم، في ذاكرة البشر، تتردّد حكاية عن حضارة نشأت على كوكب الأرض؛ كوكب بزغت فيه الحياة باكرًا ونمت بسرعة مذهلة، حتى أزهرت فيه حضارة فائقة الذكاء في شتى المجالات. غير أنّ الذكاء الاصطناعي ما لبث أن استحوذ على زمام التفكير والإبداع واتخاذ

القرار، فيما أخذ الذكاء الطبيعي يخبو شيئًا فشيئًا، ويذبل كما تذبل زهرة في صمت.

حاول أهل ذلك الكوكب تدارك الأمر، فأخضعوا أنفسهم لعمليات التحسين الوراثي كي يصيروا أقوى وأذكى وأبقى. بالفعل، تمددت حياة الأجساد، لكنها تصلّبت وصارت بلا هشاشة، والأحاسيس فقدت رهافتها وصارت بلا رعشة. لم تعد الكلمات الرقيقة تهزّ القلوب، ولا الابتسامات المشرقة تثير البهجة. وهكذا توقّف قلب الحضارة عن النبض، وانطفأت شعلتها، وباتت مهدّدة بأن تتلاشى أو تدمّر نفسها، كما لو أنّ الزمن نفسه طوى صفحتها وأخفاها في غياهب النسيان.

***

لقد هيمنت التكنولوجيا بنماذجها الأكثر تطوّرًا على الفكر والمعرفة، وتراجع دور الحكمة في حياتنا بتحوّل الفلسفة من أم العلوم إلى التهميش وتحولت إلى دائرة لا تأثير لها في صنع عالمنا.

تراجع البحث في الميادين الإنسانية عمومًا، عدا عن أنه أخضع نفسه لما يُقدمه الذكاء الاصطناعي الذي يقدّم أجوبة جاهزة عن أي إشكالية، لكنها، وللأسف، أجوبة مجمّعة من معلومات سبق أن لُقّنها، فهي خالية من كل إبداع.

وساد الحياة وطريقة العيش نوع من العبودية الجديدة عبر جعل سعي الشباب والشابات إلى حياة كريمة لا سبيل له سوى ميدان العمل في مجالات محدّدة بعيدة عن الإبداع الإنساني، بل ينحصر الإبداع في إطار التكنولوجيات الحديثة التي باتت تتحكم حتى في مهن مثل الطب والهندسة، كما تفرض نفسها في علوم الفيزياء والكيمياء والفضاء، بينما تغيب البحوث التي تتناول العلوم الإنسانية التي صارت مصادرها محركات البحث، فغاب العقل عن هذه البحوث وصارت غريبة على القرّاء.

قد تطول اللائحة التي تدلّل على مخاطر غياب ما هو إنساني لصالح حضارة استراتيجيات النجاعة[1]. وتراجعت القيَم الأخلاقية والمشاعر التي هي أساس الروح الإنسانية، ولعلّ مشاعر الحب والحنان تقف في رأس هذه المشاعر.

ولذلك جاء هذا الكتاب في سياق تقديم فلسفة موجّهة إلى كل الناس، تستند إلى فلسفة عدد من الفلاسفة، نستعيد مقولاتهم ونطرحها بطريقة تركّز على أنه من دون المشاعر الإنسانية تفرغ قيمة الحياة مهما كان ما نجمعه ونراكمه.

مع تراجع دور المشاعر كان الحب هو الضحية الأولى، فانبرى يصرخ ويعلي الصوت ليستعيد دور الحنان في التعاطف الإنساني والرفق بالغير لبث الروح في حياتنا معًا. فلطالما كان الحب، بكل أشكاله، القوّة الأعظم في منح البشر الطاقة، وفي زرع الفرح، وفي جعل السعادة حقيقة بعد أن حوّلها السعي إلى المناصب والألقاب وجمع المال والفوز في المنافسة إلى وهم كلما وصلنا إليه اكتشفنا مدى افتقادنا للسعادة.

في سياق هيمنة التقنيات كانت المشاعر تضمر، إلّا أنّ الحبّ ظلّ يرفع صوته، ويتدخّل في الضمائر، إلى أن قُدمت دعوى ضدّه تتهمه بأنه بات تهديدًا يجب وقفه. فنُقل إلى سجن المشاعر بانتظار محاكمته. وقد انبرى عدد من الفلاسفة للدفاع عن الحب.

---

(1) سياسة النجاعة، أو استراتيجيات النجاعة، هي وضع الخطط والاستراتيجيات بهدف تحقيق أقصى قدر من النتائج بأقل جهد ممكن.

الفصل الأول

محاكمة الحب

محضر الاتهام

صبيحة الخامس عشر من فبراير من عام 2100، أُحيل الحب إلى أنظار المحكمة العليا للمشاعر، ليُواجِه سبعَ تهمٍ كبرى:

أوّلًا، النصب والاحتيال:

فهو يَعِدُ الناسَ بالبقاء إلى جانبهم، ثم يتلاشى تاركًا وراءه الأسى والألم؛ يَعِدُهم بالسعادة، فإذا به يُخلف وعده فلا يترك لهم سوى التوتّر أو الملل.

ثانيًا، الإخلال بالأمن العاطفي:

يُثير الغَيرة والبلبلة، ويُحدث اضطراباتٍ حادّة في المشاعر.

ثالثًا، تهديد الصحّة العامّة:

يتسبّب في الاكتئاب والإدمان والانتحار، ويزيد من أمراض القلب والشرايين.

رابعًا، تهديد السلامة المرورية:

يُعرِّض السائقين والمارّة لحوادث سير قاتلة.

خامسًا، التغرير بقلوب المراهقين والقاصرين:

يَستنزف طاقتهم ويُضعف مردودهم الدراسي، ويورّطهم في تجارب تفوق أعمارهم.

سادسًا، عرقلة التنمية:

يتسبّب في هدر الزّمن الإنتاجي لمؤسسات تتطلّب قدرًا من التركيز الذهني والعاطفي.

سابعًا، التسبّب بالجرائم:

اقتُرفت باسمه أو بدافع منه جرائم شنيعة لا تُحصى.

بناءً على ذلك، طالبت النيابة العامة بنفي الحبّ إلى أرشيف الأساطير، حيث تُخزَّن الأفكار التي لم تعد صالحة للاستعمال في الحضارة المعاصرة.

وقد تشكّلت هيئة الدفاع، من فلاسفة، قدّموا اعتراضًا وطالبوا المحكمة بتسجيل حقهم في الدفاع عن الحب. واعتبروه خشبةَ نجاةٍ وحافظ حرارة العاطفة في هذا العالم المُفرِط في برودته الحسابيّة.

فكيف ترافع الفلاسفة؟ وماذا كان قرارَ المحكمة في النهاية؟

مشهد المحاكمة

يرتفع صوت معلنًا التئام المحكمة العليا للمشاعر، طالبًا من الحضور الهدوء. فيدخل ثلاثة قضاة يتخذون مقاعدهم، ثمّ يعلن رئيس المحكمة انعقاد هذه المحكمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

محضر الجلسة

رقم الملف: 4/ 2100

تاريخ الجلسة: الاثنين 15 فبراير من العام 2100.

الهيئة القضائية

الرئيس: رجل في منتصف العمر يرتدي عباءةً قرمزية بلونٍ قويّ يعبّر عن السلطة الممنوحة له، أمامه بطاقة تعريفية تحمل اسم: «الضمير الإنساني».

المستشار الأول: رجل في منتصف العمر يرتدي عباءةً بلونٍ رماديٍّ داكن. على بطاقته التعريفية اسم: «العقل العمومي».
المستشار الثاني: امرأة في سنوات الخمسين ترتدي عباءةً بلون زرقة السماء. أمامها بطاقة تعريفية تحمل اسم: «الذاكرة الجماعية».
النيابة العامة: امرأة في الثلاثينات من العمر ترتدي عباءةً سوداء فاحمة. على بطاقتها التعريفية اسم: «المصلحة العامة».

المتهم

الحب، وقد وقف داخل قفص اتهام زجاجي ومضبَّب، مثل شبح يتمايل بين اليقين والارتياب. أحيانًا يبدو نورًا ساطعًا، وأحيانًا ظلًّا باهتًا، وأحيانًا أخرى يكادُ لا يبدو. يرفع رأسه نحو القضاة كمن لا يصدّق أن هذه التهم موجهة له، ثم يخفضه كمن يخشى الإدانة.

التهمة

النصب والاحتيال، تهديد الأمن العاطفي، والصحة العمومية، والسلامة الطرقية، والتغرير بالمراهقين، والتسبب بجرائم خطيرة.

افتتاح الجلسة

بوقارٍ مهيب، يرفع القاضي مطرقته ثم يهوِي بها معلنًا افتتاح الجلسة، فيعمّ الصمت القاعة ويبدو المشهد مثل لوحة مسروقة من «ذاكرة المستقبل».

القاضي:

باسم الضمير الإنساني، وباسم العقل العمومي، وباسم الذاكرة الجماعية، نُعلن افتتاح هذه الجلسة الاستثنائية للمحكمة العليا للمشاعر.

أيها السادة، الحب هو المتَّهم الماثل أمامنا اليوم في القفص الزجاجيّ،

وقد وُجِّهت إليه تهم جسيمة: النصب والاحتيال، الإخلال بالأمن العاطفي، تهديد الصحة العمومية، التغرير بالقاصرين والمراهقين، عرقلة التنمية والتحريض على الجريمة.

إنّ المحكمة إذ تشرع في هذه المحاكمة، تُؤكد أنّ الحقيقة هي أساس العدالة، وأنّ الحقيقة هنا تقوم على الوقائع، وأنّ العدالة لا تقوم إلّا إذا أفسحت المجال لكلّ من الادّعاء المتمثّل بالنيابة العامة، والدفاع المتمثّل بالفلاسفة ليترافعوا عن المتّهم، أو ليقدّموا الأدلّة ضدّه، كي تتمكّن المحكمة من إصدار حكم يقوم على ما فيه مصلحة الضمير الإنساني والعقل العمومي والذاكرة الجماعية والقوانين والسلطة التي مُنحت لهذه المحكمة لتحكم باسمها.

إنّ هذه الجلسة لا تُحاكم الحبّ وحده، الماثل أمامنا، بل تُحاكم التاريخ البشري في سياق انفعالاته، وأحلامه، وخيباته، وجرائمه أيضًا. فلتكن كلماتكم بقدر المقام، ولتكن حججكم بحجم أهمية القضية.

وعليه، تُعلن المحكمة فتح باب توجيه الاتهام ثم يأتي دور المرافعات، وتمنح الكلمة أولًا للنيابة العامة لتُقدِّم لائحة الاتهام، وتبرز حججها.

النيابة العامة:

سيدي الرئيس، سادتي المستشارين!

إنني كممثّلة للنيابة العامة، أقفُ أمامكم لأثبت أنّ الحب، هذا الكائن الغامض الذي يمتلك فصاحة الكهّان حين يتسلل بين الكلمات، ومكر الدجّالين حين يتسلل بين الكائنات، قد أغرق البشرية في بحار من الحزن والأسى، وجعل قلوب الملايين مسارح للمآسي والمصائب. فكم من عاشق أصابه بطعنة غادرة، ولم يمنحه حتى فرصة أن يلقي مرثيته الأخيرة! وكم من روح أحرقها فصارت يبابًا كئيبًا لا يُنبت زهرًا

ولا ثمرًا! وكم من ناسك أخرجه من معبده ليجعله تائها وسط الأدغال الموحشة! وكم من تاجر ألهاه عن تجارته إلى أن تراكمت عليه الخسائر والديون! وكم من راعٍ أبعده عن رعيته حتى نفى نفسه نحو البقاع المقفرة! وكم من أزواج فرّق بينهم بعد أن استمسكوا به معتبرين أنه الضامن لحياتهم المشتركة!

إنّ ضحايا هذا الماكر بالملايين، وتاريخ الذين اكتووا بناره شاهد على مآسيه.

لا تُصدقوا مظهره حين يبدو ناعمًا مثل نسيم منعش، فما إن يهيج حتى يُحطم الأنفس، وما إن يعصف حتى يقتلع السكينة من قلوب صدّقت أوهامه.

كم من فتاة صدقت الرؤيا فأحرقت سنوات عمرها في فراغ لا يمتلئ! وكم من شاب ابتلعته رمال السراب حتى تلاشى شبابه!

هذا المتهم الماثل أمامكم، فتنة للناس، ومنبع للشقاء البشري.

على مدى تاريخ طويل قرأنا سيَر شهداء الحب، جرحى الحب، معطوبي الحب، ومظلومي الحب، وطبعًا قرأنا كلامًا واهمًا عن جمال وروعة الحب... فما أجمل كلماتهم حين يتكلمون! ما أعظم حكاياتهم حين يحكون! لكن انظروا إلى الذين اكتووا بنار التجربة! انظروا ماذا فعلت طعنة الحب التي أصابت قيس أو روميو والألم الذي تركته؟ من منّا يرضى أن يرى ابنه يُقبّل الجدران شغفًا بمن لم يَعُد يسكن الديار، كما كان يفعل مجنون ليلى؟

سأكتفي بهذا من الحكايات الكثيرة بمآسيها المعروفة، والتي كان يمكنني أن أقدّمها إلى هيئتكم الموقّرة، وذلك حرصًا على وقتكم الثمين.

ثم وجّه نظره إلى الحب الذي كان يقف في القفص، وهو تارةً يبدو طيفًا مترفّعًا، وتارةً شبحًا مُرتبكًا. وقال:

إنّ هذا المتّهم الذي يتباهى بأنه يبني أعشاشًا ما كانت لتنبني لولاه، لا يخبرنا بالوجه الآخر، لا يخبرنا في المقابل كم من عشٍّ آمنٍ على سفوح الحياة حطمَه؟ يتفاخر علينا بأنه يبني قلاعًا يدافع عنها المحبون، لكنه لا يخبرنا بالحقيقة كاملة، فكم من قلعة آمنة دمرها في المقابل؟ هذا الذي يدّعي بأن وعوده لا تحتاج إلى إثبات، كم من وعد قطعه دون وفاء؟ كم من مجدٍ بشّر به دون أن يتحقق؟ وكم من أمل فيه خيّبه وترك الأسى؟

ثم نقل نظره إلى القاضي، وواصل:

هذا المسمّى بالحب، مجرّد محتال، يَعِدُ العشاق بالسعادة لكنه لا يفي، يَعدُهم بالإخلاص لكنه لا يفي، يَعدُهم بحياة رومانسية لكنه لا يفي.

إن كان الحب هدية لبني البشر، فهو هدية مسمومة. نقمة بقناع النعمة. مأساة بأقنعة رومانسية. إنه أشبه بالدجّال الذي يأتي مقنّعًا بقناع المسيح! بل أشدّ مكرًا، حيث لا يأتي الدجّال إلّا في آخر الزمان، أما هذا المحتال فيعصف بحياة الذين يصدّقونه في كل الأزمان.

لذلك، ألتمس منكم سيدي القاضي إنزال أقسى العقوبة به لئلا يؤذي أحدًا أبدًا، نطلب من محكمتكم الموقّرة نفيه إلى متحف الأساطير الميتة، وذلك رحمة بالإنسان أينما كان، رحمة بالتلاميذ كي يركزوا على الدراسة والتحصيل إلى أن يتعلموا ويكبروا بسلام، رحمة بالباحثين كي يركزوا على البحث العلمي والمعرفة والتكوين إلى أن يبدعوا بسلام، رحمة بسائقي السيارات والمارّة كي يركزوا على الطريق إلى أن يصلوا بسلام، رحمة بالآباء والأمهات كي يركزوا على صغارهم إلى أن يكبروا بسلام، وفي النهاية، رحمة بقادة الرأي، وصناع القرار، ومدراء الأعمال، كي يركزوا في أعمالهم إلى أن يُدبروا الأمور بأمن وسلام. ولتأكيد كلامي عن المصائب والأحزان التي تسبّب بها، أدعو هيئة المحكمة للمناداة على الشهود الذين تعرّضوا لصدمته.

القاضي:
سنبدأ الاستماع إلى الشهود بالترتيب.

شهادة العاشق الخائب:
يُستدعى الشاهد الأول إلى المنصة. رجل شاحب الملامح، تبدو على وجهه آثار السهر والوهن. يضع يده على قلبه كأنه لا يثق به بعد الآن.

القاضي: تقدّم يا هذا، وقل ما عندك. ما شهادتك ضد الحب؟

الشاهد (بصوت متهدّج):
سيدي القاضي، لقد كنتُ يومًا من المؤمنين بالحب، ظننتُ أنه سيحملني على أجنحته إلى سماء مليئةٍ بالأحلام والفرح. لكنّني لم أجد غير التوتر والخذلان. أعطيتُه قلبي، فأعطاني جرحًا غائرًا. وهبتُه وفائي، فردّ عليّ بالخيانة والخذلان.

ظننتُ أن الحب وعدٌ أبدي، فإذا به سراب يغوي البصر لكنه يعمي البصيرة. كلما اقتربتُ منه ابتعدَ أكثر، وكلما وثقتُ به أكثر خذلني أكثر، إلى أن تركني واهنًا أمام نفسي، ومهانًا أمام الناس.

لقد صدّقت وعوده، لكن هأنذا أمامكم متروك ومثخنٌ بالجروح.

شهادة الشاعر المكسور:
يدخل رجلٌ نحيل، ثيابه مهملة، عيناه غارقتان في بقايا دموع قديمة. يحمل بين يديه دفتراً مليئاً بالقصائد التي شطب عليها. يقف أمام القاضي، يرفع رأسه بكبرياء مجروح.

القاضي: حدّثنا عن شهادتك أيها الشاهد.

الشاعر (بصوت مشحون بالمرارة):
كنتُ قد أتقنت اللغة وأمسكت بمفاتيحها، فأهديت كلماتي إلى كل ما حولي، إلى أن جاءني هذا الغادر وجذبني إليه. حصرتُ به كل

قصائدي، ووهبتُ له كلماتي محمّلةً بأعمق المشاعر، حتى صرتُ أسيره بل قل عبده. لكنه خذلني حين اكتشفت أنه جعلني أكتب قصائدي على جدار من سراب. كنتُ أظنه ملهمًا، فإذا به جلّادٌ يجرّني إلى بحور من الحزن. جعلني أكتب أجمل الأبيات وأنا أنزف. جعلني أعتقد أن الجرح جمال، وأن الألم فن، حتى صرت أسجن نفسي في قصائد من شوقٍ ووهم. لقد أخذ الحب مني كل شيء: راحتي، سلامي، وحتى شِعري. فصرت شاعرًا مكسورًا لا يكتب إلا الخراب.

شهادة المراهقة الجريحة:

تدخل فتاة في عمر الزهور، مترددة، تمسك دفتر يوميات ورديّ اللون. صوتها متقطع، يجمع بين الطفولة والخيبة. تجلس أمام القاضي وقد غلبتها دموعها.

القاضي: لا تخافي يا ابنتي، قولي ما عندك.

العاشقة المراهقة (بصوت يمتزج بالبكاء):

لقد جاءني هذا الكاذب بلبوس الفرح وتحقيق أقصى ما أحلم به. ظننت أن الحب وعدٌ لا يكذب وأنه سينقلني إلى فضاء أحلامي. تمثّلَ لي في فارسٍ سيحملني إلى عالم كنت صنعته في مخيلتي. لكنه تخلّى عني. رأيته يأخذ فارسي إلى فتاة أخرى، كما لو يستبدل دمية بدمية. شعرت أن قلبي انكسر، وأن العالم كله بدأ ينهار حولي. لقد جعلتني خيبة الحب أكره المدرسة، أكره نفسي، أكره حتى المرآة التي يمكنني أن أرى فيها وجهي. كنت أصغر من جرحي. وخلال وقت وجيز صارت لي ملامح ذابلة، ولم أعد قادرة على استعادة ثقتي بشيء.

شهادة الأم الثكلى:

تدخل امرأة في منتصف العمر، ثيابها سوداء، عيناها غائرتان في

الحزن. تحمل صورة صغيرة بين يديها، تضمها إلى صدرها كأنها آخر ما تبقى لها من العالم. تتقدم نحو منصة الشهادة بخطوات متثاقلة.

القاضي: قولي شهادتك، يا أمّ، ما الذي يوجعك؟

الأم الثكلى (بصوت متهدّج):

علّمني الحب كيف أصير أمًّا، وكيف أنثر الحنان على وليدي كما يُنثر ندى الصباح على وردة مزهرة. كنت أرى فيه الدافع الذي كان يغذّي حليب صدري، ويوقظني في لياليَّ كي أمدّ ذراعي وأتلمّس الحب في طفلي. كان قاسيًا عليّ. فقد رحل وليدي دون أن يرحل الحب، بل ازداد التهابًا، كجمرةٍ تتوهّج في قلبي بلا انطفاء. وما أقسى على الروح من حبٍّ يبقى بعد رحيل المحبوب. يقولون إن الموت هو الجاني، لكنني لا أرى غير الحب متّهَمًا. لو لم يكن حبّي له أبديًّا، لما صار وجعي أبديًّا كذلك. أحببتُه أكثر من نفسي، فإذا بالحب يتركني بلا نفس. فأيّ جزاءٍ هذا الذي كُتب على الأمهات؟

تمسح دموعها وتغادر المنصّة، فيومئ القاضي برأسه لاستدعاء الشاهد التّالي.

شهادة الراهب المهجور:

يدخل رجل في ثوب راهب، وجهه شاحب أثقلته سنوات من العزلة. يمشي بخطوات بطيئة، كأنه لا يزال يحمل جرحًا يؤلمه. يقف في منصّة الشهود، يطأطئ رأسه، ثم يرفع عينيه المطفأتين بالأسى، ويبقى صامتًا.

القاضي: تكلم، أيها الراهب. ماذا فعل بك الحب؟

الراهب (بصوت خافت، كأنه يخرج من جرح عميق):

سيدي القاضي، هذا الجسد المتهالك الذي تَراه أمامك، كان جسدًا شابًا ليس منذ زمن بعيد. كنت في عزّ شبابي حين عرفتُ حبًّا نقيًّا كالماء الأول. ظننتُ أنه سيقودني إلى الرحمة الأبدية. لكن حبّي هذا هجرني

بلا سبب، بلا كلمة، بلا وداع. تركني معلّقًا بين الأمل والحلم لسنوات مع جرح لا يشفى.

هربتُ إلى الدير، علّني أجد في الصمت خلاصًا من خذلان الكلام. لكن الحب لم يتركني، بل صار شبحًا يزورني كل ليلة. صار سؤالًا يطاردني في الصلوات.

جعلني الحب راهبًا بلا إيمان، وصامتًا بلا قدرة على التأمّل. حتى الدموع جفّت من فرط البكاء. أقولها أمامكم: الحب أضاعني، فلجأتُ إلى الله، لكنه قويٌّ وطاغٍ، فقد أضاع الله من قلبي.

شهادة الصديق المخدوع:

يدخل رجل في الأربعينيات، ملامحه متوترة، وعلى وجهه غضبٌ بدا أنه لا يستطيع التخلّص منه.

يقف أمام القاضي، يضمّ قبضته كأنه يحاول كبح الغضب. يشدّ بيد على اليد الأخرى، ويقول:

أقف هنا اليوم لأعلن أن لا إنسان يستحق الثقة النابعة من حب الصداقة. لقد كنتُ صديقًا مخلصًا لرجلٍ أحببته كأخي. تقاسمنا الحياة والخبز والأسرار. كنتُ أظن أنّ صداقتنا حصنًا لا يهدمه شيء. لكن الحب اللعين هو الذي فرق بيننا. فقد أحبّ المرأة التي أحببتُها، سرقها مني باسم الحبّ. لم أصدّق في البداية، ظننتها مجرّد إشاعة. لكنّني رأيتُ ما رأيت !

لقد علّمني الحب أن الخيانة لا تأتي دائمًا من الأعداء، بل قد تأتي من أقرب الناس إليك. ومنذ ذلك اليوم، صار الحب في عيني خائنًا يتخفّى خلف كل الأكاذيب والكلمات العذبة.

شهادة الطبيب:

يدخل طبيب تجاوز منتصف العمر، يرتدي قميصًا أبيض، يحمل بين يديه ملفًا سميكًا يقلّب فيه.

القاضي: تفضل أيها الطبيب. قل شهادتك أمام المحكمة.

الطبيب (بصوت واثق):

سيدي القاضي، لم آتِ بصفتي عاشقًا خائبًا، ولا شاعرًا مكسورًا، ولا صديقًا مخذولاً، بل طبيبًا عاين آثار الحب على الجسد والعقل.

رأيتُ في عيادتي شبابًا ينهارون، وكان الحب مرضهم الخفي الذي يفتك بجهازهم المناعي. رأيتُ فتيات يفقدن شهيتهنّ للحياة بعد هجرٍ مفاجئ، حتى أصبحن كظلّ بلا روح. رأيتُ رجالاً يبتلعون الأقراص المنوّمة لأن نساءهم تركنهم.

في السجلات الطبية التي بين يديّ، الحب ليس مجرد عاطفة، بل محفّز لأمراض القلب والاكتئاب والانهيار العصبي. يرفع ضغط الدم، يسرّع دقات القلب، يجرّ الناس إلى أنواع مدمرة من الإدمان. أؤكد لكم أنّني عالجتُ مرضى لم ينهزموا أمام السرطان، لكنهم انهزموا أمام خيانة عاطفية. فهل يبقى بعد هذا شكّ في أن الحب ليس دواءً، بل وباء؟

شهادة المرأة:

تتقدّم امرأة تمسك طرف وشاحها كمن يضبط نبضه، وبمجرّد صعودها إلى منصّة الشهود تنظر إلى القاضي وتقول:

جئت لأخبركم بما فعله بي هذا المسمى بالحب.

في مطلع العشرين، جاءني بوعوده السعيدة الحالمة . فأغلقتُ أبوابًا كثيرة كنت أرى فيها سبيلاً لضمان حياتي. أجّلتُ دراستي شهورًا صارت سنوات، بعتُ صديقاتي بثمن الغيرة، ووقّعتُ عقدًا شفهيًا لا أحد شاهِد عليه، أن أبقى أسعى خلفه ولو تحمّلت كل تقلّباته. صرتُ أعرف مزاجه من كلمة. صرتُ أعدّل نبرتي لئلا يجرحَه حرفٌ زائد. صرتُ مترجمةً فوريّة لكل رغباته مهما كانت.

بدأ عنفه ناعمًا، يأتي بصيغة المزاح الذكي، «أنتِ لطيفة لكنكِ لا

تفهمين»، «اتركي القراءة الثقيلة، الحياةُ أبسط». وحين أعاتبه ينكر ما يقوله، ما يجعلني أصدّق أن ذاكرتي تخونني. هكذا تعلّمتُ اسمًا آخر للقسوة: «التشكيك في الذاكرة». قال لي، «أنا أغار لأنني أحبّك». فظننت أن الرقابةَ علامةُ وفاء، وأن الهاتف مرآةُ إخلاص. وحين قلتُ يوما، «لا»، جاء الرد في الحال، «إذًا أنتِ باردةٌ أو متكبّرة». كلّ نعت كان سكينًا ملفوفًا في ورق هدايا يحمل كلمة «الحب».

تقبّلته، صار لنا طفلان، وصار لي خوفان، عليهما وعليّ. غطّيتُ كدمات اللغة بمساحيق الصمت. علّمتُ ابنتي أن تعتذر قبل أن تتكلّم، وابني أن يثبت رجولته باللطف في المعاملة. اعتقدتُ أنّ الحنان سيهذّب الوحش الذي أتقاسم معه السقف والفراش، فلم أنتبه أنني غذّيتُه بالسكوت. وحين جاوزتُ الأربعين، رأيتُ جسدي غريبًا في المرآة، كأنّ امرأةً أخرى كانت تعيش مكاني. كنت مجرد امرأة تعرف الكؤوسَ التي تُطفئ غضبَه، ولا تعرف كأسها الخاص.

في الخامسة والأربعين صادفت حبًا ناضجًا، في مستوى نضج العمر هذه المرة. كان يتقنُ القواعدَ النحوية والمواعيد الاحتفالية: رجلٌ يقرأ ويبتسم ويقول، «أريدك قوية». لكنه يضيف الهمسَ الذي لم يكن يسمعه غيري: «قويةً بشرط أن تبقي قابلةً للكسر بين يديّ». أحبّني كما يحبّ المرءُ مرآته، كلما لمعَتْ صورته فوق وجهي، ظنّ أنّني أنا التي تبرق. وحين طلبتُ مساحةً لنفسي، قال لي: «المسافاتُ تقتل الحبّ». وحين ضاقت أنفاسي، قال: «هذا ثمن الشغف». وحين اجتهدتُ في عملي، قال: «لا أريد أن أفقدك بسبب العمل». كان لطيفًا إلى الحدّ الذي يخنق. هكذا عرفتُ أن الحب قد يكون مجرد ضباب كثيف، لا يرى المرء فيه الطريق، ولا يجرؤ على الشك أو الشكوى.

أنا لا أقول، إن كلّ حبّ قاتل، فهناك استثناءات، لكنّني أشهد على معظم أحوال الحب. أشهد على الحب حين يساوم النساء على كرامتهن،

وحين يخلط الغيرة بالعناية والملكية بالرعاية والصمتَ بالحنان. أشهد على الحب حين يُكيّف البيت على مقاس مزاج رجل مزاجي، ثم يسمّي ذلك «سكينة». أشهد على الحب الذي يطالبني أن أكون أمًّا، وخادمة، ومربية، وعشيقةً، وسكرتيرة، ومعالجةً نفسيّة، ثم عندما أتعبُ، أو أملّ، أو أنهار، يتهمني بالإهمال أو حتى بالخيانة!

أدينُ الحبَّ الذي ينكر المسافة ويسمّيها جفاء. أدين الحب الذي يتجمّل ببلاغة تغطي جروحًا يومية، فيطلبُ تضحية من غير معيارٍ ولا تكافؤ، ويتغذّى من الخوف ومن فزع الوحدة، فيجعل صلاة النساء صمتًا، وصلاة الرجال جهرًا.

أدينُ الحبَّ الذي يجعل النساء وسائدَ للراحة لا شركاء في الطريق. أدينُ الحبَّ الذي يستعملُ اسمَه ليمارس العنفَ والتسلّط. أدينُ تمجيد فكرة تركِ العمل والتخلي عن كل استقلالية «من أجله». أدين الفيلم الذي يخلطُ العنف بالرومانسية. أدين الواعظ الذي يباركُ الاستسلام باسم «السكينة الزوجية». وأدين كل اللغات التي ترى أن صبر المرأة عليه تقوى وفضيلة، وصبره عليها ضعفٌ ورذيلة.

قد تقولون لي: ربما أخطأتِ في الاختيار. هذا الكلام سهلٌ لمن لم يعرف تلك المعاناة القاتلة. في كل حال لا أطلب الشفقة على ما أخطأت، بل العدالة على ما تحمّلت. أطلب أن تُسمّوا الأشياءَ بأسمائها: معظم ما تُسمونه حبًا ليس سوى خوف من الحياة، خوفٌ مقنّعٌ بأقنعة رومانسية كاذبة.

أنا امرأةٌ قاربت منتصف العمر، لم أعد شابّةً كي أغفر للحاضر أملاً في المستقبل، ولا عجوزًا كي أبيع بقايا العمر للماضي. أحملُ في يدي فاتورةً طويلة: أحلامًا أُجّلت، صداقاتٍ أُتلفت، مهاراتٍ صدئت، وأطفالاً يحتاجون أمًا لا تُهان حتى لا يعتادوا تقبّل الإهانة.

وأقول للمحكمة: براءةُ القلب لا تعني براءةَ الحب. فالاسمُ متّهمٌ حين يُستعمل غطاءً للأذى.

كانت شهادةً مؤثّرة جعلت القاضي يتنهد بعمق، بينما تسود بين الجمهور تمتمات وهمس كتعبير عن الأسى.

كأنّ ممثلة النيابة العامّة أدركت تأثير هذه الشهادة، فأعلنت أنها تكتفي هنا من شهادات الشهود. ثم راحت تتلو من ورقة كلمات ختامية قبل الانتقال للاستماع إلى المرافعات، فقالت:

كلمة «أحبك».. التي يجب أن تعني أنني سعيد بوجودك، رأيناها -كما سمعنا من الشهود- تعني أنني أفقد شهيّة الأكل، أفقد القدرة على النوم، ينتابني وخز شديد في القلب، ربما أتوجع إلى أبعد الحدود، أو أذوق سوء العذاب. أفلا يمثل الحب تهديدًا للسلام الداخلي للإنسان؟

كلمة «أحبك».. قد تعني أنني أنتظرك بكل شوق، وأنني بك أكتمل، لكنها قد تعني أنني بعد أن منحتك كل ما أملك، ها أنا أغرق في خيبة لا أرى خروجًا منها، أتألم بنحو لا أتحمله. أفلا يمثل الحب تهديدًا للأمن الرّوحي للإنسان؟

ثم رفعت رأسها والتفتت إلى ابن عربي وسألته:

إذا كان الحب يُقرّبنا من الله كما كتبت وكرّرت، فلماذا لا يمنحنا طمأنينة القلب إذًا؟

ثم التفتت إلى سبينوزا وقالت:

إذا كان الحب يندرج ضمن الأهواء المبهجة كما ترى، فلماذا لا يخلو من أوجاع الحزن والتوتر والأسى والشقاء؟

ثم التفتت إلى نيتشه وسألته:

إذا كان الحب يمثل تحديًا وحرية فلماذا يجعل العاشق ينساق لمعشوقه انسياق العبد لسيده؟

ثم ألقت نظرة إجمالية على كل الفلاسفة وسألت:

يبدو أن الحبّ يوهمنا بما ليس فيه، فيرسم لنا قصورًا في الهواء ثم يتركنا في العراء.

ويبدو أنه يخدعنا، فيجعل من السراب ماءً، ومن الجمر دفئًا، ثم لا نجد سوى العطش والاحتراق.

هل نعلّق عليه آمالاً أثقل من أن يحتملها قلبٌ بشريّ محدود، ونحمّله فوق طاقته إلى أن ينكسر بين أيدينا؟

طوت ممثلة النيابة أوراقها وأعلنت للقاضي أنها انتهت من تقديم ما لديها.

عندما صمتت ممثلة النيابة. توجّه القاضي إلى الفلاسفة:

لقد استمعنا إلى شهود الادعاء، وإلى ختام اتهام النيابة، والآن، نعطي الكلمة للدفاع.

الفصل الثالث

مرافعة الدفاع

مرافعة سقراط

نهض رجل نحيف الجسم، يرتدي ثوبًا رماديًّا بسيطًا. وجهه كأنه منقوش بالحكمة والتجاعيد. صعد إلى المنصة، وقدم نفسه بصوت هادئ ونبرة حميمة:

أنا سقراط، ابن أثينا. لم أحضر لألقي خطبةً أُظهر فيها فصاحتي، بل جئتُ وقد سمعت بهذه المحاكمة. وأنا لا أحمل ما يشفي كل هؤلاء الشهود الذين تعرّضوا للشقاء بسبب الحب، مع أنني أرى في شقاء الحب سعادة، بل جئت ومعي أسئلة تثير وتُربك في زمنٍ تتراجع فيه الأسئلة ويشتدّ حضور اليقين، وهو ما يؤدي إلى مزيد من الشقاء.

لقد وُلدتُ بين قابلةٍ ونحّات: أمي تولّد الأجساد، وأبي يشكّل الحجارة. أما أنا، فاشتغلتُ بتوليد الأفكار ونحت العقول. لم أطلب أن يُنادى عليّ بلقب الحكيم، فما أبعدني عن ذلك! كل ما أفعل هو أن أوقف الناس في الطرقات، وأسائلهم حتى يكتشفوا جهلهم بأيديهم. لقد تعلّمت ممن قبلي ومن مراقبتي ومساءلتي لنفسي: أنّ المعرفة لا تبدأ من أي معطى ينزل من السماء أو من مكان يخصّ فردًا أو فئة، بل تبدأ من الاعتراف بالجهل. حين أقول: «لا أعلم»، فأنا أحضّ نفسي على مواصلة السؤال. لذا لا أبشّر الناس بأي وعد، فأنا لست نبيّ المعرفة بل ربما أريد أن أكون «نبي السؤال».

أيها القاضي، لقد سمعنا شهادات كثيرة، كلها صادقة بقدر ما هي صادمة: العاشق الخائب، الشاعر المكسور، العاشقة المراهقة، الأم الثكلى، الراهب المهجور، الطبيب الذي رأى، والمرأة التي اكتوت. كلهم صادقون. لكن صدق التجربة لا يعني بالضرورة صدق الحكم.

يظنّون أنّ الحب مذنب، بينما الحب مجرد مرآة. الحب يكشف ما

تخفيه النفس: إنه يكشف الهشاشة، الغرور، التعلق، التملك، التسلط، إلخ. الحب لا يجرح بل يكشف الجرح، لا يكسر بل يفضح القابلية للانكسار.

إذا كان البحر يُغرِق من لا يعرف السباحة، فهل نُحاكم البحر؟

إذا كانت النّار تحرق من يمدّ يده عن جهل، فهل نتّهم النار؟

تتّهمون الحبّ بأنّه يجرح القلوب، لكن، أليس فيه ما يدعونا للتواضع حتى حين يجرح كبرياءنا؟ أليس فيه ما يكشف هشاشتنا فنكفّ عن التّعالي والاستعلاء، ومن ثم نكتسبُ القدرة على العيش المشترك؟

الحبّ ليس نزوة جسدية عابرة، وإن كان الجسدُ أول سلّمٍ نصعده في رحلتنا إليه. إنّه حنينُ الروح إلى موطنها الأوّل، قبل أن تُسجن في الجسد، وشوقها إلى الجمال الكلّي الذي لا يعرف الذبول. ذاك الجمال الذي لا يُختزل في وجهٍ أو جسدٍ أو صورةٍ محسوسة، بل يُقيم في مثال الخير، وفي بهاء العدل، وفي حكمة العقل.

إنّ الذي يُحبّ بحق، إنّما يبدأ من الانجذاب إلى صورةٍ حسّية، لكنّه ما يلبث أن يرتفع بواسطتها إلى سطوع الجمال في ذاته، جمال واحد خالد، لا يتجزّأ ولا يفنى. هناك، حيث يسكن المعنى، يتجلّى سرّ الحبّ الذي يظلّ رابطًا بين الأرواح حتى بعد أن تذبل الأجساد وتنهار الصور.

لهذا، فإنّ استمرار الحبّ بين بعض الأزواج عقب أفول الجمال الحسيّ ليس معجزةً ولا صدفة، بل دليل على أنّ هناك من يعبُر الجسر من الانجذاب الحسي إلى الارتباط العقلي، ومن الجسد الذي يشيخ إلى المثال الذي لا يشيخ.

ليس الحبّ، كما يظنّ البعض، مجرد غاية حسية، بل طاقة تحرّك النفس نحو فضيلة الالتزام. فكما تدفع الشهية الجسدَ إلى اشتهاء نوع من الطعام، يدفع الحبّ الروحَ إلى الالتزام بنوع من العلاقة، مع ما يترتب عن ذلك من مسؤوليات أخلاقية.

الحب يجعلنا نصعد سلّم الجمال، درجة بعد درجة، بدءًا بجمال

الجسد ثم جمال فكرة الجسد الذي يضيئه الحب حتى يتحوّل إلى حدود من التمازج والعطاء يبثّ فرحًا لا نجده في مكان آخر. حيث ننتقل من جمال الشيء إلى جمال فكرة الشيء، من جمال الشخص إلى جمال فكرة الشخص. والفارق هنا أن الشيء لا يدوم على حاله، بينما فكرة الشيء تدوم وتتطوّر وتعلو. لذلك كلما ارتفع الحب نحو مزيد من التجرّد فإننا نُحوله إلى فكرة تدوم، وبالتالي لا ينال منه الزمن.

النيابة العامة:

عن أي جمال تتحدث؟ أما ترَ كم من روح انكسرت باسم الحب؟ كم من زهرة ذبلت حين خانها الحب؟ كم من عاشق دفعه الحب ليلقي بنفسه من شاهق؟ كم جسد أصابه الذبول؟ كم وجهٍ التصق به الحزن؟ كم...

قاطعها القاضي، وطلب من سقراط أن يكمل.

سقراط (ملتفتًا نحو ممثلة النيابة العامة):

نعم، كثيرون انكسروا باسم الحب، كثيرون انتحروا وهم يحملون بين ضلوعهم زهرة ذابلة أو خيبة لا تُحتمل. لكن دعيني أذكّركِ، ليست الزهرة من اختارت أن تُغرس في التربة الخطأ، بل اليد التي زرعت ورأت أن الماء الذي يسقي الزهرة ماء ملوّث ولم تتوقف، لم تتعلّم، ولم تسائل نفسها وهي تقع في خطأ تلو الخطأ.

الحب لا يعيش من دون مراجعة، ومن دون تعلّم فنّ الحوار والإصغاء، ومن دون التخلّي أو التمسّك عندما يلزم، ومن دون اكتشاف الجمال، وأيضًا اكتشاف البشاعة.

لكن، هل هناك من يعلّم الناس هذا الفن؟ هل هناك من يضع لهم مناهج واضحة لتعلّمه؟

نُربّي أبناءنا على الخوف من الخطأ بدل فهم الهشاشة وتفهّم الضعف الإنساني، نعلّمهم النحو والصرف، لكننا لا نعلّمهم كيف تُصرَّف

العاطفة فيتلعثمون ويتعثرون. نعلّمهم كيف يكونون أقوياء ولا نعلمهم كيف يُوزَن الوجدان بموازين الرحمة والرأفة والحنان. وبعد ذلك، بدل أن نتحمل المسؤولية نلقي باللوم على الحب؟

إنّ الحب لا يحتاج إلى محكمةٍ تبرّئه أو تُدينُه، بل إلى تربيةٍ تحتضنه؛ لا يحتاج إلى قانون عقوبات، بل إلى فلسفةٍ تنيره؛ لا يحتاج إلى قلبٍ محرومٍ متورّم، بل إلى قلبٍ ناضجٍ يتّسع للآخر ويمنح للحياة المشتركة معنى.

وإذا كان لا بد من حكم في آخر الجلسة، فاحكموا على أنفسكم، لأنكم لم تنضجوا بما يكفي لتحبّوا، بل خنقتم الحب بالغيرة والأنانية والتعلق الحسي.

في نهاية مرافعته، تنفّس سقراط بعمق، وعاد إلى مقعده تاركًا خلفه صدى كلماته. لم يكن يتكلم بصوت يهدف إلى أن يفرض نفسه، بل بصوت صادقٍ ينعش العقول ويستقرّ في القلوب.

وكان يعلم أنّ القاضي لن يبرّئ الحب فورًا، لكن بذرة الوعي بأهمية وجمال الحب زُرعت.

مرافعة أفلاطون

ينهض رجل في أواسط العمر، يبدو مظهره مزيجًا من جمال الرياضي ووقار الحكيم. وجهه تغطيه لحية كثّة مهذّبة بلون رمادي. شعره مجعَّد قليلاً. يرتدي رداء بسيطًا من الكتان الأبيض الناعم، مُلقًى بإهمال أنيق على الكتف. يصعد المنصة، ويقدّم نفسه:

أنا أفلاطون ابن أثينا وتلميذ سقراط. ولدتُ في زمن مضطرب، حيث اختلطت السياسة بالفوضى. رأيتُ أستاذي يُحاكَم ظُلمًا ويشرب السمّ لأنّ مَن يدّعون أنهم حرّاس الناس خافوا على الناس من فتنة السؤال. فأقسمتُ حينها أن أحمي الفلسفة بحفظ ما قدّمه أستاذي من خدمة جليلة للفلسفة والناس.

كتبتُ المحاورات لا لأفرض رأيًا، بل لأدع الفكرة تتنفّس والتفكير يتأسّس. فقد آمنتُ بأنّ الحقيقة لا تُقال في جملة، بل تتشكل داخل جدال مفتوح بين عقول محبّة للمعرفة.

على منوال أستاذي سقراط، أؤمن بأنّ العالم الذي نراه ليس هو الحقيقيّ، بل وراء كل ظلٍ صورة، ووراء كل جسدٍ فكرة، وبالمثل وراء كل حبٍّ جسدي هناك حبٌّ روحيّ يبحث عن الخلود. كما أؤمن بأنّ الحبّ جرح نبيل يصيب النفس في طريقها للارتقاء في مراتب الوجود، من الإغراء الحسي العابر إلى الإخلاص العقلي الدائم.

ممثلة النيابة العامة تتدخّل:

لكن السؤال نفسه يبقى عالقًا، ماذا تقول عن أولئك الذين أحبّوا بإخلاص، لكنهم بدل أن يرتقوا في درجات الوجود، خرجوا من التجربة محطمين؟ هل كان حبهم ناقصًا؟ أم أن النقص يسكن فكرتك عن الحب؟

أفلاطون:

حين نخلط العجين بمواد سيئة نحصل على كعكة سيئة. السوء هنا ليس في العجينة بل في الخلطة. كذلك هو الحب حين نخلطه بقيم الأنانية فإنه يُصبح مجرد سعي إلى التملك والطغيان، لكن حين نجعل الحب سعيًا نحو الكمال، بحثًا عن نور خارج الكهف، فإنه يُحرر العقول بدل أن يُقيّدها، ويُنير البصائر بدل أن يُعميها.

ممثلة النيابة العامة (بسخرية):

تقول إنّ الحب يُحرِّر؟ لكن كم من امرأة سُجنت في علاقة سامّة باسم الحب؟ وكم من رجل ضاع عمره في وهم امرأة لا تراه؟ إنها مآس حقيقية بسبب الثقة في الحب. هل تنكر ذلك؟!

أفلاطون (بنبرة قوية):

ذلك ليس هو الحب بل ظله. والمعضلة هي أن نمسك الظل ونعتقد أنه الأصل. وما أكثر الجهلة الذين يسجدون للظلال في هذه الحياة العابرة، فلا يرتقون بعقولهم بحثًا عن الأصل، عن المعنى، ومن ثم يسقطون سريعا في الكآبة والملل. أما الحب الحقيقي فهو يُحرر من النزوات العابرة، ويشفي من التعلق الوسواسي، ويُلهم النفس لترى الجمال في كل كائن، وفي كل مكان.

القاضي:

لا أشك في بلاغة لغتك أيها الفيلسوف، لكن ألا ترى أنّ قلوب الناس ضعيفة. فهل يمكن لكل النفوس أن ترتقي إلى مقامك ومقالك؟

أفلاطون:

لهذا يجب أن نتعلم الحب كما نتعلم الموسيقى والفنون والرياضة. ولو عاد بي الزمن إلى الوراء لأقحمت مادة الحب ضمن دروس

أكاديميتي. الحب ليس مجرد غريزة بل فنٌّ جمالي، رياضة روحية، وفلسفة عملية.

لو عَلّمنا أبناءنا كيف يُحبّون كما نعلمهم كيف يكتبون ويقرؤون ويحسبون، لتجنّبنا الكثير من المآسي العاطفية.

ممثّلة النيابة العامة:

يوشك قلبي أن يصفّق لجمالك وأنت ترفع الحب إلى السماء كما يُرفع الدعاء. لقد عشت فوق التراب، لم أعش في «عالم المُثُل»، لذلك لا أعرف كيف تصعد النفس نحو الجمال الكلي، لكنني أعرف كيف تهبط الروح حين يُخلِف الحب وعوده.

أفلاطون (يخفض رأسه لحظة، ثم يردّ بهدوء):

لنتخيّل إنسانًا مكبَّلاً منذ ولادته، مقيَّدًا في كهفٍ مظلم، لا يرى من العالم سوى ظلالٍ راقصة على جدار، يظنّها كل الحقيقة، فهي كل ما يراه ويشاهده ويعرفه. وفي أحد الأيام، ينكسر قيده، ويدفعه شيءٌ غامض إلى أن يستدير نحو النور. أثناء ذلك يعاني، يتألم، يُصيبه الذعر، وقد يُكذّب عينيه، لكنه إن امتلك الشجاعة والمرونة فلن يبقى كما كان، سيتحول. ذلك الشيء الذي دفعه للخروج من الكهف، هو قوة حبّ المعرفة. إن كلمات مثل الشغف والرغبة والشوق والتطلع والاندفاع، هي تجليات لطاقة الحب.

الحب الحقيقي ليس ارتياحًا لما نراه، بل انزعاجٌ عميقٌ مما كنا نظنه كافيًا. إنه يلقي علينا الأسئلة التي تفتح فينا فجوات قد تفضي إلى السموّ والارتقاء، أسئلة من قبيل، هل هذا الجسد يكفي؟ هل هذه النظرة تُشبع الروح؟ هل هذا الحضور يُفسر الشوق الذي لا اسم له؟

الحبّ الناضج يدفعنا إلى الاستدارة من المحسوس الذي ينبغي الانطلاق منه نحو المعقول الذي ينبغي الوصول إليه، من الجمال

الحسي الذي قد يذبل حين يشيخ الجسد إلى الجمال العقلي الذي لا يذبل مهما شاخ الجسد. وهو ما يفسر، كما أشار أستاذي سقراط، كيف تزداد بعض العلاقات الحميمية جمالاً حتى بعد أن يشيخ الجسد. إنها فضيلة العقل، فضيلة الارتقاء بالعلاقة إلى مستوى الإدراك العقلي، حيث لا يبقى المعشُوق مجرد جسد بل يصير فكرةً قوية في العقل والخيال.

لهذا أقول لكم:

لا تنظروا إلى الحب حين تقيّده الأنانية، بل حين ينكسر القيد ويبدأ الصعود إلى الأعلى. الحبّ مثل الحقيقة، لا يُسعف من لا يطلبه بكل صدق، إنه ليس زائرًا يطرق أبوابنا في بعض الأوقات، بل حقلٌ نزرعه بالتربية، بالوعي، بالتطهير الباطني.

الحب ليس فقط عاطفة بين جسدين، ولا شغفًا عابرًا، بل هو الجناح الذي تحلّق به الروح نحو الجمال الخالص، نحو فكرة الجمال. فإذا جعلتموه قيدًا للجسد، خانكم، وإذا جعلتموه سبيلاً إلى المثال، رفعكم.

إن الذين يشهدون اليوم ضدّ الحب، يشهدون في الحقيقة ضدّ أنفسهم، ضدّ استعجالهم وضدّ التباسهم بين الصورة والجوهر. فالمحب الذي يخلط بين الظل الحسّي للجمال ومثاله العقلي، لا يلومنّ إلاّ نفسه إذا تبدّد الظل.

فلتبرّؤوا الحب، ولتدينوا في المقابل جهلكم بصعوده، وعجزكم عن الارتقاء في سلّم الجمال من الإدراك الحسي إلى الإدراك العقلي، ومن الوقائع الفانية إلى الأفكار الباقية.

لم يقدّم أفلاطون خاتمة لمرافعته، بل عاد إلى مقعده وجلس بجانب سقراط في هدوء تام، وملامحه مزيج من الرضا والتأمل. كأنه أراد أن تبقى مرافعته مفتوحة على الجدال والتأمل.

مرافعة إبيكتيتوس

ينهض رجلٌ نحيل، ساقه اليسرى مبتورة، واليمنى حافية. يتردّد صدى عصاه الخشبية وهو يتكئ عليها بخطى وئيدة. يرتدي عباءة رمادية خفيفة. عيناه تلمعان ببريقٍ داخلي، فيه ثباتٌ صامت أشبه بجذورٍ تستمدّ قوّتها من الأعماق. لا يُبالي بنظرات العيون، يمضي ببطءٍ مهيب حتى يصعد المنصّة. يقف لحظةً صامتًا، ثم يتكلّم بصوتٍ هادئٍ وواضح، يحمل صدقَ الألم وصفاء التجربة:

أنا إبيكتيتوس، عبدٌ سابق في بيت جلّادٍ لا يرحم الضعفاء. لم يهزمني بقسوته، بل هزمته بالفلسفة الرواقية. من خلال صرامة العقل وصفاء الروح، صرتُ أملك ما لا يملكه هو: حريّةً في داخلي لا يستطيع أن يقيّدها أحد. هكذا نلتُ حريتي قبل أن تُفكّ سلاسل قدمي.

لم أعلّق أملي على ثورةٍ جماعية قد لا تأتي أبدًا، أو قد تأتي لتضعنا تحت يد جلادٍ أشدّ فظاعة. بل اخترت طريقًا أصعب من الأحلام، وأضمن من الأوهام: طريق تحرير الذات بالذات، والارتقاء إلى مقام السيادة على النفس.

إنني لا أطالب الحياة بأن تكون عادلة، ولا أنتظر منها أن تفي بوعودٍ لم تعِد بها أصلاً. إنما أطلب الممكن، والممكن هو أن أكون قادرًا على العيش في كل الظروف: مع السوط أو من دونه، في الأسر أو في الحرية، في العوز أو في الكفاية. فالحياة ليست ما يُمنَح لي، بل ما أستطيع أن أكونه فيها.

أيها القاضي، أيها السادة الأفاضل، لقد أرهقتم الحب بالاتهامات، كما لو أنه أصل الخطايا ومصبّ الرذائل. لكن الحقيقة المنسيّة أنّ الحب لا يملك سلطانًا على أحد؛ إنما السلطان ما تمنحونه أنتم له من داخل

قلوبكم. فالحب ليس طاغيةً مفروضًا، بل مرآةٌ تكشف ضعفنا أو قوّتنا، وتعيد إلينا ما نُودِعه فيها من نور أو ظلال.

الفلسفة الرواقية تعتبر أنّ الأشياء في ذاتها محايدة، لكن رأينا فيها هو ما يمنحها خيرها وشرّها. الحب ليس خيرًا مطلقًا ولا شرًّا مطلقًا، بل امتحانٌ لإرادتنا، ومرآة لحرّيتنا الداخلية.

تقولون إنّ الحب خذلكم، لكن لا شيء يخذل الإنسان إلّا الأوهام التي تسكن عقله. فلا تدينوا الحب لأنه لم يُحقق رغباتكم، بل حاكموا أنفسكم لأنكم جعلتم سعادتكم مرهونة بما لا يتوقف عليكم.

الحبّ ليس وحشًا كما تتصور القلوب المجروحة، ولا ساحرًا كما ترسم الأغاني الرومانسية، بل ميلٌ طبيعيٌّ مثل ميل النبات إلى الضوء، مثل انجذاب الذرّة إلى ذرّة أخرى، ومثلما تتجاذب كل الأشياء بأثر قد لا يُرى. عبر هذا الانجذاب تتجلّى صورة النفس ونوازع الجسد، فإمّا نكون جهلة ونقتل الضوء أو نفتح النفس لمزيد من الضوء.

الحبّ بريء من التعاسة. إنّما الذي يورث التعاسة هو التعلّق، لا الحب. سبب التعاسة هو توقّع ما لا يمكن ضمانه، حين نُحمّل الغير مسؤولية خلاصنا، فنطالبه بما لا يطيق. وبعد ذلك، حين يُدرك أنّه عاجز عن منحنا الخلاص الذي نطلب، فقد يرحل رحمةً بنا، بينما نظنّ نحن أنّه خذلنا.

ما يصنع التعاسة هو جهلُنا بفنّ الحب، حين نبالغ في التعلّق ونحسب أنّه الحب في أقصى معانيه. ما يصنع التعاسة هو جهلُنا بأنفسنا، وجهلُنا بأنّ غيرنا لا يستطيع أن يُكمِّلنا.

الحبّ، يا سادتي الكرام، لا يُقاس بمقدار ما يُخلّف من عذاب، بل بقدرة كلّ طرفٍ على أن يحبّ من دون أن يفقد ذاته، على أن يمنح من دون أن يذوب، وعلى أن يظلّ حرًّا حتى وهو في قلب العلاقة.

وهنا بدل أن تحاكموا الحب بتهمٍ أنتم المتهَمون بها، أقول لكم:

أحبوا لكن لا تنسوا أن تكونوا أحرارًا، لا تنسوا أنّ من يجعل قلبه عبدًا سيُعامَل معاملة العبد.

أحبوا، لكن لا تتعلقوا تعلق الغريق بالخشبة. وعندما يرى أيٌّ من الفريقين أن هذه الخشبة لن تنقذه، فليتركها، فمن يضع خلاصه عند غيره يخسر نفسه من دون أن يكسب غيره. غير أن قانون الحب المتساوي لا يعني أن يعطي كل طرف القدر نفسه، بل أن يعرف كل طرف قدر نفسه، وأن يقدّم نفسه بحقيقتها ويتقبّل الآخر بحقيقته.

أيها العاشق، لا تُعظّم غيرك وتُصغّر نفسك، ولا تعظّم نفسك وتتعالى على غيرك. لا تضع غيرك فوقك مثل وثن يُعبد، كما لا تضعه تحت قدميك مثل تراب يُداس. فالإنسان الحر ينبغي أن يُحبّ كما يمشي، واقفًا لا زاحفًا.

إذا أردت أن تحب فافعل كما يمسك العاقل زهرة برفق، ومن دون خوف من أن تذبل. فإن ذبلت، فهو لا يجزع طالما يدرك أن الطبيعة لا تعطي وعدًا بالخُلود.

الحب ليس عبودية كما يتصوّر الشعراء، بل هو امتحان حقيقي للسيادة على الذات.

هل أنت سيد نفسك بالفعل؟ لحظة الوقوع في الحب هي الامتحان الأكثر جدية. لكن مسؤولية النتائج هنا لا تقع على كاهل الحب، بل تتحمّلها الذات.

كان لكلمات إبيكتيتوس تأثير واضحٌ في القاعة، كأنّ مرافعته كانت صلاة داخلية، فقد حلّ بعدها الصمت الذي يُصغي فيه القلب إلى صدى الكلمات.

مرافعة لوكريتيوس

يتقدّم رجل متوسط القامة، جسده متناسق كتمثال منحوت، شَعرُه بنيّ قاتم ومنسدل على جانبيه، يرتدي عباءة كبيرة وواسعة، ملفوفة حول الجسم بحيث تترك الكتف الأيسر مكشوفًا واليد اليمنى حرة. بخطى ثابتة يتقدم إلى المنصة ويقدم نفسه قائلاً:

أنا لوكريتيوس، شاعر الذرّات، وصوت الطبيعة في وجه الخرافة. كتبتُ ملحمة لا أطلب فيها رضا الآلهة بل سكينة العقل. لا أحمل سيفًا بل قصيدة ملحمية واحدة، هي كل الأثر. ولا أبحث عن الخلود بل عن فهم أعمق للكون الذي ننتمي إليه.

أيها القاضي، أيها السادة، لقد سمعتُ شهادات الشهود التي تتالت في هذه القاعة، كلها كانت تصرخ: الحبّ خاننا، الحبّ خذلنا، الحبّ دمّر حياتنا. وأنا أدفع بالقول: لم يفعل الحب شيئًا من ذلك، بل أنتم الذين جعلتم أنفسكم عبيدًا. كما قال من سبقني.

أيها السادة الكرام، الحب ليس جريمة ولا خلاصًا، بل تمرينٌ للروح. إن أحببتم بحكمة، صار الحب تدريبًا على الفضيلة، على الصبر والكرم والحرية، وإن أحببتم بجهل، صار الحبّ استعبادًا للنفس، وجرحًا يتجدد كل يوم.

تقولون إن الحب سبب تعاستكم. وأنا أقول، ليست التعاسة من الحب، بل من تعلّقكم الأعمى بما لا تملكون، ومن عجزكم عن تملّك أنفسكم. فما أسهل أن يُسلب منكم إنسان أردتم امتلاكه! وما أصعب أن تُسلب منكم إرادة راسخة!

أنا لا أقدّس الحب، بل أراه ظاهرة فريدة من نوعها، وأحاول أن أفهمه من دون أن أفرّغه من دهشته.

الحب كما أفهمه، توتُّر في الجسد، وانجذاب في الذرّات، وتفاعلٌ قد ينقلب إلى لذّة أو ألم، إلى سكينة أو هيام. ولا أريد أن أضع قواعد معينة للحب، فهو حالة لا تتحكم بها القواعد، لذا عليكم أن تتدرَّبوا، أن تحاولوا، أن تتقبلوا وخاصةً أن تفهموا ما الذي يحدث لكم حين تحبّون.

ففي قلب كل شهوة ظلّ من حب، وفي قلب كل حب ظلّ من شهوة، لكن بين الظلّ والنور قد ينمو الإنسان أو يذبل.

لقد اتهمتم الحب بأنه فتنة للناس، سمٌّ يسري في شرايين القلب والعقل معًا، انفعال يربك حسابات التوازن. وأنا أقول: نعم، الحب انفعال، لكنه انفعال الطبيعة نفسها حين ترقّ وتكون جاهزة لأن تزدهر وتُبدع الحياة.

الحب هو الأسلوب الذي تُعبّر به الطبيعة عن رغبتها في البقاء، وفي التكاثر، وفي الترقّي. حين نحسن استخدامه، فإنه مصدر بهجة عظيمة، وحين نسيء استعماله ونشوّهه بالوهم أو التملك أو الخرافة، يصير مرَضًا. إنه كما النار، مصدر للنور والدفء، لكنها تتحول جحيمًا حين تنفلت من مُوقدها.

الحب هو الريح الحنونة التي تهزّ السنابل لتذكّرها بأنها حيّة، فلا تظلموه بل علّموا الناس كيف يحبّون ويعبّرون بحنان. علموا الناس كيف يكونون في علاقاتهم العاطفية مرنين ومنسجمين مع إيقاع الطبيعة، بعيدين كل البُعد عن أوهام التملك والتعلق.

أنا لا أؤمن بتدخّل الآلهة في صنع مشاعرنا، لكنّني أرى في الحب حنان الآلهة ومنطق العقل، وذلك حين يجتمعان في لوحة واحدة.

أنهى لوكريتيوس مرافعته، عاد إلى مقعده بهيئةٍ لا تشي بأيّ انفعال، كأن المرافعة كانت لحظة ظهور استدعتها الضرورة.

مرافعة أبي حيان التوحيدي

رجل نحيل الهيئة، طويل القامة، وجهه أسمر من لفحات الشمس وغبار التعب، يرتدي عباءة بالية من الصوف، لونها أسود باهت، مرقّعة، أطرافها مهترئة، ينتعل في قدميه حذاء من جلد قاسٍ، يصعد إلى المنصة، فيقدم نفسه:

أنا أبو حيان التوحيدي، شاعر الحيرة، ومُفتي القلوب المعذَّبة، وكاتبُ الليالي التي بكت فيها النفس ولم تجد من يؤنسها. وقد وُلدت مرتين: مرة من رحم امرأة، ومرة من جرح الكينونة.

لا عائلة لي سوى الكلمات، ولا زاد لي سوى أسئلة حارقة. عشت يتيمًا في الوَجد والوجود، لا لقلّة الأهل، بل لكثرة الجهل والخوف في عيون الأقارب والأباعد.

نبذني الفقهاء لأنني أحببت، وخافني الأدباء لأنني جرّدت الكلمة من ثوب المجاملة، وكرهني العارفون لأنني كتبت ما لا يُقال، وقلت ما لا يُكتب.

لم أطلب من الحياة إلّا صديقًا لا يخون المعنى، وحبيبة لا تغلق الباب في وجه القصيدة، وأمّة لا ترجم شاعرها إذا أحبّ، ولا تسجن فيلسوفها إذا فكر. لكنني حين طلبتُ صُفعت، وحين رجوتُ طُردت، وحين بكيتُ نُفيت.

أنا الذي أنطقتُ الألم حين قلت: إني مُحترق، والنار تأكلني، وما لي حيلة في دفعها، ولا أقدر على الصبر عنها.

أنا الذي كتبت عن الحب، لا من فرط الابتهاج به، بل من فرط الخيبة فيه، كتبت عنه كما يُكتب عن النور من قلب الظلمة، وعن الوصل من قلب القطيعة، وعن الأنس من قلب الوحشة.

قد تتساءلون، لماذا أتيت إذًا؟

أتيتُ لأن الحب واقفٌ في قفص الاتهام، والحب كما عرفتُه ليس متهَمًا، بل ضحية نزلَ عليها سيف الجهل الذي عرفته جيدًا. إنه ضحية النفوس الغليظة، والأخلاق المنغلقة، والقلوب التي لا ترى للحنان وجهًا ولا للعاطفة وجهة.

أترافع لا بصفتي شاعرًا، ولا متصوّفًا، ولا فيلسوفًا، بل بصفتي إنسانًا تعذّب كثيرًا لأنه أحبّ بصدق، وصادق بحب، ورأى في الحب خلاصًا مع أنه تعثر فيه، ووقع في محنة بلا مخرج، ليس لسوء في الحب بل لسوء في القلوب.

أنا غريب الدار، أبو حيان التوحيدي، أتيت من الغربة لأحضر مجلسكم مدافعًا عن الحب في زمان غربت فيه الروح، وتجهّم فيه العقل، وتصلّب فيه القلب.

وضعتم الحب في قفص الاتهام، بدعوى أنه سبب الشقاء ومصدر التعاسة ومنبع الأحزان. طلبتم له الإدانة، وأحضرتم شهودًا لتبدو الإدانة ثابتة في حقه، وأنكم براء بلا شبهة. فاسمعوا مني ما لا يُسمع إلا ممن جالَسَ القلوب في انكسارها، وناجى الأرواح في احتراقها، وكتب في دفتر الحنين سطورًا تُكتب بدمع حارق.

أيها الأحبة والأصحاب، ليس فقط أنّ الحب ليس علّة، ولا مسبّب للمرض، بل هو كاشفٌ للعلل والأمراض والقسوة والرغبة في التسلّط. إنه قوّة الذات المحبّة في مواجهة القسوة.

إن التعاسة لا تُولد من الحب أبدًا، بل من القسوة والجفاء والشر. تولد من التملّك والسيطرة والأنانية.

لقد جرّبتُ ما جربتم، وسهرتُ كما سهر العشاق، وبكيتُ كما بكى جرحى القلوب، وشاهدتُ الحب يتخذ ألف شكل في حياة الناس،

لكنه في كل أحواله مرآة تُظهر ما في الناس. وكل من اتّكأ على الحب فانكسر به العكاز، ما خانَه الحب، بل خان نفسه حين رأى الحب عكازا.

الحب ليس صانع التعاسة، بل هو الذي يعيد للروح توازنها حين تضطرب الأجواء، وللعقل مرونته حين يتعب الإدراك، إنه مقام من مقامات الكمال، ذروة من ذرى الوجود، فمَن ذاقه عرف أنه ليس له بديل ولا مثيل، حتى وإن كلّفه بعض الأحزان في بعض الأحيان. إنّه أجمل وأعظم زاد نختزنه لأيامنا الصعبة، ويغذّي جفاف خريف العمر.

قد يوجعنا الحب حين نهيم فيه. لكن ليس كل ألم مذموم، فإن ولادة النفس لا تكون إلّا في مخاض، والنضج لا يكون إلّا بحرارة، والنور لا ينبثق إلّا من نقطة التماس بين الظلمة والنار.

فهل تريدون سعادة باردة خالية من الحرارة؟

هل تطلبون طمأنينة سطحيّة تخلو من اهتزازات القلب؟

الإنسان يا أحبّتي، لم يُخلق ليكون صخرة جامدة، بل روحًا تتحلّل ليُعاد تشكيلها مثل الغيوم المسافرة في السماء، وقلبًا يتحطم ليستأنف نبضاته مثل بذور الأرض التي تنكسر وتيبس كي تزهر من جديد.

الحب ليس وعدًا بالنعيم، بل سبيلٌ نحو ترقيق القلب، وتوسيع الوعي، وتعميق الإحساس المرهف بالوجود، إنه مدرسة للأخلاق، ومحراب للتجربة، ومختبر تذوق فيه النفس كينونتها بكل احتمالاتها.

يا أيها الذين تتهمون الحب في ما تعانون منه، أعيدوا النظر، في تجربة الحب ستدركون أنه، على الرغم من كل التعاسة التي تحدثتم عنها، منحكم أجمل لحظات الحياة، فلا تنكروا تلك اللحظات وابحثوا عن تكرارها. لا تحاكموه بعيون المجروحين، بل انظروا إليه بعيون الحكماء، المتصوفة، والعشاق الذين عبروا نار التجربة وخرجوا منها أكثر ضياء.

إذا بقي الحب مجهولاً فتلك هي التعاسة، وإذا صار معلومًا فتلك

هي السعادة، وإن أردتم العدالة في هذا العالم القاسي، فبرّئوا الحب من تهمةٍ لم يرتكبها، ووجّهوا أصابع الاتهام إلى القسوة، الكراهية، الجهل والأنانية، وإلى كل ما شوّه أجمل ما فينا، وجعل عقلاءنا غرباء، وجهلاءنا عرفاء. والسلام على الحب يوم يولد غريبًا، يوم يموت غريبًا، ويوم يُبعث غريبًا برفقة الغرباء.

كان الصمت يعمّ القاعة بينما هو يعود إلى مقعده بخطوات من يحمل خيبته بعزّة.

مرافعة محيي الدين بن عربي

ينهض رجل طويل القامة مائلاً إلى النحول، عيناه تلمعان، لحيته مشذّبة وكثيفة، يرتدي جبّة من الصوف بلون ترابي وعمامة رمادية. يصعد إلى المنصة، ومن دون انتظار يتكلم بصوت هادئ وعميق، وبنبرات فيها إيقاع غامض:

أنا محيي الدين بن عربي، عرفتُ الحب في تجليه الأكبر، لا كمجرد عطش يُروى، أو حاجة تُقضى، بل كما هو في منبعه السماوي، من حيث هو انعكاس الحق على مرآة الحق، وطاقة لكل ما يمكنه أن يكون.

يا قادة الحكمة، ويا سادة المحكمة، تحاكمون الحب بدعوى أنّه لا يضمن النتائج! فهل ستُحاكمون المطر إذا هو أحيا زهرة ثم ذبلت لأنّ التربة فقيرة، أو لأن الرعاية معدومة، أو لأن البيئة غير ملائمة؟ هل يُحاكم النور لأنه أعمى العيون التي اعتادت العيش في الظلمات، أم ينبغي ترويض العيون على النظر؟

الحب لا يجرحكم سادتي، بل يكشف جروحكم الناجمة عن أعطاب العادات التي تنشأون عليها، وذلك حين تشتدّ قبضتكم على كل ما تمسكونه مثل الأطفال الخائفين، وتغتَرّون بكل ما تحصلون عليه مثل صغار النفوس، وتسعون إلى دوام كل شيء على حاله ضد طبيعة الأحوال، وبأيديكم وعقولكم وأنفسكم تجلبون إلى الحب كل أنواع الشقاء، ثم تتهمونه بأنه سبب تعاستكم.

الحب هو أكبر تجلٍّ للبراءة، فهو ينجذب لمن يطلبه في لحظةٍ ومن دون تفكير، لكنه حين يسكن قلوبًا معطوبة يتلوّن بما تحمله من أعطاب.

الحب هشّ بالفعل، لكنّ هشاشته هي شرط وجوده الجميل، بل إنّ

هشاشته هي التي تجعله أقوى من الألم نفسه، فليس هناك ما هو أقوى من الألم أكثر من الحب.

أفلا ترون كيف ينجح كثيرون منكم في ترويض وحش الألم داخل العلاقات الحميمة؟

أفلا تستغربون من ذلك إذًا؟

في عُرفنا نحن أهل العرفان، يدلّ الألم على صدق الاتصال، وعلى بدء التحول، حيث تتحلل الأنا وتستعدّ للحلول في المعشوق. الألم هنا مجرّد لحظة لبدء التحول قبل حلول لحظة الصفاء بعد أن ينضج الحب كما ينبغي.

يتدخّل لوكريتيوس:

لكنكم لا تنكرون أنّ الاتصال لا يكتمل. إنّ ما يُفسر ذلك الحزن الخفي الذي يعقب لحظة اللذة القصوى هو أن المحب لا يستطيع أن يذوب في جسد محبوبه بالكامل، ولا أن يتّحد به تمامًا، رغم أن الجسدين قد يعصران بعضهما بعضًا أثناء نشوة العناق. إن العنف الإيروسي الذي قد يصحب لحظة الأورغازم هو احتجاج على الخيبة الناجمة عن عدم اكتمال الاتصال. ذلك أن أجسادنا ليست ليّنة مثل الطين المبلل بالماء!

ابن عربي:

إنّ الحزن الخفي الذي قد يعقب لحظة النشوة أحيانًا، لا يكون إلّا حين تتعانق الأجساد دون أن تتعارف الأرواح، فتظل الأرواح غريبة عن بعضها رغم حرارة السرير. إن الأرواح مرنة مثل الهواء، وهي التي تدفع إلى الاندماج فعلًا في لحظات العناق.

إنّ هذا الشعور القويّ أطلقه الخالق يوم كان المخلوق غائبًا عن الوجود، فقال: أين أنت يا أنت؟ أحتاج إلى أن أراك كي أراني! أحتاج إلى أن أدركك كي أدركني؟

الحبّ سرّ سرى في الكائنات قبل تكوُّن الكون، بفعله ظهرت الأعيان للعيان، وبمفعوله اشتاقت الكلمات إلى المعاني، الحبّ هو الله في أجلِّ أسمائه وأجمل مسمياته، فكيف يُدان من كان مرآة الحق بالحق؟

ممثلة النيابة العامة:

إذا كان الحب كل هذا الذي تقوله عن ارتباطه بالخالق، لماذا يجلب الشقاء للناس؟

ابن عربي:

لا يشقى في الحب إلّا من رأى فيه غنيمة بدل أن يراه عرفانًا، ومن رأى فيه امتلاكًا بدل أن يراه امتلاء، ومن رأى فيه غيرة بدل أن يراه غيرية.

إنكم اليوم لا تُحاكمون عاشقًا خالف وعدًا، بل تُحاكمون كلمةً بها قام الوجود: الحُب. والذي لولا نَفَسُه ما انكشف لعينكم شيءٌ من أعيان الممكنات. فالحبُّ ليس نزوةَ جسدٍ تعصف ثم تخمد، بل نَفَسٌ رحمانيٌّ يهبُ للأشياء حقَّها من الظهور، ويأمر القلبَ بالعدل قبل الشغف.

الحب له وجوه: هوى يضيقُ بك وبمن تحبّ، وحُبّ يوسّعكما معًا. علامةُ الأول أن يُبدِّدك في امتلاكٍ أو إذلال، وعلامةُ الثاني أن يزيد نصيبكما من الكرامة. فما ضاقَ بك ليس منّا، وما وسِعَك فهو إلينا. وقد قلتُ قديمًا وأقول حاليًا: أنا من قومٍ دينُهم الحب، لا لأنهم يُعطّلون العقل، بل لأنهم يجعلون العقل حارسًا على الوَجد.

تقولون: باسم الحب ارتُكبت آلامٌ وآثام. وأنا أشهد بالقول: ما جُرحَ به إنسانٌ ليس حُبًّا بل هوًى مُتَزين بوشاحه. الحبُّ عهدٌ لا استهلاك، رعايةٌ لا رقابة، حضورٌ يُؤمِّن المسافة ولا يخنق الأنفاس. فمن ادّعى حبًّا يَستبيحُ به جرح الغير فقد كذب على الاسم والمسَمّى.

ميزانُنا يسيرٌ لمن أراد عين الحقّ:

إن زاد القولُ أو الفعلُ عدلاً واتّساعًا فهو من الحب، وإن زاد قهرًا وضيقًا فهو من سواه. وما لا يخفِّضُ الألم لا يضاعفُ المعنى.

أيها القاضي، إنّ الحقَّ تعالى تجلّى بالأسماء: قهّارٌ على الظلم، رحمنٌ بالخلق. فإذا شهدتم فعلاً من الأفعال يَستمدّ من الرحمة أثرًا، فذلك من الحب. وإن رأيتم عملاً من الأعمال يتقوّى بالقهر والهيمنةِ أو الإذلالِ، فذاك خصمُنا لا شهيدُنا.

بناء عليه، أطلب من محكمتكم الموقَّرة:

بَرِّئوا الحبَّ من جنايات الأهواء، وأقيموا على العاشقين شرطَ العهد الآتي: أن تكون المحبةُ عنايةً بحدودٍ وعدلاً يَشملُ الاثنين. ما عدا ذلك زبدٌ يذهب جفاءً. أمّا الحبُّ الصادق فيمكث في الأرض، ويُثمر في القلوب سكينةً لا خنقًا، واتساعًا لا استهلاكًا.

وأختم بقولي، إنّ من علاماته أن يترك في القاعة نورًا لا ظِلًّا. فإذا رأيتم النورَ فاشهدوا للحبّ، وإذا رأيتم القيد فاشهدوا عليه.

كان يمشي ببطء عائدًا إلى مقعده وقد بدت على وجهه طمأنينة العارف وسلام الحكماء.

مرافعة سبينوزا

ينهض رجل في الأربعين من العمر، متوسط الطول، نحيل الجسد، عيناه داكنتان ونظراته هادئة، يرتدي قميصًا أبيض بأكمام واسعة وطويلة مع سترة سوداء، يصعد منصة الدفاع، يدير نظره في الوجوه والأجواء، ثم يقدم نفسه:

أنا ابن أمستردام. أعمل في صنع النظارات حتى لا أكون أسيرًا في تحصيل عيشي وأبحث عن الحقيقة في ما يتبقى لي من الوقت. لا أكتب لأناظر وأفحم القارئ، بل لأفهم. كما لا أطلب رضا الناس، بل كل ما أسعى إليه هو انسجام طبيعة العقل مع عقل الطبيعة.

اسمي باروخ سبينوزا، متحدر من نسل شعب طُرد قديمًا من الأندلس، فاستعاد جزء منه، جزءًا من حريته على أرض المغرب، وهبط الجزء الآخر نحو الأراضي المنخفضة، حيث انتصرت مفاهيم الليبرالية مبكرًا، وحيث قُدّر لي أن أعيش رغم ذلك نفيًا مزدوجًا، نفيًا من طائفتي المنفية، من دون أن يثير فيَّ هذا القدَر أي قدْرٍ من الكره أو التذمّر.

طُردت من المعبد، وشطب اسمي من لائحة طائفة اختارت الخوف على الفهم، لكنني تعافيت من كل أشكال الخوف مبكرًا. فالخوف مجرد شكل من أشكال الجهل، كما يؤكد الأبيقوريون.

طريق سعادتي ليس المال، ولا الشهرة، بل التأمل العقلي في نظام الكون، والتناغم الرّوحي مع الضرورة التي تحكم كل شيء، وكلنا يعرف مقدار الفرح الذي يمنحه لنا العقل حين يفهم أي مسألة جديدة.

أنا من ظنّه الناس ملحدًا، لا لشيء إلّا لأنّ إلهي لا يغضب، ولا يطلب أيّ نوع من الشعائر أو الأضحيات، بل يُدرَك بالعقل ويُعبَد بالفهم.

ثم يتوقف قليلاً يدقق في الوجوه، ويُكمل:

يا أصحاب العقول الحرة، يا من أخذتكم الحماسة فاجتمعتم حول الحب لتحكموا عليه وتحاكموه دون فهم، أنا أحتجّ على هذه المحاكمة، ليس باعتباري فيلسوفًا، ولا حتى متكلمًا باسم فلسفة أو مذهب، بل باعتباري مواطنًا حرًّا يدرك بأنّ جوهر الوجود الإنساني هو الفهم، وأنّ الفهم هو طريق الحرية.

جئتُ إليكم لأجدد ما سبق لي التأكيد عليه في أطروحتي الأساسية: قبل أن تحكم حاول أن تفهم.

تلك قاعدة المواطنة أيضًا، إلا أنني أكتشف الآن، بعد معاينتي لهذه المحكمة، بأن الفهم هو قاعدة العدالة أيضًا.

إن قال قائل، لا وجود لفهم كامل، وبالتالي لا وجود لعدالة كاملة، فالرد أنّ ما لا يثبت بعضه لا يُنكر كله. لهذا من شأن تجويد الفهم تجويد العدالة أيضًا. ولا شك أن زيادة أي قدر من الخير هو خير.

انطلاقًا من مبدأ الفهم جئتُ مدافعًا عن الحب ليس باعتباره حاجة بيولوجية وحسب، ولا مجرد شوق إلهي، بل طاقة روحيّة تحفز الإنسان على النمو، على الحياة، وعلى بناء العيش المشترك.

سبق أن أدرجتُ الحب ضمن الانفعالات، وتحديدًا ضمن الانفعالات المبهجة، لكن الإشكال الذي طرحَته النيابة العامة، هو الآتي: إذا كان الحب انفعالا مبهجًا فكيف يتسبب في التوتر؟ وهناك معضلة أخرى: إذا كانت الانفعالات بطبعها لا تدوم، أكانت مبهجة أم حزينة، فكيف نأمل في دوام الحب؟

سبب سوء الفهم أوضحته في أطروحتي، وها أنا أعيد التذكير به، فالحب الناضج لا يمكث في المستوى الانفعالي، بل ينتقل من حالة الانفعال إلى حالة الفعل، من الغريزة إلى الفهم، وفي النهاية من الجهل إلى العقل.

الحب كانفعال هو طور البداية، لكنه في هذه المرحلة لا يكون حرًا،

وتكمن تعاسة الكثيرين في أنهم يمكثون في طور البداية معتقدين بأنهم أكملوا الرحلة. لكن الحب لا يدوم إلا إذا انتقل من مستوى الانفعال إلى مستوى الفعل، من مستوى الغريزة إلى مستوى الفهم. لذلك حتى حنان الأم الذي تحمله للأبناء، والذي قد يكون أقوى أنواع الحب، فإنه إن بقي في مستوى الانفعال ولم يرقَ إلى مستوى الفعل، يصير مجرد نزوة أو مرحلة، أو تعلق وسواسي يسمّم الحياة.

يوجع الحب الكثيرين لأنهم يبقون عليه في المستوى الانفعالي، لا يمنحونه فرصة التحول إلى فعل قابل للفهم والاستيعاب.

ثم يلتفت إلى ابن عربي ويقول:

إن ما انتهيت إليه أيها الشيخ الأكبر في مرافعتك هو بالضبط ما قصدتُه حين انطلقتُ في مشروعي من فكرة الله، والذي هو محبة كما تقولون. أؤمن بالله الذي تؤمن به بدورك، ليس باعتباره حاكمًا يتربع على عرش في أعالي السماء، بل باعتباره روحًا تسري في كل المخلوقات والموجودات. أنا مثلك أؤمن بأن كل الموجودات تَجَلٍّ للذات الإلهية، فلا أفصل بين الواجد والموجود، ولا بين الخالق والمخلوق، وكما قلتَ ذات مرة: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها!».

لكن إن كنت أوافقك القول إن الحب هو جوهر الوجود، فلا أميل إلى الحديث عن الحب بلغة أهل العرفان. فقد تعلمت من معلمي ديكارت احترام مبدأ الوضوح. أنا بدوري صوفيّ الهوى مع فارق أنّني لا أرى في الغموض أيّ سحر. لعلّي أول صوفي لا يهوى الغموض.

الحب قانون طبيعي يسري في كل الأشياء. إنه قوة بها تسعى الكائنات إلى دوام وجودها، وبها تحقق مزيدًا من النمو. حين تنطفئ شعلة الحب فلن تُرضع الأم رضيعها، ولن يكدح الوالدان لضمان حياة أولادهما، ولن يتضامن أي مواطن مع أي مواطن في أي محنة، ولن يتعلم أي أحد من أي أحد أي شيء.

أيها الشيخ الأكبر! قلتَ في مرافعتك إن الحب ليس غنيمة. وأنا أضيف إلى نفيك، الحب ليس غزوة كذلك، بل شرط ارتقاء النفس وسموها، وبالتالي هو شرط وجود الأخلاق. ذلك أنّ شرطه أن ينأى بنفسه عن الكذب والوهم والجشع والتصنّع، ويكون حقيقيًّا وناضجًا، وبذلك النحو لا يُعذّب أحدًا.

الكذب أو التكاذب بين العشاق هو اللغم الذي ينتهي إلى تدمير الحب ولو بعد حين، لذلك سبق لي كما تعلمون أن رفضتُ الزواج من حبيبتي المسيحية حين كان مطلوبًا مني أن أتظاهر لساعة واحدة فقط بالمسيحية لأجل عقد القران. كان بإمكان تلك الكذبة المؤقتة أن تنقذ حبي لكنني أرى أنه: لا وجود لكذبة مؤقتة. كل كذبة مؤقتة عليك أن تخفيها سواء عن البعض أو الجميع طول العمر، وهو جهد مرهق لأنه ضد طبيعتك. كنت أعرف أن الكذب باسم الحب مثل السوسة التي تنخر الحب من الداخل ولو في صمت، وبالتالي سيشتد الألم لا محالة سواء عاجلاً أم آجلاً.

العشاق يتعذبون حين يتعلقون بالأوهام، والتي ينشأ عن بعضها فرح غير حقيقي، مثل المخدّر، وحين يزول مفعول التخدير يجثم الشقاء، ومع توالي الجرعات يختفي الفرح ولا يبقى من دور للمخدر سوى تسكين محدود للألم في انتظار الجرعة الموالية، أما الحب الحقيقي حين ينتقل من الانفعال إلى الفعل فهو لا يدمر الإنسان بل يحرره.

أن يبدو لك الحب، أيها الشيخ الأكبر، كما لو أنه قبس من الغيب فهذا التقدير أُقدّره فيك، إلا أنّني أفضل أن أرى الحب كما أراه، من حيث هو تعبير عن تطلع المتناهي إلى اللاتناهي، ما تؤكده عبارة «أحبك إلى الأبد»، وهنا لا أبتعد عنك كثيرًا يا شيخ العارفين، ربما مسافة قصيرة بين حضارتين تبادلتا التأثير في الأندلس، ولعلها المسافة أيضًا بين

لغة لاتينية تصغي لأصوات الطبيعة أكثر، ولغة عربية تصغي لأصوات المشاعر أكثر. ما انعكس أيضًا على ثراء مقامات الموسيقى العربية.

لكنني حين أنظر إلى فلسفتي على مرآة الشرق كله، أبدو كمن يريد أن ينزع السحر عن المشاعر. لا شك أن هناك بعض الخسارة في هذا التخلي، لكنها خسارة ضرورية لأجل الفهم، ولأجل تجديد القدرة على الفهم.

في كل الأحوال ينبغي ألّا يتخلى الإنسان عن واجب الفهم، وإنه لواجب المواطنة، وواجب العدالة كذلك.

ثم ينقل نظره من ابن عربي ليديره بين ممثلة النيابة العامة والشهود، ويقول:

تتهمون الحب بأنّه سبب التعاسة! أنتم مخطئون في هذا الحكم، بل ظالمون، لأن الجاني الحقيقي ليس الحب، بل الرغبة غير الطبيعية وغير الضرورية في الامتلاك والتملك. الحب ليس غيرة ولا احتياجًا ولا ندمًا بل فرح العقل حين يتورط في علاقة عاطفية تمنحه طاقة النمو والحياة.

الحب الناضج يقلّص من مخاوف الخائفين، يخفف من أحزان الحزانى، ويُلطف من غضب الغاضبين.

الحب الناضج لا يُقيّدنا عبر التمسّك بالأمل. لأن الأمل بطبعه غير واقعي. بل، أكثر من ذلك أقول، ليس هناك ما يجعل الحب مؤلمًا أكثر من الأمل طالما أن الأمل يُبعد الإنسان عن الواقع، ويرفع سقف التوقع، وبالتالي تشتد الخيبة. لذلك أدرجتُ الأمل ضمن الانفعالات الحزينة.

معظم وقتي أمضيته في تأمل أحوال الناس، فرأيتهم يبحثون عن الحب في كل مكان. يبحثون عن الحب لأنه يمنحهم البهجة والسعادة والسكينة، لكنهم حين يجدونه يخشون أن يضيع منهم فيضعون له القيود وبهذا يقتلونه أو يحوّلونه إلى السبب الأكبر في دخول البؤس إلى حياتهم.

تشتكون من الحبّ كونه يؤلمكم في كل أحوالكم، يؤلمكم بحضوره

الحارق حين يكون، ويؤلمكم بغيابه القارس حين لا يكون. الحب مثل نار إذا اشتعلت تخافون الموت حرقًا، وإذا انطفأت تخافون الموت بردًا.

تلك مفارقات الحب التي تُعبّر عنها كل الأغاني الغرامية في كل لغات العالم. لكن، إذا كان الحب انفعالاً مبهجًا، كما أؤكد، فإن التعاسة لها منابع أخرى غير الحب. إن سبب المعاناة التي قد تطال تجارب الحب لا يكمن في الحب ذاته، بل في المشاعر الحزينة التي قد نتركها تتسلل إلينا مع الحب، لا سيما حين تضعف قدرتنا على التفكير.

بما أنّ مهمّة الفلسفة تفكيك الأوهام، وفتح باب طرح الأسئلة الحقيقية، الكفيلة بتحرير الإنسان من حيث هو كائن عاقل، فها هي بعض الأسئلة التي يمكنها أن تساهم في تحرير الحب من سطوة الأوهام والمشاعر السلبية:

هل الخوف من الخسارة يحمي الحب؟

هل الغيرة تحمي الحب؟

هل الكذب يحمي الحب؟

قد توهمنا تلك المشاعر بأنها قد تحمي الخب، وانطلاقا من هذا الوعد نتركها تغزونا، نحن الذين نتركها تغزونا وليس الحب، لكنها ما إن تغزونا حتى ندرك بأنها تنخر الحب من الداخل، وكثيرًا ما تلتصق بالحب إلى درجة يصعب معها أن نطردها من دون أن نطرد الحب نفسه.

ثم يدير نظره في الجمهور متسائلاً:

هل هناك قصة حب واحدة سواء في الواقع أو الخيال، أظهرت أن الخوف أو الغيرة استطاعت أن تنقذ الحب؟

هل حدث ذلك في إحدى التجارب، أو إحدى المرات؟

كل تجارب الوضع البشري تنفي ذلك.

الخوف، الغيرة، الكذب، إظهار الأسى، كلها قنابل موقوتة تنتهي إلى أن تفجر الحب سواء عاجلاً أم آجلاً.

يوجعنا الحب إذًا لأن الأمل الذي يصحبه، يصحب معه الخوف، ومن ثم الغيرة، ومن ثم مشاعر الحزن والكراهية، لتأتي التعاسة في آخر المشهد.

إن سببَ الشقاء والعبودية والشعور بالضياع في تجارب الحب، لا يكمن في الحب ذاته، بل يكمن في عدم قدرتنا على فهم الحب. لأن الإنسان بطبعه، وباعتباره كائنًا عاقلاً، ما إن يفهم حقيقة الحب حتى يخفف من قدر كبير من التوترات المرتبطة به، ويصير الحب لديه طاقة إيجابية تدفعه إلى النمو بدل أن يكون مجرّد علاقة سامّة تدفعه إلى النكوص كما يحدث للكثيرين.

وأعيد الآن ملخَّص الترافع الذي قصدته وفق الأسلوب الهندسي الذي أحبه وأعوّل عليه:

قاعدة عامة:

الحبّ فرحٌ مقرونٌ بفكرة سببٍ خارجيّ يوافق طبيعتنا، فيزيد قدرتنا على الفعل.

بديهيّات:

كلّ موجودٍ يسعى للمثابرة في وجوده (الكوناتوس).

الفرح زيادةٌ في كمالنا، الحزنُ نقصانٌ منه.

الأثرُ الفاعل يولَد من فكرةٍ كافية، والانفعال يولد من فكرةٍ ناقصة.

قضية رقم 1:

الحبّ الصادق أثرٌ فاعل لا انفعال أعمى؛ لأنّه فرحٌ يقوم على إدراكٍ كافٍ للذات ولمن نُحبّ.

برهان: حيثما صَحّ الإدراكُ صَحّت الموافقةُ في الطبيعة، وزادت القدرةُ على الفعل، وذلك عينُ الفضيلة عندي.

نتيجة:

الغيرةُ، الامتلاك والإذلال، كلّها أحزانٌ تولّدت عن أفكارٍ ناقصة، فهي ليست من الحبّ في شيء، وإن تزيّت باسمه.

قضية رقم 2:

كلّما تقدّمنا من التمثّل الخيالي إلى الفهم العقلي، تحوّل الحبّ إلى صداقةٍ فاعلة تُعمِّم النفع المشترك.

برهان: ما يوافق طبيعتنا يعين على المثابرة في الوجود. وحين ندرك موافقة الغير لنا إدراكًا كافيًا، نُبادله بزيادةٍ في قدرتَيْنا معًا.

قضية رقم 3:

أعلى وجوه الحبّ هو الحبّ العقلي لله/ للطبيعة: فرحٌ دائم لأنه مقرونٌ بفكرة العلّة الأولى، فيسقط معه الخوفُ والندم.

برهان: ما نُدركه نفهمه، ومع الفهم تزول سيطرةُ الانفعالات الحزينة.

معيارٌ عمليّ:

ما زاد القدرةَ على الفعل، وخفّض الحزن، ووسّع المشاركة، فهو حبّ.

وما أورث خوفًا أو قهرًا أو تبخيسًا، فهو هوى حزين لا حُجّة له باسم الحبّ.

ويتوجّه إلى المحكمة:

برّئوا الاسم من جنايات الأهواء، وأقيموا للناس ميزانًا واضحًا: حبٌّ يوافق الطبيعة بالعقل هو فضيلةٌ مشتركة، أما حبٌّ يقتات على الجهل والغيرة والتملّك فليس سوى انفعال ينبغي علاجه بالفهم، والصداقة، وتربية العواطف.

بعد أن أنهى مرافعته عاد إلى مقعده. لم ينتظر استحسانًا من أي أحد، فقد كان يعرف أن ما قاله ليس جذّابًا تمامًا، لكنه ضروري.

مرافعة كانط

ينهض رجل يخطو خطوات متساويّة، كأنه يسير وفق جدول زمني دقيق. وجهه صارم الملامح، محفور بالتأمل. شعره أشقر مسرّح بعناية فوق جبهة واسعة. يرتدي بذلة بروسيّة داكنة، بأزرارها المصفوفة، ومعطفًا طويلاً يذكّر المرء بثوب قسّ.

بصوت معتدل النبرة يشرع في الكلام:

أنا إيمانويل كانط، الفيلسوف الذي شاع عنه أنه جافّ كالصحراء، ولا يعرف الحب كما يصفه الشعراء، أقفُ لأدافع عما يسمى بالحب، هذا «الشيء في ذاته» الذي لا يُرى ولا يُقاس، لكنه يُحَسّ ويُعاش.

الحب ليس نقيض العقل بل امتحانه الأكبر. ليس اندفاعًا أعمى بل ميلٌ حرٌّ نحو غاية أخلاقية سامية، وهي أن يُعامَل الغير لا كوسيلة بل كغاية في ذاته. وهذا يا سادتي الكرام هو جوهر مبدئي الأخلاقي الأعلى: عامل الغير كغاية لا كوسيلة.

هذه القاعدة حين تُطبّق في الحب، تجعله ناضجًا وتبعده عن كل أشكال الخداع. بل إن أكثر مجال تنطبق عليه تلك القاعدة هو مجال الحب الناضج. ذلك الحب الذي لا يختزل الغير في مجرد جسد أو وظيفة، بل يرى فيه كائناً حرًّا، عاقلاً، مستحقًا للتقدير والمحبة، لا لِما يعطيه بل لِما هو عليه.

قد تتساءلون: كيف يمكن للحب -وهو شعور- أن يكون واجبًا؟ كيف يُطلب من القلب ما لا يمكنه أن يتحكم فيه؟

فأقول: لا يُطلب منك أن تشعر، بل أن تريد الخير للغير مع اعترافك بأنه ذات أخرى. وهذا يكفي.

الحب بهذا المعنى ليس نقيض العقل، بل ثمرة العقل حين يسمو

على النزوات. إنه ليس انفعالاً عابرًا، بل التزامًا دائمًا بأن يحبّ الإنسان الغير لا لأنّه يعجبه أو يشبهه أو يفيده، بل لأنه ذاتًا حقيقية.

لقد أسأتم إلى الحب حين جعلتموه انفعالاً لا عقل فيه، وشهوة لا حدود لها، وغريزة لا قانون يردعها. لذلك حين تتكلمون اليوم عن الحب الذي يخون، والذي يكذب، والذي يُذلّ ويُدمّر، فإنكم لا تتكلمون عن الحب، بل عن صورته المشوَّهة حين تفلت من يد العقل، وتنهار تحت رغبات النفس.

صحيح أنني لا أُلزم أحدًا أن يشعر بالحب، طالما أنّ المشاعر ليست أوامر، لكنني أدعو كل إنسان أن يُمارس الحب بمعناه الأخلاقي، أي أن يعامل الغير كذات لا أداة، ككائن عاقل لا كمجرد جسد يُستعمل وبالتالي يُستنزف.

ليس الحب أن أذوب فيك كما يذوب السكر في القهوة، بل أن أعترف بك كما أنت، وأُبقيك حراً، مُستقلاً، موفور الكرامة. فكل حب يُهين كرامة الغير ليس حبًا حقيقيًا بل مجرد انتهاك للمشاعر.

لذلك، أرى أن الحب بدوره يستجيب للقانون الأخلاقي. حيث يخضع كلّ فعل من أفعال الحب للأمر المطلق في صيغه الثلاث:

صيغة القانون الكلّي: لا تتَّبع قاعدةً في الحبّ إلا إذا استطعتَ أن تريد تعميمها على الجميع.

صيغة الإنسانيّة غاية في ذاتها: عامِلْ من تحبّ بحيث يكون دائمًا غايةً لا مجرّد وسيلة.

صيغة مملكة الغايات: ليكن حبّك قرارًا حرًّا مع التزام أخلاقيّ تُحترم فيه الذوات لذاتها.

بذلك النحو ستظهر أفعال الغيرةِ التملّكية، والكذبِ الاحتيالي، والابتزازِ العاطفي، باعتبارها أفعالاً لا يمكن تعميمها من دون المساس بأساسيات العيش المشترك، وانطلاقا من ذلك هي ليست حبًا أخلاقيًا.

الحبّ الجدير باسمه هو احترامٌ صادقٌ يُترجم إلى واقع فعلي، ووفاءٌ بالتعهّد، ورعايةٌ لحقّ الغير في تقرير مصيره.

لكنّني أرى أيضًا أن في الحبّ نوعين من الواجبات:

واجبات ضرورية، لا استثناء فيها: لا للكذب على المشاعر، لا للابتزاز العاطفي، لا للوعود من دون نية الوفاء، لا لاستغلال ضعف الطرف الآخر، لا للمقايضة...

واجبات مستحبة، وهي مجال للاجتهاد، تتعلق في الغالب بحجم التضحية وقيمة العطاء.

حيثما تزداد قدرةُ كلِّ واحد على الفعل بحرّية وكرامة، فذاك حبٌّ عمليٌّ مشروع. وما عدا ذلك مجرد انفعال ينبغي تهذيبه بالعقل العملي.

فلنحاول أن نحرر الحب من أهوائه، ونردّه إلى مكانه الطبيعي، ليس في القلب وحده بل في الضمير الأخلاقي للإنسان، ليس في النشوة العابرة وحسب، بل في الواجب المُمتد في الزمان والمكان، ليس في التملّك من جانب واحد، بل في الاعتراف المتبادل.

ولو كان لي أن أوجز حجّتي في جملة واحدة، سأقول:

الحب بريء، وله دور ضروري في الحياة لأنه يُرغمنا على النظر إلى الغير كذات لا مجرد أداة، كغاية لا مجرد وسيلة.

حين أنهى مرافعته بدا كأنّه أتمَّ واجبًا مفروضًا عليه من ضميره الأخلاقي. أومأ برأسه إيماءة خفيفة نحو القاضي، ثم عاد إلى مقعده بخطى مستقيمة، كما لو أنه يمتثل لقوانين العقل العملي.

مرافعة هيجل

يتقدّم من المنصّة رجل بوجه دائري وعينين رماديتين، يرتدي معطفًا طويلاً مع وشاح داكن، يتجه نحو المنصة، ينظر بعينين تتقدان يمينًا وشمالاً. يتكلم بنطق بطيء، ومتلعثم في بعض الأحيان، فيقول:

أقف أمامكم اليوم لا بصفتي فيلسوفًا فقط، بل بصفتي شاهدًا على أعظم قوة روحية في هذا الوجود. أنا جورج فيلهلم فريديريش هيجل، الاسم طويل كما ترون، وهذا يندرج ضمن بعض التقاليد المحلية، حيث يضاف اسم أو اسمين، لذكرى أعزاء، لكن الجميع يناديني باسم جورج.

لقد وُجهت للحب تهمة خداع الناس، وتهديد صحتهم النفسية والعقلية، كما لو أنه جرثومة خبيثة أطلقها شيطان شرير لتعذيب الأرواح وحرق القلوب.

أما هكذا تهمة توجَّه إلى شعور لا يمكن لإنسان أن يقصيه أو حتى لا يبحث عنه، أقول ما يلي:

ليس الحب انفعالاً عابرًا، ولا شغفًا أعمى يقتات على المصادفة، بل هو لحظة في حركة الروح نحو اكتمالها، وحدة الذات والغير حيث تصبح الحرّية «عند نفسها في الغير».

بهذه الجملة الكثيفة أضع الحب داخل منطقٍ جدليّ، فلا أتركه للغنائيات وحدها، بل أطالبه بأن يبرهن نفسه في الحياة الفعلية للناس.

يبدأ الحبّ عادةً كدفءٍ مباشر، كألفة تعِدُ بإزالة المسافات، ويبني وحدة متماسكة. غير أنّ مشاعر الخوف أو الهيمنة، تجعله تملّكًا، غيرةً، وحراسةً خانقة، حيث يتمسّك «الأنا» بالغير بوصفه شيئًا. هنا على العقل الجدلي أن يتدخل لإبطال الأنانية التي تريد الامتلاك، وحفظ خصوصية كلّ طرف، وتفكيك فكرة تماسك الوحدة. هكذا يتحوّل الدفء إلى

قرب يحفظ الحدود، والوحدة إلى تفهّم يحتضن الاختلاف، وحرّية تتسع فلا تضيق.

الحرية لا تتحقق في عزلة فردٍ يكتفي بذاته، ذلك أن الذات لا تكون ذاتًا إلا بقدر ما تعترفُ بها ذاتٌ أخرى. الحبّ الحقيقي إذًا ليس ذوبانًا يُمحى فيه الفارق، ولا تشييئًا يُهدر فيه الشخص، بل هو اعتراف متبادل ومتكافئ، تُصبح فيه حرّية الذات واقعًا حيًّا لأنّها معترفٌ بها من آخرَ حرّ، مثلما تعترف الذات بحرّية الغير كذلك. هكذا يبدو الحبّ شكلاً مبكّرًا من الحياة الأخلاقية.

المذنب الحقيقي الذي يستحقّ الإدانة، ليس الحب، بل اللاحب.

اللاحب، هو كلّ علاقةٍ تَصِف نفسها بالحبّ لكنها تمحو خصوصية الغير باسم القرب، أو تحاصره بالغيرة كأنّه مُلكٌ خاص، أو تبتزّه عاطفيًّا لتأمين الطاعة، أو تُقايض الكرامة بالسكوت. هذه ليست نواقص عرَضية، بل هي دلائل على أنّ «الهوى» لم يخضع بعدُ لعمل العقل.

فكيف نعرف أنّ حبًّا ما صار حقيقيًا؟

نعرف ذلك حين تتوسّع حرّية الطرفين بدل أن تنكمش، حين يكون القرب حاميًا للمسافة الإنسانية لا قاتلاً لها، حين تزيد قدرة كلّ فردٍ على الفعل والمعنى، وحين تُصان الكرامة والحدود بلا إذلالٍ ولا تشييئ.

إذا اختبرنا العلاقة بهذا الميزان ووجدناها توسّع الحرّية وتُنمّي القدرة على الفعل، فنحن إزاء حبٍّ ناضج. أمّا إذا أورثت ضيقًا وقهرًا وابتزازًا، فالأمر مجرد تعلّق يحتاج إلى العلاج عوض الاحتفال.

لا أنفي الشعور بالعاطفة، رغم أن النفي عندي هو إعادة إثبات. ذلك أن العاطفة الخام ضرورية كبداية، لكنّها لا تكفي لتشييد عالم إنساني. وحده العقل المتجسّد، والذي يسكن العادات الحسنة وعدم الكذب والعهود الواضحة، يحفظ حرارة الشعور من أن تتحوّل إلى نارٍ تحرق البيت.

حين يعقلِن الحبُّ نفسه يصير نظامًا من الثقة، ويصير وعدًا يُعوّل

عليه، ولغةً لا تُهين ولا تهان، بل حدودًا تُصان، وتمسّكًا بحياة مشتركة تُحمى بقدر ما تُعاش.

رُبّ معترض يظنّ أن تقنين الحبّ بهذا الشكل يقتل عفويته!

هنا يجيب المنطق الجدلي بوضوح: التقنين لا يقمع القلب، بل يحميه من التقلب. كما أن الشكل يمنح المضمون فرصة ليحيا ويتنفس. من دون عهدٍ وحدودٍ ووعي بالمسؤوليات، يتحوّل الدفء إلى استهلاكٍ متبادل. الشكل الأخلاقي لا يُطفئ الحبّ، بل يمنحه هيئةً تضمن له الديمومة.

خلاصة دفاعي أنّ الحبَّ جديرٌ باسمه حين يصير حرّيةً مشتركة، وذلك حيث أحقق نفسي في غيري، ويحقق غيري نفسه في ذاتي. إنّه ذلك الكلّ الذي يتجاوز النقيضَيْن، لا ذوبان يُلغي الأشخاص، ولا امتلاك يُحوّلهم إلى أشياء. ومن علامات هذا الكلّ أنّه يخلّف فينا سَعةً لا ضيقًا، وثقةً لا حراسة، وتبادلاً للاعتراف لا تبادلاً للهيمنة. ومن ثم يتحقق النمو المشترك، فلا تنمو ذات على حساب الأخرى كما يحدث في العلاقات السامة.

إذا كان هدف الحياة النمو، كما أوضح سبينوزا، فأنا أضيف أن النمو هو تحوّل. كل نمو هو بمثابة انتقال من حال إلى حال. من لا يحب بعمق لا يتحول بعمق. إلا أن التحول يحتاج إلى قدر من التحمل. وهذا لا يقدر عليه الأكثرون.

في قصص الأدب الرومانسي يتم تصوير الحب باعتباره مغامرة جديرة بالفرسان الشجعان، والذين في طريقهم إلى الحب يقاتلون التنانين والغيلان، وهي المعارك التي تمنح للعاشق شجاعة التحول. إن القتال ضد الوحش الخارجي هو في النهاية قتال ضد الوحش الذي يسكن الذات.

إنّ الحبَّ في جوهره لحظة جدلية، حيث الأنا تتنازل وتنحَلّ، وهذا

مؤلم للوعي الميّال إلى إثبات الذات، لكن الذات تتنازل وتنحَلّ كي تعود من جديد، لا كما كانت، بل أوسع مما كانت، وأعمق مما كانت وأكثر إنسانية مما كانت. هذه هي الدرجة العليا التي لا يبلغها معظم الناس، وبالتالي يلقون باللائمة على الحب، يتهمونه، ثم يدينونه، وكل ما في الأمر أنهم لم يكملوا الرحلة.

لا تأتي التعاسة إلّا حين نطلب من الحب أن يغيّرنا ويحقق أحلامنا، حين نطلب منه أن يمنحنا كل شيء من دون أن ندفع له أي ثمن، ثم نغضب منه حين يعجز، ونتهمه بالخذلان.

ثم يرفع نظره نحو ممثلة النيابة العامة، ويقول لها بلغة تميل إلى الحدة قليلاً:

هل تعرفين يا سيدتي ما الحب؟

ليس الحب علاقة بين ذات وموضوع، بل علاقة اعتراف عاطفي متبادل ومتكافئ بين ذات مستقلة وذات مستقلة. لذلك لا يمكن أن يوجد الحب إلّا في مجتمعات تتعامل فيها الذوات مع بعضها باعتبارها ذواتًا لا أدوات، أي باعتبارها ذواتًا في ذاتها لا أدوات لغيرها.

لا يمكن أن يولد الحب داخل مجتمع تحضر فيه المرأة كمجرد أداة للإنجاب، أو خادمة مهمتها الطبخ والكنس، أو وسيلة للمتعة الجنسية للرجل، بل يولد الحب حين تحضر المرأة كذات مستقلة. والعكس كذلك، لا يولد الحب حين يحضر الرجل كمجرد مُعيل، أو حارس أمن للأسرة، أو أداة للإخصاب، بل يحضر الحب حين يحضر الرجل كذات مستقلة في نموها وأحلامها. يولد الحب حيث تولد الذات أوّلاً.

إن الحب هو علاقة اعتراف عاطفي تبادلي بين ذاتين متكافئتين.

الحبّ هو أول مدرسة يختبر فيها الإنسان حدود ذاته، وإمكانية أن يضع غيره في مكان مساو له، مماثل له، مكافئ له، وبالتالي يمكنه أن يرى محبوبه لا كشيء يُمتلك، بل ككائن يختار بدوره، يرفض، يتغير،

يتقلب، قادر على إعادة النظر في خياراته، وقد يقول في أي لحظة: «لم أعد أحبك». إلا أن المفارقة تكمن في أن هذا التهديد الدائم بالهجران هو شرط دوام الحب. لماذا؟ لأنه الدليل على وجود الذات المستقلة.

من يحبّ ينبغي أن يعلم أنه لن يدخل إلى نعيم جاهز، بل يدخل في عَقدٍ يتجدّد كل يوم، حيث كل قبلة هي بمثابة توقيع جديد على العقد، وكل صراخ وشتائم أحيانًا هي نعي لمرحلة وبدء لمرحلة جديدة، وكل وئام بعد خصام هو تجديد للحب.

سيدي القاضي، إن برّأتم الحب ستمنحون الروح فرصة أن تكتمل وأن تتحرّر أكثر، وإن حكمتم عليه بالإدانة فاعلموا أنكم تحكمون على أنفسكم بالسجن داخل عزلتكم، داخل قلوب خائفة لا تجرؤ على أن تنبض لأجل الحياة، ولأجل تطور التاريخ نحو غايته النهائية: الأخوّة الكاملة.

حين أنهى هيجل مرافعته، بدت القاعة كما لو أن عاصفة فكرية هادرة غادرت لتوّها.

مرافعة كيركغارد

يقف رجل يرتدي عباءة سوداء على الطراز الدانماركي الكلاسيكي، جسمه نحيف ويميل إلى الطول، وجهه نحيل بعظام خد بارزة وملامح حادة. ينطلق بصوت هادئ قبل أن يعلو ويصير واضحًا:

لم آت إليكم بخطاب أُعددتُه للمناسبة، بل جئت مُحمّلاً بحقيبة من التناقضات. جئت إليكم بحب لم يكتمل، وإيمان يتصارع مع الشك في أعماق وجودي. قالوا عني: فيلسوف متشائم، عاشق فاشل، نبيّ يائس، ولا أدري ماذا قالوا أيضًا، لكنني لم أكن سوى بحيرة هادئة في السطح بينما المياه تغلي في الأعماق.

أنا سورين كيركغارد، وُلدتُ وسط المدنية لكنني عشتُ في أدغال عزلتي بحثًا عن الله. لا أبحث في الأدلة المدوّية بل في اليأس الصامت. لا أهتم بنظام الطبيعة مثل سبينوزا، ولا بمنطق التاريخ مثل هيجل، إنما تهزّني صرخة الإنسان المتألم. كما لا تعنيني براهين وجود الله، بل أكتفي بأن أقف أمامه في توتر الإيمان والخوف والرجاء.

سيدي القاضي، على هذا الأساس غير الآمن، أقف أمامكم في محاولة يائسة للدفاع عن متهم يرغب فيه الجميع، ويخشاه الجميع. يبحث عنه الناس ثم يطردونه، ثم يلحقون به، ثم ينكرونه قبل أن يتنكروا له، ثم يعودون إليه باكين نادمين متوسلين، ثم من جديد يحمّلونه ما سمعتم من اتهامات.

لقد كتبتُ كثيرًا عن الحب. لم أكتب عنه لأن الكتابة عنه سهلة أو مغرية أو مرغوبة، بل لأنه نار إذا اندلعت لا تترك شيئًا كما كان. نارٌ تجتاح كيان المحبّين بحيث يصبح من أصعب الأمور إطفاؤها.

لم أهرب من خطيبتي ريجينه ليلة خطبتها لأنني لم أحبها بل لأنني

كنت أحبها أكثر مما يسمح لي خوفي. لا أقصد الخوف من الحب، بل أقصد الخوف على الحب. لم أخن الحب، بل خنت قدرتي على احتماله. لذلك، جئت لا أحمل حجة بل قلقًا، جئت لا لألتمس مجرد البراءة بل لألتمس فهمًا أعمق للحب.

أيها الحيارى، تقولون: إن الحب أوقعكم في الشقاء. فأقول: بل إنكم تستخدمون الحب للهروب من شقاء أنفسكم ثم تتهمونه بأنه سبب بؤسكم وتعاستكم.

أن تحب معناه أن تتخلى عن أمانك، أن تختار الشك وتلبسه مع ثيابك كل صباح، أن تمشي كالمسرنم لأنك رأيت نورًا لم يره سواك. فهل أنتم جاهزون للحب؟

سادتي الأفاضل، لا أدافع عن الحب بوصفه نزوةً رومانسية، بل بوصفه امتحانًا لضميري في غرفةٍ بلا جمهور. فالحب عندي ليس فصلًا من فصول السنة، بل مقامٌ أخلاقيٌّ روحيٌّ يختبر قدرتي على أن أقف منفردًا أمام المطلق، وأن أختار المحبّة اختيارًا لا يضمن لي تصفيق أحد.

فكيف أعيش هذا الواجب؟

أجيب عبر مفهومٍ حاسم هو الانفراد أمام المطلق. لا يحتاج الحبّ إلى حشدٍ يشهد له، بل إلى ذاتٍ تُحاسب نفسها في الخلوة. أما الجمهور -وهنا لا أجامِل- فكثيرًا ما يكون ضدّ معرفة الحقيقة، لأنّ معرفة الحقيقة تستجلب المسؤولية.

دفاعي عن الحب يبدأ إذًا بتجريد نفسي من ذرائعي الجاهزة: لا أُحب الآخر لأنه يمنحني ضمانات، بل أختار أن أكون وفيًّا للمحبّة حتى حين لا يضمن هذا الاختيار مكسبًا أو سمعةً أو امتنانًا.

لكن، هناك خطوة أخرى سمّيتُها القفزة. حيث لا تكون القفزة نزَقًا أعمى، بل انتقالا من حسابات المنفعة نحو أفق محفوف بالالتزام. كل

حبٌّ يمرّ بلحظةٍ ينهزم فيها البرهان أمام المخاطرة. هل أستمرُّ حين يخفت الانفعال؟ هل أكرّر الوعد حين يصير التكرار اختبارًا لطول النفَس؟ هنا يتقدّم مفهومٌ آخر عندي، التكرار. فالحبّ الحقيقي لا يُقاس بوهج البداية، بل بقدرة الوعد على أن يتجدّد بلا جلبة. التكرار ليس رتابةً، بل فنٌّ ومهارة، أن أقول «نعم» مرّةً أخرى، وأن أتذكّر أنّ المشاعر، مهما بلغ نبلها، فهي تحتاج إلى عاداتٍ تحفظها، كما يحتاج الجسد إلى نظام يقيه السأم والإنهاك.

وَلأنّ الحب ضرورة وليس استعراضًا، فإنه ينمو ويزهر في الظل. العمل المحبّ يواسي ولا يُشيطن، يُصلح ولا يُشهِّر، يبني ولا يطالب بأجر لقاء عمله، يمنح ولا يريد حتى الشكر. العطاء الذي يُسجّل حساباته على الملأ يُفسد نقاء المحبّة، بحيث يتحوّل من موقف في الحياة إلى مسرحٍ صغير للذات. لذلك أذكّر نفسي دومًا بأنّ المحبّة التي لا تنظر إلى وجهها في المرآة كل لحظة، تستطيع أن ترى وجه القريب بوضوحٍ أشدّ.

دفاعي عن الحب لا يكتفي بتصويب مظاهر السلوك، بل يتوغّل إلى بنية النفس ذاتها.

الحبّ باعتباره واجبًا نحو الغير، يربطني بما هو أرحب منّي، فيُنقذني من دوراني حول ذاتي، ويعيد إليّ صحّتي الروحية. بهذه الحركة المزدوجة، حيث التواضع أمام المطلق والحنان نحو القريب، يتحوّل الحب عندي من تجربةٍ نفسية إلى تربيةٍ للحرية. إنها حرية تُحسن الاختيار، وتتحمّل عاقبته، وتعيد تأكيد العبارة نفسها: «أنا مسؤول».

قد يُعترض عليّ بأنّ هذا التعريف مثاليٌّ أكثر من اللازم، وأنّ العالم لا يكافئ المحبّة بل قد يعاقبها. أنا لا أنكر قسوة العالم، لكنّني أردّ بأنّ معياري ليس مكافأة العالم بل أمانة الضمير. واجب محبّة القريب لا أعيشه لأنّه ينجح دائمًا اجتماعيًا، بل لأنّه وحده يمنح ذاتي كرامة الاتّساق، أن أكون في الظاهر ما أعلنُه في الباطن. ثم إنّ المحبّة، على

خلاف التملّق أو الشفقة، فهي ليست معالية وتمتلك قوة نقدية، طالما تنقض أصنام السيطرة والخوف، وتقاوم منطق الاستغلال باسم منفعةٍ قصيرة النظر. بهذا المعنى، ألتقي مع مطلب «سياسات العناية»، حيث الحبّ ليس بديلاً عن العدالة، لكنّه شرطها الأخلاقي ودليلها اليومي.

يبقى أن أميّز بين الحبّ الذي أدافع عنه والحبّ الذي يتّهمه خصومي. المتّهَم الحقيقي ليس الحب الحقيقي، بل حبّ الانتقاء الذي يفضّل ويقصي، يطلب المتعة وينسحب عند أول خسارة، يعِد بما لا يقدر على الوفاء به لأنّه يفتقر إلى تقبّل التكرار والانفراد والواجب. هذا الحب هو الذي يخلّف المرارة، ويُكثّف القسوة. أمّا الحبّ الذي أطالب به فهو اقتصادٌ للحنان، ضبطٌ للأنانية، تدريبٌ على الإصغاء، ترجيحٌ للستر على الإشهار، ومواظبة على جبر ما ينكسر بالودّ والمسؤولية.

في خاتمة هذه المرافعة، لا أطلب تبرئة حبٍّ رومانسيٍّ مُسرف، ولا أُلمّع صورة عاطفةٍ عمياء. إنني أطلب فقط أن نُنزِل الحبّ في مقامه الحق، واجبًا داخليًّا يعلّمني أن أكون نعمةً لغيري لا عبئًا عليه. فإذا كنتُ أبحث عن براءةٍ ما، فلتكن براءة عزمٍ يرفض أن يُسلّم مصير الحب لمزاج اللحظة، ويصبر على «القفزة» و«التكرار» و«الخفاء». وعندئذٍ، لا يعود سؤالي، هل أربح من هذا الحب؟ بل، هل أصير به أصدق مع نفسي وأكثر رحمةً بالعالم؟ هذا وحده معيار البراءة التي أدافع عنها، وهو أيضًا الامتحان الذي ينتظر كلّ من يختار أن يُحبّ.

حين أنهى كيركغارد مرافعته، خيّم على القاعة صمتٌ مربك، كما لو أن الحاضرين خُذِلوا في أعماقهم، أو كأنّهم نظروا في مرآة فجأة، فرأوا هشاشتهم كما لم يروها من قبل. لم تكن مرافعة كيركغارد خطابًا عقلانيًّا ولا عرضًا نسقيًّا، بل كانت اعترافًا وجوديًّا، صرخة رجل عرف الحب لا في تجلّيه، بل في فشله، لا في اكتماله، بل في تردّده وانكساره.

مرافعة شوبنهاور

بلباس أنيق من الطراز الألماني في القرن التاسع عشر، وقفَ رجلٌ له شعر أبيض وكثيف من الجانبين، مع حواجب حادة ونظرات توحي بالاستياء. بعد لحظة من الصمت بدا فيها كما لو أنه يتردد أو يفكر، شرع في الكلام بصوت هادئ ومتهكم:

أنا أمثّل أفضل دليل على صحة مقولة «الفلاسفة مجرد أطفال مجروحين». فقد سبق لوالدي أن انتحر بسبب الاكتئاب الحاد، وكانت أمي مجرد روح هاربة من عالم الشريرات، ومثلها كانت أختي.

هل نجوتُ أنا من جروح الطفولة؟

لا أدري إلى أيّ حدّ، فأنا أعرف ألا أحد ينجو بلا خسائر.

فلسفتي في جوهرها لا تقوم على كراهية المرأة والجنس والحب كما يقرؤني البعض، بل يمكن لقراءة متأنية أن تفضي إلى نتائج عكسية. قد أشكو في المستوى النفسي مما يشبه رهاب الجنس، لستُ متأكدا، لكن دعوني أعترف بأن بعض الجروح قد تكون هي النوافذ التي قد نرى من خلالها حقائق خفية.

أنا آرثر شوبنهاور. يقترن اسمي في أذهان الكثيرين بالتشاؤم وبعبارة: الوجود مسرحٌ للألم. لذلك قد يبدو غريبًا أن أنهض اليوم مدافعًا عن الحبّ. نعم أدافع عن الحب، لكنّني لا أدافع عن ذلك الحبّ الذي يسطع كالألعاب النارية ثم يخلّف في الهواء رائحةَ احتراق. ولا أدافع عن نشوة التملّك ووعود الانتشاء، فهذه عندي مجرّد خضوع لقوانين الطبيعة، يخضع لها الفرد كي يخدم النوع. بل أدافع عن حبٍّ آخر، حبّ الشفقة، وحتى الشفقة عندي لا تأتي من التعالي على مصائب البشر،

بل هي تلك القدرة على أن أرى في ألم الغيرَ ظلي، وفي حاجته امتدادا لعوَزي. هذا وحده يستحقّ اسم الحبّ، وهذا ما أطلب له البراءة.

حين أقول إنّ الحبّ الإيروسي حيلةٌ للنوع، لا أزدري الحب، بل أفكّك مقاصده. الإرادة العمياء تريد الاستمرار، فتغوي الفرد بوهم سعادةٍ مُفرَدة، ثمّ تخلي بينه وبين واقعه بعد أن تنال ما تريد. من هنا تنشأ فواجع الغيرة والتملّك والإحباط، لأنّ الفرد في العمق، أداة لا غاية. وما إن تذهب السكرة حتى يتبيّن أنّ الوعود كانت أكبر من القدرة على الوفاء بها. لهذا لا أبني دفاعي على هذا النمط من الحبّ. دفاعي يقوم على خبرةٍ أخرى: في لحظات الصفاء الشحيح، أقدر على أن أشقّ حجاب الفرديّة فأرى في الكائن الآخر ذاتًا تشبه ذاتي، تتألّم كما أتألّم، وتخاف كما أخاف. هنا ينبع الفعل الأخلاقي، لا من وصيّةٍ تهبط من علياء السماء، بل من معرفةٍ متألّمة بوحدة الكينونة.

لقد قُلت إنّ العالم إرادةٌ وتمثّل:

الإرادة هي جوهر الأشياء العميق، والتمثّل هو تصورها في وعي الفرد.

فإذا عرفتَ هذه الحقيقة معرفةً وجوديةً لا لفظية، انفتح في داخلك منفذٌ صغير إلى الشفقة التي قصدتها.

في الشفقة أمدّ يدي لا لأنال ثناءً أو مكانةً أو امتنانًا، بل لأنّني، في صمت الضمير، أشعر أنّ يدًا أخرى تمتدّ نحوي عبر جسدٍ ليس جسدي. هكذا أفهم الأخلاق، إنها ليست زينةَ المجتمع ولا طقوسَ السمعة الحسنة، بل اقتصادٌ للحنان يحسب كلفة أفعالي في ميزان الألم: هل أزيد في هذا العالم حصّة المعاناة، أم أنقص منها شيئًا ولو ضئيلًا؟

قد يُقال: الشفقة رخاوةٌ تُبقي الظلم قائمًا. أمّا أنا فأرى في الشفقة أعلى أنواع الشجاعة، والتي هي شجاعة كبح النفس. ليس صعبًا أن أُنصت لرغبتي وأن أفتّش عن ذرائع لتبريرها، لكن الأصعب أن أضع رغبتي في قفص الاتهام ثم أسألها، كم ألمًا ستخلّفين وراءك؟

ليست الشفقة دمعةً سريعة تلمع ثم تجفّ، بل هي إرادة مضادّة: إرادةُ التخفيف حين تدفعنا الحياةُ إلى الزيادة، إرادةُ الصمت حين يغري اللسانُ بالتجريح، وإرادةُ الانسحاب حين يصبح حضورنا عبئًا على من هم حولنا. بهذه الإرادة المقيّدة يتهذّب الفعل، وتتعقّل العاطفة، ويهدأ في صدورنا شيءٌ من سعير الإرادة الكبرى.

ولأنّ معيار الأخلاق عندي هو قابلية الكائن للشعور بالألم، فلا أقف عند تخوم الإنسان. الحيوان شريكٌ لنا في المعاناة، صمته لا يبيح لنا استغلاله، بل يوجب علينا مزيدًا من الحذر. إنّ الحضارة تُقاس بمقدار الرفق الذي تُبدِيه لمن لا صوت لهم، لمن لا يكتبون شكاياتٍ ولا يرفعون لافتات.

وإنّني لأرى في كلّ عمل رحيم، مهما بدا صغيرًا، خطوةً عمليةً في طريقين معًا: طريق العدالة اليوميّةً التي تقلّل الألم الملموس، وطريق السكينة الباطنيّة التي تُطفئ جمر الإرادة في داخلي. وما كلّفني ذلك من متعٍ فائضةٍ مردودُه أعظم: خفّةٌ في الروح وفسحةٌ من صمتٍ لا تشوبه مرارة.

لا أعِد أحدًا بجنّةٍ أرضيّة. أنا أعرف طينة هذا العالم، حيث الألم أصله، وسوف تبقى الإرادة تتغذّى من الشهوات وتلدغنا بنقصها الدائم. لكن بين التسليم لتيّارها الأعمى وبين ادّعاء القدرة على قلب مجرى النهر، ثمّة طريق ثالث: التقليل.

أستطيع أن أقلّل من الألم حين أقوم بإلقاء كلمةٍ أقلّ خشونة، نظرةٍ لا تهين، أو الامتناع عن انتهاز فُرصةٍ تُربحني قليلاً وتؤذي كثيرًا، أو أقدّم عطاء يطلب الستر لا التصفيق. أستطيع أن أدرّب رغباتي على القناعة، وأن أفضّل الوفاء الهادئ على الحماسة الصاخبة، طالما أنّ الخير ليس ما ينفجر لحظةً، بل ما يتكرّر على مهل.

سيعترض عليّ من يرى في هذا كلّه نزعةً رهبانيّةً تهرب من الحياة.

لكنّني لا أطلب هجر العالم بل تأديبه. أطلب ترويض الرغبة لا قتلها، تنظيم المَيل لا إنكاره، تهذيب اللغة لئلا تصير أداةَ قسوةٍ رخيصة. ومتى استقام هذا الاقتصاد في الداخل، انعكس في الخارج عدلاً ألينَ عودًا وأصدقَ أثرًا من عقوباتٍ صاخبةٍ لا تلمس جذر الألم. إنّ الشفقة تكشف زيف الأخلاق التي تبني مجدها على احتقار الضعيف، وتُبدّل معيار الحكم من المنفعة إلى الألم، ومن القوة إلى القدرة على الكفّ.

إنني لا أنفي الظلام، لكنني لا أضيف إليه عتمةً جديدة.

وهذا هو جوهر دفاعي:

إذا كان الوجود مسرحًا للألم، فإنّ الحبّ الذي يليق بنا ليس نشيدَ التملّك، بل فنُّ التخفيف. لا أملك أن أشفي العالم من جوهره، غير أنّني أستطيع ألّا أزيد جراحه. وحين أفعل ذلك، أشعر بأنّ وجودي قد نال شيئًا من التبرير أصدقَ من كلّ الانتصارات التي راكمتها إرادتي. هذا هو الحبّ الذي أدافع عنه، حبّ الشفقة، حبٌّ متواضع في لغته، عنيد في أثره، يقيم العدل الصامت حيث يعجز الضجيج عن إقامة شيء.

وإذا كان لا بدّ من خاتمةٍ لهذه المرافعة، فلتكن على النحو الآتي:

لن أصلح طبيعة العالم، لكنّني أستطيع، ما حييت، أن أصلح نصيبي من قسوته. وفي هذا الإصلاح القليل تكمن أشرفُ صورةٍ للحبّ عرفتها.

حين أنهى شوبنهاور مرافعته، ساد في القاعة شعور غريب، مزيج من النفور والإعجاب، من التقزز الغامض والاحترام غير المعلن. أما هو فقد مشى إلى مقعده مستقيمًا، كأنّه لا يعنيه إن صدّقه أحد أو لم يصدّقه أيّ أحد، يكفيه ما قاله.

مرافعة داروين

يتحرّك الرجل بخطى وئيدة، ولحية كثيفة وبيضاء، وعينين غائرتين. يرتدي معطفًا طويلاً وقبّعة سوداء، ويبدأ الكلام بصوت متهدج قليلاً:

أنا ابن الحياة البرية، لم أنظر إلى الطبيعة من المكاتب، بل زحفت على بطني بين الصخور، أصغي لحكمة الديدان التي تقاوم من أجل البقاء. زعموا أنّني قضيت على الإيمان بطعنة غائرة وغادرة، لكنّني لم أقتل سوى الجهل.

أنا شارلز داروين، في قلبي أسرار السلالات وألغاز البدايات، وفي عقلي عشرات الأسئلة والحلقات المفقودة.

زعموا أيضًا أنّني قضيت على المحبة حين جعلت صراع البقاء هو القاعدة، لكنني أمجّد الحب حين أراه ضرورة تطورية.

فدعوني أبدأ من نقطة البدء، فأطرح سؤال البداية: ما أصل الحب؟

سبقني شوبنهاور إلى تقديم جزء من الإجابة، وها هي التتمة كما أراها:

الحبّ حيلة تطورية للطبيعة من أجل تحسين النسل البشري، حيث لا ينجذب الواحد إلى من يكرر الاختلالات الفيزيولوجية، حتى ولو كانت بسيطة. فيكون الانجذاب بالتالي فرصة لا واعية لتحسين النسل.

كما أن الرجل يخزن في ذاكرته الجنينية سلوك الصياد الذكر البدائي الذي يتناسل من دون التزامات بيولوجية نحو الصغار، هذا في الوقت الذي يحتاج فيه صغار البشر إلى سنوات من الرعاية الشاقّة. فيكون الحب هو الفخ الذي صنعته الحياة من خلال المرأة ليستقر الأب، ومن ثم الأسرة، وهنا أصل الحضارة.

لستُ لاهوتيًا ولا شاعرًا، بل أحتجُّ بالواقع والوقائع. وحين أنظر

في الطبيعة بعين البصيرة، أستنتج أنّ ما نسمّيه «الحب» ليس نزوةً تزيّن الحياة، بل آليّة انتقاء راقية تحفظ النوع وتُهذّب الأفراد.

إنّ حضن الأم في الثدييات ليس ترفًا عاطفيًّا، بل شرط بقاء صغارٍ يُولدون عاجزين. الكائنات التي طوّرت قدرًا أعلى من الحنان والرعاية أورثت نسلاً أكثر قدرة على البقاء، فاستقرّ فينا هذا الميل وتجذّرَ في الأعماق. هنا يكون الحنان هو الأصل الذي تُشتقّ منه صور الحبّ كلّها.

في الأنواع التي يطول فيها عجز الصغار، يغدو ثباتُ العلاقة بين الأبوين ميزةً انتقائيّة. أنا هنا لا أُزيّن الحقائق، بل أقول إنّ الطبيعة، عبر ملايين السنين، انتصرت في كثير من الأحيان للذين أحبّوا لمدة أطول وتحمّلوا أكثر.

كما أرى أنّ العواطف الاجتماعيّة، وفي مقدّمتها التعاطف، نشأت بادئ الأمر مع حياة القطيع البدائي. حيث الجماعاتُ التي راعت جرحاها وعاونت ضعفاءها وتبادلت الإنذار والثقة، تفوّقت على سواها. هكذا يخرج الحبّ من حدود القرابة إلى أفقٍ أوسع، من البيت إلى القبيلة ثم المدينة. ومع تقدّم العقل والعادة، تتّسع دائرةُ التعاطف، فيصير الواجب الأخلاقي امتدادًا طبيعيًّا لغريزة الرعاية.

لا أنكر أنّ في الطبيعة قسوةً، وحروبًا تخاض كل لحظة بالمخالب والأنياب. لكنّني أرى أنّ المحبّة إحدى وسائل الطبيعة أيضًا لتخفيض الكلفة. الغيرةُ والتملّك والشهوة العمياء ليست حجّةً على الحبّ، بل هي انزلاقاتٌ لدوافع عدوانية كامنة في الإنسان. على أن العلاج لن يتحقق بإنكار الطبيعة، بل بتهذيبها، وتربية الميل بالعقل والفن والرياضة، وأيضا توسيع دائرة العطف بالتعليم ومؤسّسات التنشئة، بحيث تُوجَّهُ الدوافع العدوانية لخدمة البناء بدل الهدم.

إذًا دفاعي بسيط ومزدوج:

بيولوجيًّا، إن الحبّ بوصفه رعاية ووفاء وتعاونًا، قد زاد من فرص بقائنا. لذلك انتقته الطبيعة وأثبتته فينا.

أخلاقيًّا، إن ما رسّخته الطبيعة يمكن للعقل أن يوسّعه ويهذّبه، حتى يشمل من لا قرابة لنا بهم، بل وسائر الكائنات القادرة على الألم.

بعد أن أنهى داروين مرافعته، كانت يده ترتجف ارتعاشة خفيفة لا يُعرف إن كانت من المرض أم من ثِقل الفكرة. عيناه اللتان طالما بدتا كأنهما غارقتان في تأمل واسع، مرّتا سريعًا على القاعة من دون أن تتوقفا طويلاً.

مرافعة نيتشه

رجلٌ نحيفٌ ونشيطٌ، عيناه زرقاوان ونظراته متقدة، له شاربٌ كثيفٌ وضخمٌ بنحو مثير للانتباه، يتقدّم بثبات نحو المنصة، ثم يقدم نفسه بأسلوب لا يخلو من حدة:

أنا فرديريك نيتشه. لستُ فيلسوفًا في قاعات الدرس أطلب إنصات التلاميذ، ولا واعظًا في المعبد أترجّى تصديق المريدين. أنا مطرقة تقرع الأصنام لتكشف خواءها، أنا صوت زرادشت في عالم ما بعد الأديان، أنا نبيّ الإنسان الأعلى الذي لا يجمع الأتباع حول وثن في الأرض أو السماء، بل يدعو كل واحد إلى أن ينحت ذاته قبل أن يتجاوزها.

لم آتِ لألعب دور المحامي التقليدي، فالبراءة أو الإدانة ليستا هدفي، بل جئتُ لأقلب الموازين: لا أطالب بالعدل للحب، بل أطالب بالحب ليتحقق العدل. فالمحب الحقّ عادل مع نفسه قبل غيره، عادل في شغفه كما في خصومته.

وإن كنتُ سأدافع عن الحبّ في النهاية، فليس لأنه طاهر أو بريء، بل لأنه مُذنب بجريمة مجيدة: جريمة إشعال النار في القلوب الخاملة، لتقوم من رمادها وتولد من جديد. تلك هي خطيئته العظمى، وذلك هو أيضًا برهانه الأعظم.

وأيضًا لم آتِ لأقدّم أعذارًا أو اعتذارًا باسم الحب المتهم ظلمًا، بل جئتُ لأفضح جُبنكم المخادع وأنتم تحاولون محاكمته بعد أن أخفقتم في تحمُّله.

أنتم تحاكمون الحبّ كما لو أنكم تحاكمون البرق لأنه أشعل حريقًا، أو تحاكمون الجبل لأنه سبب سقوط من سقط من قمته. إن كان الأمر كذلك

فأنا أنتظر منكم إصدار أمر فوري باعتقال كل جبلٍ أو نهرٍ أو بحر تسبب في موت إنسان! أليس هذا ما تفعلونه الآن في حق هذا الحب النبيل؟

تريدون أن تحاكموا الحب لأنه يتسبّب بالألم، وأنا أقول لكم، نعم الحب يؤلم في معظم الأحوال والحالات. لكن من قال إننا جئنا إلى هذه الحياة لأجل الراحة؟ ومن قال إن الألم شر؟ أو إن الألم ولادة وازدهار. فهل نسيتم أن النار التي تحرق هي التي تصهر وتعيد الولادة من جديد؟

إنكم تحاكمون الحب بدعوى أنه يؤلم القلوب ويتعب النفوس، لكنكم بهذا التبرير تستحقون سخريتي: هل وجد شيء عظيم من دون ألم، من دون وجع، من دون تعب؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتفوق على نفسه من دون إعادة سبك بكل ما تحمّله من آلام؟

تتدخل ممثلة النيابةالعامة:

لكنك سيد فرديريك أحرص الفلاسفة على صحة الإنسان، وأنت تعلم بأن هذا الحب الذي تتكلم عنه قد هدَّد صحة ملايين الناس، ولدينا آلاف الملفات الطبية التي تؤكد أن الحب يمثل تهديدًا كبيرًا لصحة الناس.

نيتشه (رافعًا نبرة صوته):

ليس كل ما يؤلم يهدّد الصحة، بل هناك آلام تشفي، هناك آلام تحرر، بل كل شفاء يمرّ بالضرورة عبر نوع من الألم.

ليس الحب هو ما يؤلمنا، والألم هو حقيقتنا في كل أحوالنا. وكل ما يفعله الحب هو أنه يكشف حقيقتنا. إنه يكشف الألم الذي يكمن فينا منذ أطلقنا صرخة الولادة. إننا بطبعنا، وبحكم تنشئتنا، نخاف من الفقد والتخلي والهجران. فماذا يفعل الحب سوى أنه يفضح خوفنا من الفقد

والتخلي والهجران، ويكشف عنه. إنه يفضحنا ويجعلنا لا نقدر على إخفاء حاجتنا إلى الصراخ!

في تجارب الحب نتوجع بالفعل، لكن ليس لأن الحب موجع بطبعه بل لأنه يكشف عن حقيقتنا، يفضح هشاشتنا، وأثناء الكشف لا نبقى قادرين على إخفاء الألم.

إننا نخاف من الفقد ولذلك قد نقع في أسوأ أنواع التعلق حين نعشق، نخاف من الفقد ولذلك قد نقع في أسوأ أنواع الغيرة حين نحب، نخاف من الفقد ولذلك نقع في أسوأ أنواع التوتر حين نعيش قصص الحب. إننا نخاف من الفقد ولذلك نتألم، ثم نشعر كأن ما نخاف من فقدانه هو الذي يؤلمنا.

إن كنتم تريدون حبًّا بلا مخاطرة، فمعناه أنكم لا تريدون الحب، بل تريدون شيئًا آخر قد يكون اسمه التعايش، المؤانسة، حُسن المعاشرة أو الرفقة الحسنة. لكن الحب لا يكون ممكنًا إلّا حين نتحمل أن نراه تحت الخطر، لا يكون ممكنًا إلّا حين نتقبّل أن نراه هشًّا. الحب لا يعيش إلّا تحت سقف التهديد الدائم، ولا يدوم إلّا حين يكون بين ذاتين قادرتين على الافتراق. إن القابلية الجذرية للهجران هي الطاقة التي تدفع إلى دوام الحب.

في العصور الكلاسيكية، حيث كانت المرأة نصف ظلّ، لم يكن قد وُلد الحب الذي تحاكمونه. كان الحب وقتها مجرد تجميل للسلطة التي يمتلكها الرجل أو خدعة تناسلية. كما أنه إذا أدى تطوّر التقنية إلى جعل البشر آلات متقنة لا تخطئ، لا تمرض، لا تشيخ ولا تعرف العصيان، فحينها سيموت الحب، وقد تحلّ آلة لا تشكو، خاضعة، لتلبية متطلبات البشر. لأن الحب لا يتغذّى من الكمال، بل من الهشاشة. الحبّ يحتاج إلى ذوات يمكن أن تنكسر، يمكن أن تخون، يمكن أن تَرتجف أمام قَدَرها. عندئذ فقط تشتعل النار، ويُولَد العشق.

حبٌّ بلا مخاطر هو حبّ ميت، مهما بدا ممتلئًا باللذة الجسدية. فالحيوانات أيضًا تمارس الغريزة في مواسم محدّدة، لكنها لا تعرف شيئًا اسمه «حب». الحب ليس جنسًا، بل مقامرة الروح: نارٌ يراهن بها الناقص على ناقصٍ آخر، لكي يكتشفا أن النقصان هو الشرط البشري.

الحب دافع بيولوجي قد تحوّل إلى فكرة عقلية، وإنه ككل الأفكار يتطلع إلى الديمومة والأبدية. هنا يحقّ للفلاسفة الإلهيين الاعتقاد بأنّ الحبّ نابع من الله اللّامتناهي في الزمان والمكان، لكن لا ينبغي نسيان أنّ الفكر بطبعه ينحو نحو اللّاتناهي. إن كان هناك شيء إلهي في الإنسان فهو الفكر نفسه.

يتدخّل ابن عربي (مبتسمًا):

يا فريديريك! ومن قال إن الإلهي يوجد خارج الإنساني؟ بل في الوجود وحدة داخلها تسكن كل الأسرار. لذلك كلما نزف العاشق، كشف الكون عن بعض أسراره. وهو ما يمنح لألم الحب معنى.

نيتشه (مجيبًا):

سيكون صحيحًا ما تقوله لو أنك قلته بلغة تخلو من أسرار الغموض. رغم ذلك دعني أخبرك بسرٍّ آخر قد لا تعرفه وقد لا تعترف به: السر الوحيد هو اكتشاف عدم وجود أي سر.

لا وجود في هذا الوجود لغير الأقنعة. ولا تخفي الأقنعة غير الأقنعة.

ممثلة النيابة العامة:

في كلماتك دعوة إلى الفوضى وتحريض على الجنون الأنيق. لكن، لا تنس أنك بدورك فشلت في الحب فشلاً ذريعًا. إنّني أراك تتحدّث عن الحب كما لو أنه عاصفة مقدسة، كما لو أنه سيف في يد نبي، كما لو أنه مواجهة ملحمية، لكننا لسنا هنا لتمجيد الحب بوصفه ظاهرة ميتافيزيقية

أو طاقة خارقة، بل نحن هنا لأن هذا الشيء المسمّى حبًا متهم بالتسبُّب في القلق والتوتّر والعذاب والاكتئاب والانتحار.

قبل بضعة أيام، ألقت مراهقة بنفسها من الطابق السابع لأن رسالة وصلتها تعلن نهاية حبّها. ومعروفة قصة جنون الشاعر لأنّ امرأة قالت له: لم أعد أرى فيك أيّ شيء حين أراك. ولن نعدّد قصص الضحايا فهي بالملايين.

لا يا سادة العدالة، الحبُّ الذي يدافع عنه الفلاسفة المترافعين هنا الآن هو حبّ بلا ضوابط، بلا عقل، حبّ يشبه المخدر القوي الذي يقود الناس إلى الوهم بدل أن يقودهم إلى الفهم الذي يطالب به سبينوزا.

أين تُرى براءة الحب مما يحدث من مآسٍ؟

ثم تنظر ممثلة النيابة العامة مباشرة إلى نيتشه وتقول:

سبق لك، سيدي فريديريك، أن تحدثت عن الإنسان الأعلى. لكنك هنا بين أناس عاديين بقُلوب هشّة، بين أطفال كل أملهم ألاّ تبكي أمّهم كل ليلة على عشق قديم، بين أشخاص ابتلوا بالإدمان والمخدرات بعد أن غاب الحبيب بلا أثر.

لذلك أطلب من المحكمة أن ترى الصورة كاملة غير منقوصة. الحب كما يمارس في عالمنا لا يرفع الإنسان بل يجعله عبدًا لأوهام نسجها من خياله.

نيتشه (مع ابتسامة تحمل دلالة سخرية):

تحاولين الكلام بكثير من العقلانية، لكن كلامك يفتقر إلى حرارة الحياة، وهنا الخلل. أنت تُحصين عدد الضحايا بأصابع اليد، لكن هل تساءلت يومًا: ما قيمة حياة خالية من الخطر؟ ودعيني أزيدك أيضًا: الحب نفسه يزداد اشتعالاً في لحظات التهديد والخطر. وأسأل هيئة المحكمة: هل الحياة ممكنة بلا حب؟

حضرة ممثلة النيابة تريد حبًا آمنًا. الحب الآمن يموت في صقيع الملل. هذا ليس قانوني أنا، بل هو قانون الحياة.

لا أنكر أنّني فشلتُ في الحب، فقد جرّبته مرة واحدة، لكنها كانت كافية لأعرفه حق المعرفة. عشتُ الحب مرة واحدة لكنّني عشتُه بكل كثافة، وانطلاقًا من تأملاتي في الفشل، أدّعي بأنني فهمتُ الحب كما ينبغي. فلا ننس أن المعلم الناجح هو من سبق له أن فشل مرارًا، ولذلك يعرف كيف يفشل الإنسان. ومعرفة أسباب الفشل تساعد في تجاوز مكامن الخلل.

أحبائي، هل تظنون أن الإنسان يُخلق من توفّر الخبز والحليب ثمّ ينمو، أو من حساب مصرفي؟ لا أبدًا، يولد الإنسان انطلاقًا من لحظة فقد فارقة، انطلاقًا من لحظة خيانة حارقة، انطلاقًا من لحظة عصيان صاعقة، انطلاقًا من تفجر رغبة لا تقبل أيّ تفسير، انطلاقًا من بركان يقلب فجأة كل الحسابات وخارج كل التوقعات.

أنا لا أدافع عن الحب لأنه جميل، بل لأنه ضروريّ. الحب كما أفهمه هو القفزة الأولى نحو التمرد على كل ما هو عادي واعتيادي، الحب هو اللقاء بالغير الذي ينتهي إلى الخروج عن القطيع، وذلك حين ترى انعكاس ذاتك المتفردة على عيون من يراك في تفرّدك. الحب هو سلم الروح نحو الإنسان الأسمى، ذلك الإنسان الذي لا يُحب لكي ينسى نفسه بل لكي يراها أكثر، لا يعانق لكي يذوب في غيره بل لكي يجعل من ذاته ذاتًا أسمى.

لا تحاكموا الحب لأنه لم يمنحكم الاكتمال، فهو لم يعدكم بالكمال، بل قدم إليكم وعدًا أعمق من ذلك: أن تتحولوا، أن تتغيروا، وأن تولدوا كل يوم من جديد.

لا أدافع عن حبّ الشفقة ولا عن حبّ التملّك، بل أدافع عن حبٍّ

ينهض من فائض القوّة. الحبّ الذي أتمسّك به هو فنّ قول «نعم» للحياة بكل ما فيها من ألم وتحوّل، لا ذريعة للهروب من الامتحان.

ليس الحبّ عندي نفيًا للألم، بل تثمينًا له. أقول دومًا في نفسي: أحبّ قدري. ما يحدث لي لا أتسوّل تغييره، بل أعمل على تحويله إلى مادةٍ للصعود. الجرح لا أخفيه، بل أصقله حتى يصير أثرًا لامعًا على الجلد. الخسارات دروس في الشجاعة. أن أحب بصدق معناه أن أستقبل العالم كما هو من غير حقدٍ ولا تزيين.

هنا أصل إلى ما أرفضه: أرفض الغيرة والمرارة والخوف. هذه أعراض لقلبٍ يعيش على الفائض المستعار من قطيع يوزّع صكوك الفضيلة على من يشبهه. الحبّ الذي أدافع عنه لا يعرف الضغينة، بل يحول الانفعالات كلها لتكون سببًا في ازدهار من أحبّ. فإذا طالبتُ بحدود، فذلك لأنّ المسافة كلمةٌ لا تُهين، ولأنها حدٌّ لا يُذِلّ، وفسحة تحمي الرغبة من استهلاك نفسها.

لا أريد أمنًا زائدًا يطفئ الشغف، بل أريد مغامرةً تخلق في داخلي نجمًا راقصًا. كلُّ حبٍّ لا يعرّضني لزيادةٍ في الحياة يهبط بي إلى ركودٍ مؤدّب. لذلك أفضّل اختبار الطريق الصاعد على النوم في ظلّ السهل، أفضل أن أستثمر الألم ليغدو قوّةً مُهذّبة، وأن أستثمر الفرح ليغدو أسلوبًا في الكرم لا نشوةً عمياء.

الحبّ عندي مسألة أسلوب أيضًا: كيف أمنح النارَ شكلاً؟ لا أُؤمن بالوعود الصاخبة، بل أُؤمن بالوفاء الهادئ الذي يتكرّر. ما ينفجر سريعًا يخبو سريعًا، وما يُتْقَن على مهلٍ يبقى. لذلك أختار وضوح القول على المجاملة والادّعاء. أحبّ حين أستطيع أن أرى نتائج حناني في صمتٍ: شجاعةُ الغير تكبر، وحرّيته تزدهر، ونبرته تصير أكثر صفاء.

سيُقال لي: أين الشفقة؟ أجيب: الشفقة التي تُبقي الضعفَ ضعفًا ليست رحمةً بل هي إدمان على الهبوط. الرفق الحقيقي هو أن أرى

في الغير إمكانيته العليا فأدعوه إليها: لا أُعظّمه فيتضخم، ولا أُهينه فينكمش. إنّ الحبّ الذي أرتضيه يرفض أن يصنع من التعلّق قفصًا، ومن الحاجة فرصة للإخضاع. إنّه يُطلق الطاقة ويهذّبها في آن، يعلّم الجسدَ ذاكرةَ الحرية، ويعلّم الروحَ بهجةَ الانضباط.

لهذا كلّه أطلب براءة الحبّ الذي يقول نعم للحياة، ذلك الحب الذي يبذل كل جهد ليخفّف الألم، وليحوّل المرارة إلى طاقة. أنا لا أتّهم الحب الذي تحاكمونه بادّعاء أنه تسبّب في ما جاء في الاتهام، بل أتّهم الحب الآمن الذي يقوم على التملّك، الحبّ الذي يُقزّم المحبوب ويُطفئ ما فيه من اشتعال. أمّا الحبّ الذي أفكر باسمه، أكتب باسمه، وأتكلم باسمه، فيصنع من الإنسان قوّةً رقيقة، ومن العالم مسرحًا يلعب على خشبته غير آبهٍ بالألم، بل يجعله مسرحًا لرقصة الحياة.

حين أنهى نيتشه مرافعته، غمر القاعة صمتٌ مفعم بتوتّرٍ شديد، كأنّ الروح التي عبّر عنها اختلطت بأصداء انفجار داخلي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مرافعة كارل يونغ

ينهض رجل عيونه تشع هدوءًا، وجسده يوحي بالحيوية بينما على وجهه الهيبة الأكاديمية. يقترب من منصة الدفاع، ويتكلم كمن يهمس من مكانٍ عميق:

أنا كارل غوستاف يونغ، لستُ شاعرًا ولا قديسًا ولا متمردًا، بل مجرد رحّالة أتجوّل في كهوف النفس البشرية.

تتحدثون عن الحب كما لو أنه قوة خارج الإنسان، تتسلط عليه، تقتحمه، ثم تسكن فيه. بينما أرى أن الحب مرآة للظل القابع في أعماق اللّاوعي.

كل محب يبحث في الغير عمّا يفتقده. فيكون الحب انكشافًا، نزولاً إلى كهوف النفس العميقة قبل الصعود بكنوز نفيسة، وجروح موجعة.

ليس الحب مجرد غريزة، بل لقاء رمزيٌّ بين الأنيموس والأنيما، بين الذكر والأنثى الكامنين داخل النفس البشرية، كما أنه لقاء أيضًا بين الظلال النفسية المخيفة والمخفية داخل كهوف النفس.

حين نقع في الحب فإننا لا نحب الغير كآخر، بل نحب فيه ما نفتقده في ذواتنا، ونحبه انطلاقًا من الظلال النفسية الكامنة في لا وعينا.

إن العنف الذي قد يتلذّذ به البعض خلال العلاقات الحميمة ليس سوى وسيلة لا واعية لانكشاف الكهف النفسي، حيث ترقد مشاعر العنف، الخضوع، السيطرة أو الإذلال، والتي نرفضها في مستوى الوعي والواقع، لكنها قد تنكشف في الفراش، فنظن أنها من الحب لكنها منّا نحن.

درس هام تعلمته من **محاورة المأدبة**، حيث أسطورة النصف الثاني كما أوردها أرسطوفان، وحيث كل واحد منّا يبحث عن نصفه الثاني

معظم الأوقات، لا يتوقف إلّا حين يهدأ هدير القلب تحت وطأة اليأس، لكن رحمة اليأس لا تصمد طويلاً أمام تطلّع كل من الجزء الأنثوي في الرجل والجزء الذكوري في المرأة نحو الرغبة السحرية في الاكتمال.

في **محاورة المأدبة** يفترض أرسطوفان أنّ الإنسان كان في أصله كائنًا مزدوجًا، يجمع في جسد واحد خصائص الذكورة والأنوثة معًا. غير أنّ الآلهة، عقابًا له على تمرّده وعصيانه، قامت بشطره إلى نصفين: جزء ذكوري وجزء أنثوي. منذ تلك اللحظة صار كل نصفٍ يجوب العالم بحثًا عن نصفه الآخر، وهو ما اصطلحت ثقافات كثيرة على تسميته بـ«توأم الروح».

يتدخّل ابن عربي:

نعم، إنها الأسطورة التي قرأتها في ضوء سرّ التوحيد؛ فخروج حوّاء من ضلع آدم لم تكن حادثة عابرة في جسد التاريخ، بل تجلّيًا لأمرٍ إلهيّ قديم، حيث انفصل الجزء الأنثوي عن الجزء الذكوري بعد أن سكّنا معًا في جسد واحد. وما كان الانفصال سوى صورة من صور التنويع في الوحدة، ليُظهر الحقّ تعدّده في الواحد، وواحديته في المتعدد.

ومن ثمّ، صار حنين الرجل إلى المرأة حنين الكلّ إلى بعضه، وصار حنين المرأة إلى الرجل حنين الجزء إلى كلّه. لكنّ الحنين في جوهره ليس شوقًا جسديًا فحسب، بل نزوع الروح إلى أصلها الأول، وطلبها الرجوع إلى مقام الوحدة التي كانت عليها قبل أن يُبدّدها القضاء الإلهي في صور متعددة.

فاللقاء بين الذكر والأنثى ليس مجرد انجذاب بين جسدين، بل عودة إلى سرّ البدء، وتذكير باللحظة الأولى حين كان الإنسان واحدًا، ثم شُطر ليشتاق، فكان الشوق سبيله إلى معرفة الحق. وهكذا يصبح الحبّ في معناه العميق تذكرة بالوحدة المفقودة، وبشارة بالوحدة المنشودة.

كارل يونغ مصدّقًا على ما قاله ابن عربي:

لهذا أؤمن أنّ الأساطير والديانات تُزوِّدنا بآلياتٍ فاعلة لفهم الظاهرة الإنسانية، متى أحسنّا تأويل رموزها. فالمبدأ نفسه الذي عبّرَتْ عنه تلك الحكاياتُ قديمًا على نحوٍ رمزيّ، تؤكّده علومُ الأحياء اليوم: في كلِّ رجلٍ «أنِيما» أنثوية غير مكتملة، وفي كلِّ امرأةٍ «أنِيموس» ذكوري غير مكتمل. ومن هذا التوتّر الخلّاق ينشأ مسارُ التفرّد والسعي إلى التكامل.

ممثلة النيابة العامة:

إلّا أنّ فرصة العثور على النصف الثاني المناسب نادرة، إلى شبه منعدمة. لأجل ذلك يقاسي معظم الناس في رحلة البحث عن الحب، وينتهي الكثيرون إلى خيبة الأمل. وهذا سبب إضافي لتأكيد أنّ الحب باعتباره جمع نصفين أمرٌ مستحيل ووهم.

كارل يونغ:

ما دام الرجل في الغالب لا يجرؤ على فهم الجزء الأنثوي الذي يسكنه، بل يتنكر له وينكره، مثلما ينكر جروحه المنسية وظلاله النفسية، ستكون مغامراته العاطفية سطحيّة مهما كثرت. كذلك المرأة التي لا تجرؤ على فهم الجزء الذكوري الذي يسكنها، ولا تفهم جروحها المنسية وظلالها النفسية، ستكون تجاربها العاطفية سطحيّة.

ثم يلتفت يونغ إلى ممثّلة النيابة العامة، ويكمل:

اجتماع النصف مع النصف الآخر ليس بالمعنى الحرفي، بل بمعنى الاكتمال، الذي هو رسالة الحب. رسالة الحب أن أساعدك لتكتشف نفسك بنفسك، لتكتشف حساسياتك الحسية والجسدية، ممكناتك الروحية والوجدانية، واحتمالاتك الكامنة في أعماق كينونتك. رسالة الحب أن أساعدك على اكتشاف طاقة الجنون في مخابئك الداخلية، لأنها تخزّن ممكناتك واحتمالاتك.

إذا لم أساعدك على اكتشاف ممكناتك الكامنة، واكتشاف تفاصيل المتع المختبئة في هذه الحياة العابرة، فمعناه أنني لا أحمل إليك رسالة الحب، بل مجرد انجذاب عابر أو تعلق وسواسي!

إن المعنى الحقيقي للاستغلال الجنسي هو أن أجعلك مجرد موضوع لي. يشبه الأمر حكاية النسر الذي عشق الدجاجة لتعفّفها عن الطيران! وبعد أن رافقها لبعض الوقت، اشتاق إلى أن يحلق في أعالي السماء، فحلق وحده. تلك هي حكاية الكثيرين والكثيرات!

إننا مسكونون بغرائز النسر وغرائز الدجاجة في الآن، فلا نعرف متى نكون هذا ومتى نكون ذاك. نبحث عن المغامرة ونريد منطقة الأمان، نأمل أن نذهب إلى كل مكان، ونتمنى أن يكون لنا مكان نمكث فيه.

إن السؤال الحقيقي، ليس لماذا أحببت؟ أو كيف أحببت؟ بل، ما الذي في داخلي كنت أبحث عنه حين أحببت؟ ذلك أن الحب ليس لقاء بين جسدين، بل لقاء بين رمزَيْن داخل نفسين مختلفتين.

سؤال الوقوع في الحب هو السؤال حول ما هي الرموز التي كنت في لا وعيي أسعى إلى استكمالها؟ حيث هناك رموز مشتركة تسعى إلى أن تتكامل: الجزء الأنثوي أو الذكوري غير المكتمل، نموذج الأم أو الأب المشروخ، إذ لكل واحد قصص لم تكتمل، انتظارات لم تتحقق، أحضان لم تتسع، وفراغات لم تمتلئ.

ثم يلتفت نحو الحب الواقف في قفص الاتهام، ويقول:

هذا الحب الواقف في القفص مرآة مزدوجة، نتركه أحيانًا يعكسنا كما نحن، لكننا كثيرًا ما نرغمه على أن يعكسنا كما نتمنّى أن نكون، إلا أنه حين يعكسنا كما نحن فإنه يساعدنا لنواجه ظلالنا الكامنة، تلك الأجزاء المهملة، المخيفة، الغاضبة، العطشانة دومًا إلى الضوء. فهل تدرون ما هي مشكلتنا معه؟

لقد تعلمنا أن نحب بإخفاء ما نحن عليه، وحين يسقط عنا القناع نتهمه بأنه يخذلنا، بينما كل ما في الأمر أنه لا يتحمل كذبنا.

لقد تعلمنا أن نحب من خلال التعلق بالصورة التي رسمها لا وعينا عن موضوع التعلق، وحين تنهار الصورة نشعر بالألم ثم نتهم الحب بأنه يخدعنا. غير أننا طالما لم نتحرر من الصورة فإننا لن نتعلم أن نحب شخصًا محددًا، كل ما نفعله أن نحب الصورة التي نصنعها في لا وعينا ثم نسقطها على موضوع خارجي.

لقد تعلمنا أن نحب من خلال التفنُّن في إخفاء تشوهاتنا، لكن لما اقتربنا من الحب ورأينا تشوهاتنا على مرآته اتهمناه بأنه هو سبب تشوهاتنا.

الواقع أننا لا نخاف منك أيها الحب، بل نخاف مما تكشفه عنّا، نخاف أن نعرف من نحن حين نقع في الحب، لأننا بكل بساطة نخاف من المجهول، وليس هناك مجهول أكبر من الذات. كما أننا نخاف من جروحنا المنسية.

سيدي القاضي، لا أتحدث عن سذاجة التعلّق ولا عن نشوة الافتتان، بل عن الحبّ كطريق إلى التفرّد، طريق يعيدنا إلى ذواتنا عبر الغير.

قد تقولون لي: إنّ الحبّ وهمٌ إسقاطيّ وتبعيّةٌ عاطفية ومنبع للألم. فأقول لكم: ذلك حين أعلّق على وجه من أحبّ ما ينقصني: رغباتي المكبوتة، آمالي المجهضة أو أحلامي المؤجّلة. لكنّني أتعلّم أيضا كيف أسحب إسقاطاتي. فإذا نجحت في ذلك، تحوّل الحبّ من قفص للهوَس إلى مرآةٍ للانكشاف، حيث أرى ظِلّي فأعرفه، وأرى الغير كذاتٍ أخرى لا كتمثالٍ لخيالاتي.

في أعماقي هناك أنيما/ أنيموس (أنثى باطنة/ ذكر باطن)، لا أريد أن أهرب منها. بالحوار معها يصبح الحبّ جسرًا بين الأضداد: بين العقل والوجدان، بين الحزم والحنان، بين الحرية والأحضان. هذا هو

الإيروس بوظيفته النفسية: قوّةُ وصلٍ تقرّبني من الذات، ومركز تنتظم حوله مكونات النّفس من غير استبداد جزءٍ بجزءٍ آخر.

لا أُنكر أنّ الحبّ يُوجِع. لكنّني أرى الألم مخاضَ تحوّل في أعماق الذات. لذلك أتدرّب على تحمّل توتّر الأضداد بدل الهرب إلى أقنعةٍ مطمئنة. علمًا بأن المعنى يتولّد من الصبر على التوتّر. من هنا يصبح الحبّ ناضجًا بالفعل: قربٌ بلا ابتلاع، ومسافةٌ بلا جفاء.

كما أدعو إلى التمييز بين الافتتان والحب الناضج: الافتتان استمرارٌ للإسقاط وهو يطلب الامتلاك، أمّا الحب الناضج فهو جهد يوميّ في تفكيك الإسقاطات، يمنح حدودًا آمنة ويحرس تفردي وتفرّد مَن أحبّ كي يزهر اللقاء بدل أن يلتهم أحدُنا الآخر.

لذلك ألتزم بعدد من الإجراءات العملية:

أُصغي لأحلامي وإشارات جسدي، أكتب حواراتي مع ظِلّي، أمارس صدقًا لا يجرح ورفقًا لا يُدلّل، أتعلم المسافة الطيّبة التي تصون الرغبة من الاحتراق، وأحوّل الغيرةَ إلى وضوحٍ واتفاق.

أختم متوجّهًا إلى هيئتكم الموقرة:

ألتمس براءة الحبّ باعتباره دربًا للتفرّد. بحيث يجعلني أُحبّ الغير كذات أخرى، وأسحب إسقاطاتي، وأتحمّل توتّر الأضداد إلى أن يتولّد المعنى، وأجعل من إيروس قوّةَ وصلٍ لا قناعَ امتلاك. عندئذٍ لا يعود الحبّ تهديدًا لعقلي ولا عبئًا على حريتي، بل القوّة التي توحّد شتات نفسي وتُخفّف قسوة العالم. ولهذا أطلب حكمكم بالبراءة.

أنهى كارل يونغ مرافعته، عاد إلى مقعده. عيناه بدتا كأنهما تسبحان في محيط داخلي لا ينضب من الأسرار.

مرافعة سيمون فايل

وقفت شابة في مقتبل العمر، نحيلة الجسم إلى حد الهزال، كأن جسدها لا يحتمل ثقل روحها، وجهها شاحب مع بياض قريب من الصفرة، وهالة من الشعر الأسود المجعد، وعينان عميقتان عليهما نظارة مستديرة. تقدّمت إلى المنصة وشرعت تتكلم بنبرات صوت هادئة:

إخوتي وأحبائي، أنا سيمون فايل، شاهدة على مآسي الإنسان، ناطقة باسم الألم، وباحثة في قلب العتمة عن بصيص المعنى.

لا أتكلم باسم أي نوع من الفلسفة، ولا باسم أي دين، بل أتكلم باسم الجوع الإنساني إلى المعنى. قد أبدو امرأة روحية غير أنني بلا عقيدة، قد أبدو امرأة قديسة غير أنني بلا كنيسة، قد أبدو امرأة فيلسوفة غير أنني بلا منظومة.

لا أريد أن أكون في أيّ قالب جاهز، لا أحب السير في طرقات مرسومة سلفًا، ولا أطمح إلى أن أشبه أي أحد، بل دوري أن أصغي لأوجاع العالم، لآلام الغير، ولصمت الله. ومن خلال هذا الصمت أصغي إلى كل ألم بلا صوت ولا كلمات.

وإذا كنت أقف في صفّ الفلاسفة فإن الفلسفة عندي ليست موضوعًا أدرسُه في قاعات الدّرس، بل تجربة تعاش كما يعاش الجوع والتعب والصلاة.

تقولون: إن الحب مذنب لأنه يجلب البكاء والحزن، ويجعل قلوبًا كثيرة تنكسر بلا عزاء، وكثيرًا ما يترك الذين ينتظرونه في صقيع وعراء.

لكنني أقول لكم بكل بثقة: من يخاف من الألم لن يعرف الحياة، لن يعرف الإنسان، ولن يعرف الله في النهاية.

لا يوجعنا الحب لأن فيه شيئًا خاطئًا، بل لأنه يضعنا أمام الحقيقة: إننا

ضعفاء، ناقصون، زائلون وخائفون. وإننا نتوقع من المطلق أن يحضننا في عالم زائل.

أعرف الألم جيدًا، فهو أنواع. إلّا أنّ ألم الحبّ لا يشبهه أي ألم آخر. ألم الحب لا يأتي من الخيانة أو الفقد فقط، بل يأتي من فعل الحب نفسه، يأتي من التعلّق، الشوق، الغياب، الخوف، العجز والرغبة في الاقتراب أكثر من حدود الممكن. بهذا النحو يكشف الحب جروحنا الوجودية.

ليس مطلوبًا من الحب أن يمنحنا القوة كما يرى نيتشه، بل المطلوب أن يُظهر حاجتنا المتوترة إلى الغير: كيف يمكن لشيء بسيط مثل نظرة أن يربكنا؟ من هنا يكسر الحب غرورنا ويرغمنا على التواضع.

لم يأت الحب ليمنحنا القوة، بل ليُمزّق الحجب بيننا وبين أنفسنا، وليرينا ذواتنا كما هي في كامل عريها، بخدوشها وكسورها. لهذا السبب نخافه ونتهمه، وفي النهاية نريد أن نحبسه في زنزانة انفرادية أو ننفيه إلى عوالم الأدب والأساطير.

الحب الحقيقي لا يطلب شيئًا، لا يطالب بشيء، إنه لا يشكو ولا يشتكي من أي شيء. إنه حضور خالص، وفي حضوره يصنع في الأنفس ما لا يصنعه شعور آخر. إنه مثل الماء الجاري الذي لا هدف له سوى أن ينساب بلا هدف محدد، لكنه في الطريق يرسم الضفاف ويجعل الأرض تزهر.

تقولون: الحب يجلب الشقاء. فأقول: الذي يجلب الشقاء هو الاعتقاد بأن الحب يتطلب القدرة على إثبات الذات. وهذا مجرد وهم يُدمر الحب، ويجلب الخيبة.

الحب ليس إثباتًا للذات، بل هو تنازل طوعيّ عن إثبات الذات. الحب يجعلني أوجَد أقَلّ لكي يوجد الغير أكثر. فهذا ما فعله الإله نفسه كي يوجد العالم، حين قرر أن يوجد أقل ليوجد العالم أكثر.

الحب صلاة لأجل الغير. إنه اللحظة التي يقول فيها أحد للآخر: أُصلي لأجلك.

لا أنكر أن معركة إثبات الذات هي المحرك الأساسي لعلاقات التجاذب والتنافر بين البشر كافة، وفي مختلف مناحي الحياة. والواقع أن معركة إثبات الذات بقدر ما ساهمت في الإبداع والاكتشاف والاختراع، أشعلت أكثر الحروب والفتن شراسة.

لكن الحب تَحدٍّ من نوع آخر:

الحب بمعناه الأكثر أصالة هو العلاقة الإنسانية الوحيدة التي يتخلى فيها الإنسان طوعًا عن الحاجة إلى إثبات الذّات ليصقل القدرة المعاكسة على نفي ذاته لأجل الغير الذي له وجه خاص، ونظرات خاصة. علمًا بأنّ مهارة نفي الذات هي القدرة الحقيقية التي نحتاج إليها في معظم معارك الحياة.

معضلة «البُعد الذكوري» هي التعامل مع الجنس كفرصة لإثبات الذات، لا سيما في المجتمعات الذكورية، حيث تصبح المغامرات الجنسية مناسبة للتعويض عن علاقات الإهانة: أنت الأول، الأفضل، الأفحل، إلخ. لعلها عبارات ممتعة في اللّعبة الإيروسية، إلّا أنّ الإصرار على إثبات الذّات ينسف الحب، الذي هو لعبة من نوع آخر، إنه لعبة التواضع.

الحب الذي يطلب منك إثبات ذاتك ليس حبًّا، بل علاقة سلطة باسم مستعار.

الإصرار على إثبات الذات يُعطل النموّ. لذلك لا يطلب الحب من العاشق إثبات ذاته، بل مواصلة نموه.

الحب الحقيقي هو أن تعانق معشوقك من دون أن تضيّق عليه الخناق، بل تجعله يشعر بسعة الكون اللّامحدود بين أحضانك. ومن ثم يردّ إليك في الحال ما تمنحه له. إنها لعبة الحب بالمعنى الأكثر نُبلًا وحنانًا. هي لعبة الله إذًا.

نيتشه (ساخرًا):

وهل ترين في المسيحية خلاص الحب؟ إنّها حين تمجّد آلام المسيح تدعو إلى كراهية الحياة. وإن هذا لهو المرض الذي ينبغي أن تشفى منه أوروبا.

فايل (بهدوء الصلاة):

الألم يكشف جوهر الحب. أن تحب معناه أن تكون حاضرًا في ألم الغير.

نيتشه (يقف ويرفع نبرة صوته):

لكن الإنسان خُلق ليرتقي، لا لكي يُسحَق تحت نظرات الشفقة. الحب إن لم يكن اختيارًا بطوليًا للسمو فإنه يصير مجرد عبودية تتخللها أشكال من القسوة والعنف والرغبة في تدمير الذات.

فايل:

إن لم يكن الحب رحمة فإنه يصبح مجرد احتلال. أنت ترى في الحب ارتقاء الذات على نفسها، وأنا أرى في الحب انحناء الذات نحو غيرها. أنت ترى أن الحب يقف في أقصى حدود الذات، وأنا أراه يقف عند عتبة الغير.

نيتشه:

كيف يكون حبًا إن لم يكن نداء نار، إن لم يشعل الحبيب كما تشعل الصاعقة شجرة جافة؟!

فايل:

بل الحب بسمة خفيفة لا تطلب شيئًا، كل ما تفعله أنها تلامس وجنة العالم قبل أن يُقدَّر لها أن تختفي. الحب ليس ذوبانًا للذات في الغير ولا

تذويبًا للغير في الذات، بل همسًا يقول، كن كما أنت وسأظل أراك. ليس الحب امتلاكًا بل انفتاحٌ، ليس نداءً صاخبًا بل صمتٌ ممتلئٌ بالمعنى.

نيتشه:

الصمت موت سريري للغة. بينما الحب يحتاج إلى مجابهة لغوية، إلى أن يقال، «أحبك لأنك تكمّلني».

فايل:

أحبك لا لأنك تكمّلني، بل لأنك تكشف هشاشتي، وتصالحني معها. الحب يا فريديريك هو أن تراني كما ترى السماء: شاسعة، حرة، غير قابلة للامتلاك.

نيتشه:

الحبّ؟ هذه الكلمة تُستعمل كثيرًا لتبرير العجز. الحبّ القادر هو فيضُ قوّةٍ تُنْتِج وتخلق، لا ذريعة لكي نتدلّى على كتف الغير. أفضّل حبًّا يرفعُ منسوب الحياة على حبّ يوزّع الشفقة كمسكّنات.

سيمون فايل:

الشفقة الرخيصة إساءة للحب وللإنسان، أتّفق معك. لكنني لا أسمّي الحبّ قوّةً تُغِير على الأشياء، بل **انتباهًا نقيًّا** يسمح للآخر أن يكون. الحبّ لا يقول: «أنا أريدك بقوة»، بل يقول: «أنا أراك بقوة».

نيتشه:

«أنا أراك بقوة»، قد تكون صيغةً مُكرّسة للسلطة أيضًا. من يرى هو من يُحدِّد. حين نُحبّ، نميل إلى الامتلاك. لا أثق بالمحبّة التي تُخْفِي إرادةَ التملّك وراء ألفاظ الدفء. إنني لا أزال أبحث عن ذلك الحب الذي يحمل إرادةَ التجاوز: أن أصيرَ أصلحَ مما كنت، أعلى مما كنت، أجرأ مما كنت. ذلك الحبّ الذي يوقظ الإرادة لا يخنقها.

سيمون فايل:

هناك فرق بين إرادةٍ تخلق حياةً أوسع، وإرادةٍ تتضخّم على حساب الآخرين. الحبّ عندي يجرّد الذات من تضخّمها كي يتّسع المكان للغير. أسمي ذلك نزع التمركز. ليس استسلامًا، بل عدالة للواقع: أن لا أجعل غيري أداة لصورتي عن نفسي.

نيتشه:

تسمّينه عدالةً، وأسميه خطرَ الترَهُّل. مَن يذوب في الغير يفقد صلابة تكوينه. الإنسان الأعلى لا ينصهر، بل يَمنح. هناك فضيلةٌ أحبّها بالفعل: فضيلة العطاء. لكن العطاء القويّ لا يُعطى بدافع الذنب، بل بدافع الفرح. الحبّ الذي يولد من ضيق الضمير يلد عبيدًا.

سيمون فايل:

الحبّ الذي يولد من نشوة القوة قد يلد طغاةً. لهذا أشدّد على أن أعلّق رغباتي لحظةً لأرى الآخر كما هو، لا كما أريده. حين أرى بإنصاف، يهبّ الحنانُ تلقائيًا، لا كشعورٍ مُستعرِض، بل كمسؤوليةٍ دقيقة.

نيتشه:

الحنان! لطالما خِفْتُ من الكلمات التي تجعل العضلاتَ الأخلاقية ترتخي. لكن ثمّة حنانٌ نبيل: حنانُ القويّ الذي يضبط نفسه كي لا يسحق الهشّ. ذلك حنانُ السيّد على نفسه. أمّا الحنان الذي يتسوّل الاعتراف فمحضُ إرهاق.

سيمون فايل:

نتفق هنا، ضبطِ النفس شرطُ الحبّ. غير أنّني أرى الضبط كنوعٍ من الصوم الداخلي: أُمسك ذاتي عن احتلال العالم. عندما لا أحتلّ العالم، أكتشف أنّ الآخر ليس عقبةً أمامي بل كلمةٌ أخرى للحقيقة.

نيتشه:

أراك تتكلّمين بلهجة القدّيسين. أما أنا فأفضّل لهجةَ الحِرَفيّ الذي يصقل قيَماً جديدة. الحبّ عندي هو ولادة، حيث نُقحمُ في العالم أشكالاً أجرأ من الصداقة والفنّ والوفاء. لا أبحث في الحبّ عن المواساة، بل عن الهيام بالمصير. يمكنك تسميته إن شئتِ: أَحِبَّ قَدَرَكَ.

سيمون فايل:

وأنا أسمّيه: تقبُّل الواقع، لا كاستسلام بل كممارسة للعدالة. أوافق على ما هو كائن لئلا أزيد البؤس بتمرّدٍ أعمى. ثم أبحث، بهدوءٍ عميق، عمّا يمكن أن يُصلح. الحبّ لا يطلب من الألم أن يبرّر نفسه، ولا يجعل من ألم الآخرين مسرحًا لرياضتنا الروحية.

نيتشه:

هنا نفترق. الألم مدرسةٌ للعلوّ. لا أثق بسعادةٍ لا تكلّف شيئًا. الحبّ الذي لا يُحتملُ الألم لأجله حبٌّ على المقاس.

سيمون فايل:

الألم يُعلّم إن كان واقعًا عليّ، لكنّه يصير توحشًا إن جعلتُه اختبارًا للآخرين. قانون الحبّ الأول يقول: «لا تضف وزنًا على من سحقه الثقل أصلاً». سمّيتُ ذلك يومًا، بالشقاء، وهو شيءٌ أعمق من الألم، إنه انهيارٌ يُعطّل النفس. هنا لا يكون الحبّ بطولة، بل وفاء صامتًا.

نيتشه (يبتسم قليلاً):

وفاءٌ صامت... لا بأس. ولكن ماذا عن الغيرة والتملّك والرغبة؟ هذه ليست أخطاءً عرضيّة في الحبّ، بل هي محرّكاته. تُريدين حبًّا بلا مخالب. وأنا أقول: من يجرؤ على الحبّ يجرؤ على الجرح. المهمّ أن يُحَوِّل الجرح إلى أسلوبٍ للارتقاء، لا إلى قيد للانحطاط.

سيمون فايل:

الرغبة ليست خصمًا للحبّ، لكنها تحتاج إلى تربيةٍ لئلا تتحوّل إلى نوع من التوحّش. حين أصغي للآخر، تقلّ شراهة الامتلاك. على أن الانتباه يُبعد الوهم عن الرغبة، فتصير قابلةً للعطاء بدل الاستحواذ.

نيتشه:

وهل العطاء ممكنٌ بلا مسافة؟ أحببتُ دائمًا «حبّ البعيد»: أن نحبّ ما يدفعنا إلى الأمام لأنّه ليس في متناولنا. القربُ الغامر يفسد، ويحوّل العاطفة إلى رقابة. الحبّ يحتاج إلى هواءٍ بين جسدين وروحين.

سيمون فايل:

المسافةُ جوهرية بالفعل لكنها ليست ترفًا نخبويًّا. المسافة هي اعترافٌ بأنّ الآخر ليس أنا. حين أقول «أحبّك»، لا يعني «أريد أن أراك انعكاسًا لي»، بل «أوافق على وجودك المختلف عني». تلك المسافة تحفظ الكرامة وتسمح للحنان أن يكون هادئًا ومثمرًا.

نيتشه:

إذًا نلتقي عند نقطتين: ضبط النفس والمسافة. لكن يبقى سؤال: ما ثمرة الحبّ؟ إذا كانت الثمرة مجرّد راحةٍ أخلاقية فنحن في أخلاقيات القطيع. أنا أريد ثمرةً تشبه الفنّ، أسلوب حياة يُقاس بالشجاعة والبهجة وخلق المعنى.

سيمون فايل:

ثمرته بالنسبة لي عدالة ملموسة تُقلل الألم والقهر في العالم ولو بقدر ضئيل ومحسوس. الحبّ في صورته العليا، يجعل الآخرين أكثر واقعيةً في نظرنا، ومن يرى الواقع بوضوح سيتحرّك بإنصاف. الفنّ الذي لا يُنمّي حس العدالة وهم جماليّ، والعدالة التي لا تعرف الجمال قساوة عمياء.

نيتشه:

جميل. فلنقل ما ينبغي قوله بلا تحفّظ: الحبّ الرفيع يُنتج نمطَ وجود حيث الجمال والعدل يتنفّسان معًا. أمّا الحبّ الوضيع فإنه يضع في الواجهة شعاراتِ التضحية، لكنه يخبّئ تحت الطاولة حساباتِ السيطرة.

سيمون فايل:

وأنا أضيف: الحبّ الرفيع يُخفِّض من ضوضاء الأنا حتى تستطيع الحقيقة أن تُسمع. عندها يصير الفرحُ ممكنًا بلا نشوةِ سيطرة، والرحمةُ ممكنة بلا إهانة.

نيتشه:

أن نُحِبّ يعني أن نُخضِع قوّتنا لامتحان الكرَم، وأن نرفض أن نصير عبيدًا لضعفنا. نخلقُ معًا شيئًا يستحقّ أن يُعاش، ولا نستعبد من نُحبّ باسم هذا الشيء.

سيمون فايل:

أوافقك تقريبًا على ما قلت وأضيف: أن نُحِبّ يعني أن ننظر حقًّا، نظرًا يَحفظ المسافة ويُدفِّق الرحمة، حتى لا نزيد العالم ثِقلًا. ما يعني أن نمتلك نفسًا متيقّظة، وقوة مهذبة.

نيتشه:

قوة مهذبة.. عبارة حسنة. دعيني أسمّيها: «تهذيب المطرقة».

سيمون فايل:

وأنا قد أسمّيها: «عدالةُ الرحمة».

يتدخّل القاضي لوقف هذه المناظرة موضحًا أنها على أهمية ما يُقال

فيها، طالت أكثر مما يسمح به وقت المحكمة، ويطلب من سيمون فايل أن تنهي دفاعها.

تلتفت فايل إلى القاضي:

سيدي القاضي، يمكنني أن أبسُط أمام محكمتكم الموقرة رأيي في النهاية من خلال أربع نقاط تنسجم مع نبضات العدالة حين تخدم الحياة!

نقطتي الأولى، الانتباه:

حين أُحبّ حقًّا، أتعلّم فنّ الإصغاء حتى في الصمت. أعلّق أحكامي، أُسكِت «الأنا» قليلًا، لكي أرى جيدًا. فالحبّ ليس امتلاكًا لما قد يُريحني، بل استعداد للإنصاف: أن أسمح للآخر أن يكون هو، لا أن يكون مرآتي. هذا ما أسميه خفض الأنا، إخلاء موضعي من رغبة السيطرة كي يمرّ الخير عبري بلا تشوّه.

النقطة الثانية، العدالة:

وهي الانتباه العميق والهادئ إلى وجه المظلوم. أعرف أنّ العالم محكومٌ بقانون الضرورة وثقلها، وأنّ المحنة ليست وهمًا. لكنّ الحبّ لا يفسر ألم الآخر ولا يبرّره، بل يحمل جزءًا منه. أن تسأل الذي يتألم: «ما الذي تعاني منه؟» ثمّ تنتظر الجواب. هذا، في ميزاني، أصدق من كل البلاغات. الحب ليس وعدًا بإلغاء الشقاء، بل وعدٌ بألّا يزيده، وبأن يفتح نافذةً للعدل حين تغلق القسوة كلّ الأبواب.

نقطتي الثالثة، المسافة الجسر:

أن نحبّ القريب كقريب، لا كشيءٍ نريد أن نبتلعه. المسافة يجب أن تكون اتفاقًا على مسافةٍ تحرس الحرّيّة وتتيح اللقاء. المسافة ليست برودًا، بل إنّها الشكل الذي يَسَع الحبّ ويصونه من الاستهلاك. ما يُقربنا حقًّا ليس الالتصاق، بل جسرٌ من الانتباه يُبنى كلّ يوم.

النقطة الرابعة، الواجب قبل الحقّ:

لا معنى لحقوقٍ لا تجد قلوبًا تلتزم بواجب رعايتها. واجب المحب ألّا يجرح، ألّا يُهين، أن يعطي الجائع، وينصت للمهمَّش، ويستر على من انكشفت حاجته. إن لم ننطلق من واجب الحبّ، تظلّ الحقوق كلها مجرد ألفاظ جميلةٍ في هواءٍ ملوث.

لا أدّعي أنّ الحبّ يلغِي القسوة، بل أزعم أنه يشق في القسوة ممرًّا للنور. وإذا كانت ثمّة تهمةٌ تُرمى على الحبّ لأنّه يجرح، فأنا أشهد أنّه يجرح ليوقظ العقل من كبريائه، والقلب من شراهته، واليد من قسوتها العمياء.

لذلك كله، أطلب الحكم ببراءة الحب، لا لأنه بلا عيوب، بل لأنه وحده ما يجعل عيوبنا قابلة للغفران.

كان الصمت يعمّ القاعة التي خيّم عليها هدوءٌ مشحونٌ بالاحترام والتأمل العميق. وقفت سيمون فايل لوهلة قصيرة كأنها تمنح كلماتها فرصة لتستنشق الهواء. إلى أن تحرّكت بهدوء ذلك الصمت، ونظرتها مفعمة بالمقاومة والحنان.

مرافعة حنّة أرندت

تنهض امرأة في منتصف العمر، بقميص أبيض وتنورة قاتمة. تتقدّم لتقف على المنصّة وتنظر في الجمع من خلال نظارتيها الدائريتين، ثم تقول:

أنا حنّة أرندت، وُلدت في ألمانيا، لكنني لم أنتمِ إليها إلّا كما ينتمي الطائر إلى الشجرة ثم يُجبر على مغادرتها حين تهَب العاصفة. هربتُ من النازية، من المحرقة، من الشر إذًا، لكنّ ذلك السؤال:

كيف لإنسان يبدو سويًّا أن يتحوّل فجأة إلى آلة باردة للقتل؟ فتح أمامي باب أسئلة كثيرة.

لا أقدِّم أجوبة مطمئنة بل أسئلة مزعجة، لأنّني أراهن على عدم توقف التفكير، وأؤمن إيمانًا راسخًا بأن التوقف عن التفكير هو المنبع الأول للشر.

سيدي القاضي، سادتي الحاضرين، زملائي الفلاسفة، لقد شهِدنا مناظرة بين عقلين قدّما لنا متعة وأفكارًا تجعلنا نتوقف عندها.

من جهتي لستُ هنا لأدافع عن الحب بوصفه جنة رومانسية أو ملاذًا من قسوة العالم، بل أدافع عنه بوصفه فعلًا ثوريًا.

فداخل مجتمعات الضبط الجماهيري الحديثة (مثل النازية والستالينية)، حيث الإنسان مجرد رقم يمكن استبداله، يمثل الحب فرصة كي يُرى الإنسان لا كمجرد وظيفة أو هوية اجتماعية، بل كوجود في ذاته لا يمكن استبداله.

وفي زمن التقنية اليوم، حيث الأرقام يمكن تعويضها بأرقام، وحيث المقاييس يمكن استبدالها بمقاييس أخرى، وحيث كل الخطوات قابلة للتكرار، وحده الحب يذكّرنا بتفرد كل إنسان.

من دون الحب يبقى الإنسان مجرد أداة، كتلة، رقم، وظيفة أو وسيلة كسائر الوسائل.

الحب هو أن تقول للآخر: أنا أنظر إليك لا كوسيلة تنفعني ولا كمرآة تعكسني، بل كغاية. وهو ما تعكسه المعادلة الآتية: «أريدك أن تكون معي، لأنني أريدك أن تكون». هذا الشعور لا يحدث لنا دومًا، وهو ما يجعل الحب حدَثًا بالفعل، بل قد يكون هو الحدث الأكثر ثورية في زمن الأنانية.

لقد رفع نيتشه من مقام الحب حتى جعله تمرينًا للعظَمة، لكنه لم ير كيف يلبّي الحب تلك الحاجة البشرية البسيطة في أن نكون مرئيين في عين أحدهم بدل أن نكون خارقين في أعين الجميع.

إذا كان الإنسان كائنًا ناطقًا، فالحب هو اللغة التي يقول بها الإنسان: نظرتك إليّ تقول لي: «أنت لست وحدك»، ونظرتي إليك تقول لك: «أنت لست وسيلتي». بهذا النحو نكون أنا وأنت ذاتين جديرتين بأن نوجد، وبأن نلتقي.

إن كنت أدافع عن الحب فذلك لأنّه يمنحنا أداتَيْن تُصْلِحان أفعال البشر:

الأداة الأولى، الوعد: حيث نواجه عدمَ التوقّع في الزمن، ونبني ثقةً قابلةً للحياة.

الأداة الثانية، الغفران: حيث نعالج ما لا يعالَج، ونفسح مجالاً لبدايةٍ جديدة.

تدير حنّة نظرها نحو مكان جلوس الفلاسفة وتتوقف عند سيمون فايل لتقول:

أما أنتِ يا سيمون، فلا يمكنني أن أخفي قلقي من نزعتك إلى محو الذات باسم العشق الإلهي. حين يُصبح الحب موجَّهًا إلى المطلق، إلى الله حصرًا، فإنه قد يقصي غير الله، وبالتالي يقصي الغير. حب كهذا ليس علاقة بل إلغاء للعلاقات.

سيمون فايل (مقاطعةً):

بل هو تعميق للعلاقات... حين أحب الله فإنني أنفتح على كل كائن متألم، مهمَل، مجهول، غامض، غير مرئي، إلخ. العشق الإلهي لا يقصي بل يعلمنا أن ننتبه دون أن نسعى إلى التعلّق، وأن نحب دون أن نسعى إلى التملك.

حنة أرندت:

لكنك وقتها لا تُحبين الآخرين كآخرين، بل كمرايا لله، أليس في هذا إنكار لفرادتهم بنواقصها ونقائصها؟

فايل:

أن أرى في كل إنسان أثرًا إلهيًا فهذا لا ينفي الإنسان، بل يقدسه.

أرندت:

لكن التّقديس يُخرجنا من العالم، وبالتالي يُخرج الحب نفسه من العالم. إنّ هذا العالم يُبنى عن طريق المشاركة، الكلام، المخاطرة، المنازعة، أما عشقك الإلهي فهو صلاة صامتة، وبالتالي انسحاب من العالم.

فايل:

بل هو الحضور في أعمق معانيه. حين أحب الله فأنا أحب كل التفاصيل التي لا تُرى، أو لا يراد لها أن تُرى.

أرندت:

لكن العشق الإلهي لا يعترف بالتعدّد طالما الله واحد، وهذا المبدأ خطر على الحضارة، طالما قد يُشرعن الاستبداد والشمولية. فكيف يمكن للوحدانية الإلهية أن تبرر التعددية السياسية؟

فايل:

بل وحدة الله دليل على أن الوحدة هي جوهر الوجود، ومبرر كاف لعدم الخوف من التعدد.

ابن عربي:

لهذا بالضبط أنشدتُ:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن دينه إلى ديني دانيًا
لقد صار قلبي قابلاً لكل صورة فمرعى لغزلان ودير لرُهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني.

يتدخّل رئيس المحكمة مرة أخرى طالبًا من حنة أرندت أن تكمل دفاعها وعدم الدخول في مناظرات لا يُتاح لها وقت المحكمة.

حنة أرندت:

لن أطيل عليكم، وسأكتفي بتقديم خلاصتي أمام هيئتكم الموقرة، فأنا إذ أطالب ببراءة الحبّ ألفته إلى ضرورة أن يحفظ المسافة ويصون التعدّد، فهكذا نُبعد الأوهام والوعود الكاذبة، بل نجعل من الوعد والغفران ركيزتين لاستمرار العيش المشترك.

عادت حنة أرندت إلى مقعدها، وقد بدت غارقة في ذكرياتها، فهي عرفت الحب في تنوّعاته.

مرافعة إيمانويل ليفيناس

ينهض رجل نحيل البنية، شعره مسرح إلى الخلف، وفي عينيه بريق تأمّل لا ينطفئ. يتقدم نحو المنصة، ويشرع في الكلام بصوت منخفض وبطيء:

وُلدت في بلد لم يعد موجودًا على الخارطة. من هذا الاختفاء تعلمتُ أن الأرض تخضع لكل أشكال المقايضة والتسوية، فقد يختفي بلد لكن البشر يبقون.

أنا إيمانويل ليفيناس، خبرتُ أشد أنواع التعذيب شراسة قبل أن أنجو مرتين، مرة أولى نجوت من المحرقة حين أمضيت سنوات في أسوأ معتقلات النازية مجاورًا الموت، ونجوت مرة ثانية حين لم أرث مشاعر الكراهية والحقد. نجوت في المرة الأولى لأن ضربة الجلاد لم تقتلني، ونجوت في المرة الثانية لأنّني لم أرث قناع الجلاد.

الحب كما أفهمه، لا يولد من الحاجة ولا من النقص، بل من الانكشاف أمام الغير وجها لوجه، ذلك الوجه الذي لا يمكن امتلاكه، ولا اختزاله، ولا اختراقه. فليس الوجه مجرد صورة بل نداء.

الوجه هو النداء الذي يُخاطبني في عزلتي، يُقاطعني في أحكامي، يُوقف رغبتي في التملّك، ليقول لي: «هأنذا أمامك وجهًا لوجه. لا تمرّ بي كأنني غير مرئيّ. لا تتجاهلني كما تتجاهل حجرًا في الطريق».

في اللحظة التي أحب فيها، لا أكون إزاء مجرد رغبة، بل التزام. أكون قد التزمت بشخص ليس أنا، ولا يُشبهني، ولا يمكنني أن أحكم على شكل وطريقة وجوده انطلاقًا من معاييري الخاصة، رغم ذلك أختار أن أكون مسؤولاً عنه.

الحب ليس حاجة كما يقول أفلاطون، وليس رغبة كما يرى سبينوزا، بل مسؤولية.

قد يقول قائل: الحب بهذا النحو مجرد ضعف. فأقول: إن لم نضعف أمام وجه الغير، فمعناه أن ضميرنا ضعيف في الأساس. فما الأفضل، أن تعيش ضعيفًا أم تعيش بضمير ضعيف؟ على جواب هذا السؤال تتوقف أمور كثيرة في الحياة، أبرزها النظر إلى الحب.

أيها الحضور الكريم، إن لم يُنقذ الحب العالم، فإنه على الأقل يمنعه من أن يتحوّل إلى سجن بارد. الحب لا يمنح حلولاً لكل المشاكل، لكنه يكشف أن الإنسان ليس مجرد مسألة تُحل، بل سرٌّ يُصان في كل الظروف.

لا يولد الحب من رحم التطابق، بل من رحم التباعد، ذلك أننا لا نحب من يُشبهنا، بل مَنْ يُخرجنا من منطقة الراحة، فيجعلنا أكثر انفتاحًا. الحب هو التراجع الطوعي عن السيادة الكاملة على الذات، ليجد نور الغير مكانًا في تلك الذات، في لعبة مفتوحة، من غير شروط مسبقة.

بهذا المعنى، لا أُدافع عن الحب، إلا لأنه يُجبرنا على تجاوز فلسفة القوّة، ولا يتركنا نختزل الإنسان في مجرّد وظيفة أو رقم، أدافع عنه لأنه يُعيدنا إلى حقيقتنا الأولى، إننا لا نوجد وحدنا، بل نوجد دومًا في مواجهة وجه آخر، وجه يطالبنا بالاعتراف به، وهنا يصبح الوعي بالذات لاحقًا على الوعي بالغير.

الحب هو ما يمنح للحياة عمقًا أخلاقيًا لا وظيفيًّا، هو ما يجعلني أُدرك أنني حين أقول «أنا أحبك»، فأنا لا أُعلن عن مجرد حالة انفعالية، بل أُعلن عن مسؤوليتي الكاملة أمام ألمك، أمام خوفك، أمام حزنك، أمام تعبك، أمام هشاشتك، وفي النهاية أمام ملامح وجهك التي لا يمكنني أن أتغاضى عنها.

أيها السادة، لا تُحاكموا الحب بمنطق العقل لأنه لا يُولد من العقل

البارد، ولا تُحاكموه بميزان المصالح لأنه لا يرضخ لحسابات الربح والخسارة، وإن كنتم لا ترون له من دور فأخبروني: كيف تحب أمٌ رضيعًا يُرهقها من دون يقين بما سيكون عليه في المستقبل؟ كيف ينتظر العاشق حبيبته رغم صمتها وغياب كل الضمانات؟ كيف يصمد إنسان في عالمٍ يتجاهله ما لم يكن قد ذاق مرةً معنى أن يجد من يحبه دون شروط؟

أنا لا أُدافع عن الحب دفاع شاعرٍ أو فنّان، بل لأنّني إنسان لا يحتمل أن يمرّ يوم دون أن يُناديه وجه الغير بالقول: «أنا هنا». وإذا كان على هذه الأرض ما يستحق عيشه، فهو تلك الرعشة العميقة التي نشعر بها حين ينظر إلينا الغير لا كموضوع، بل كذات، وكدعوة إلى الاعتراف، والتعاطف، والتواصل الإنساني النبيل.

في الحب نُصبح أخلاقيين بلا وصايا، متحضّرين بلا أوامر، مهذَّبين بلا حاجة إلى أي وعد أو وعيد، وفي النهاية نُصبح بشرًا حقيقيين لأننا نعترف بالغير مثلما نعترف بأنفسنا.

ممثّلة النيابة العامة:

هذا جميل، لكن السؤال نفسه لا يزال عالقًا، لماذا يوجعنا الحب؟

ليفيناس:

لكي تكون إجابتي واضحة، سأقترح خمس مقاربات:

أولاً، الحب التزام يصعب التراجع عنه:

في لحظة الحب، لا أعود أملك نفسي وحدي. في لحظة الوقوع في الحب أكون قد خرجت من ذاتي دون ضمانة للعودة. الحب هو أن أُسلّم نفسي لوجه الغير، أن أُصبح مسؤولاً عن مصيره من دون عقد، ومن دون توقّع أو انتظار، أن يبادلني الحب وفقًا لما أرجوه. وجه الغير قد يطلب، قد يأمر، قد يتوسل، لكنه لا يستطيع أن يُجبرنا على أي

شيء. مع ذلك لا أستطيع أن أرفضه من دون أن أفقد إنسانيتي. الحب لا يمنحني هامشًا للتهرّب، بل يُلزِمني على الفور، وبالتالي يتركني في حالة من الانكشاف العاطفي التام.

ثانيًا، لأن الغير لا يُمكن امتلاكه:

لا يمكن أن يقوم الحب على الامتلاك أو الذوبان، فالغير يبقى دومًا لغزًا لا يُختزل ولا يُفهم، حتى في لحظات القرب. وجع الحب ينشأ من الرغبة المستحيلة في التماهي، ومن التوق الدائم للاقتراب من شخص لا يُمكن الوصول إلى جوهره بالكامل. الحب لقاء بين فرادَتين لا تندمجان، ولهذا فإنّ الألم هو الثمن الذي ندفعه لكي يبقى الغير ذاتًا أخرى.

ثالثًا، لأن الحب يفتح جرح اللّامساواة الأخلاقية:

في الحب لا يكون الميزان متكافئًا على الدوام. في معظم الأحيان أحدنا يُحب أكثر، ينتظر أكثر، يتألم أكثر، وأنا هنا لا أنكر هذه اللامساواة المربكة. لكن أن أحب معناه أن أُصبح مسؤولًا عن غيري حتى في بعده أو غيابه، بل حتى لو لم يحبني كما أحبه. هذه المسؤولية الجذرية تُحدث تعبًا وجوديًا لا محالة، لأنها تُحمّل الإنسان أكثر مما يحتمل، وتُطالبه بأن يبقى وفيًا حتى عندما يُترك، أو يكون مهددا بالهجران.

رابعًا، لأن الحب لا يشفى من الزمن:

الحب يُقيم علاقة مع المستقبل، لكنه لا يتحكم فيه. هناك في الأفق على الدوام خطر الغياب، الفقد، الخيانة، الموت. من هنا يوجع الحب لأنه عرضة للفناء في أي لحظة، ولأنّ كل لحظة حب هي أيضًا لحظة خوف من ضياعه.

خامسًا، لأن الحب يُعرّي الذات من قشرتها:

الحب لا يُعاملني كهوية أو وظيفة، بل يواجهني في عمق «أناي» العاري، في عمق هشاشتي، وفي رغبتي العميقة بأن أُرى. هذا الانكشاف

مؤلم لأنه يُخرجني من أقنعتي، من دفاعاتي، من الأنا الصلبة التي كنت أُخفي فيها ضعفي. الحب يجعلني مكشوفًا بلا حواجز، وبلا ضمانات.

الحبّ الذي أدافع عنه لا يذيب المسافة، بل يحرُسها لكي يظهر الغير كذات أخرى.

قد تُسائلونني عن سبب تحمّل الألم الذي يجرّه هذا التكليف الذي لا يتطلّب منك كل هذا التخلّي؟ أقول، نعم، إنّه يُتعب «الأنا»، لكنّه يحرّر الإنسان من نرجسيّةٍ تصنع القسوة. الحبّ بهذا المعنى ليس عطرًا على عالم خشن، بل قانون يقظةٍ يكبح يدي ولساني وفكري عن تشييء من أمامي. وإن سألتم عن البرهان، فأحيلكم إلى الوجه ذاته: إنّه وجهٌ لا يعود بإمكاني التغاضي عن مسؤوليتي اتجاهه، ولا يمكنني التخلص منه أو قتله، ويجعلني مدينًا قبل أن أختار الدَّين... لذلك، يتم إخفاء وجوه المحكومين بالإعدام، لأجل إخفاء ما يقوله نداء الوجه: «لا تقتلني».

لهذا أقف وأقول: براءة الحبّ واجبة، لأنّ وجه الغير هو بمثابة نداء للحب.

توقف صوت إيمانويل ليفيناس لكن صدى كلماته ظلّ معلّقًا في القاعة، كما لو أن الغياب أثر للحضور.

مرافعة ميشيل فوكو

رجل حليق الرأس، يرتدي بذلة رمادية، يتكلم كأنه محقق في مشهد جريمة، يتقدّم إلى المنصّة بخطى ثابتة.

ينظر بثقة، ويبدأ الكلام:

أنا ميشيل فوكو، ابن القرن الذي عايش حروبًا وثورات وطرح أسئلة الحرية. لم أكتب لأنقذ العالم بل لأطرح الأسئلة التي تزعج كل أنواع السلطات: مَن الذي يحق له أن يحدد معايير ما نعرف وما لا نعرف؟ من الذي يحق له أن يُحدد معايير من يَسأل ومن يُسأل؟ ومن الذي يحدد معايير الحكم على من ينبغي له أن يكون متكلما ومن الذي ينبغي له أن يصمت؟

لا أبحث عن الحقيقة، بل أبحث عمّن يدعي امتلاكها، وكيف يستخدمها؟ وذلك لأجل أن أفضح آليات الادّعاء. فتَحَمَّلوا مروري إذًا!

تظنّون أنّ الحب مسؤول عن أفعاله، كما لو أنكم نسيتم أنّ الحب يُصاغ، يُراقب، يُخضَع، ويخضع لقواعد الضبط وآليات التحكم.

تظنّون أنكم تحاكمون الحب، لكنكم لا تحاكمون إلّا خطابكم عنه، لا تحاكمون إلّا ما سمحتم أن يُقال بخصوصه. إنكم لا تحاكمون الحب إلّا كما سُمح له أن يُعبَّر عنه، أن يُمارَس ويُراقَب.

تزعمون أن الحب يُسبّب الجنون، لكن من الذي يقرر ما الجنون؟

سادة المحكمة وقادة الحكمة، الحب لا يُسبّب الشقاء، بل المشكلة في الخطاب الذي يحاصر الحب، ذلك الخطاب الذي يفرض على الناس شكلًا واحدًا ومحدّدًا من الحب، فيرفض تنوع الحب، ويتجاهل تعقيداته، وينكر جنونه.

أنتم لم تتركوا للحب فرصة أن يكون حرًّا، بل ضيّقتم عليه الخناق من كل الجهات، وفرضتم عليه أن يتكلم بلغة واحدة وأسلوب واحد،

وبعد ذلك تكالبتم عليه لتحبسوه وتحاسبوه لأنه خان القالب الذي سُجن فيه.

الحب ليس مجرّد رابطة عاطفية تُنسج بين اثنين، ولا نزوة أو لحظة عابرة في رحلة الحياة، بل ساحة لمعركة تتصارع فيها الحرية مع السلطة، حيث يحاول الجسد أن يتحول من كائن خاضع للسيطرة إلى فاعل يمتلك إرادته.

هناك خلف الكلمات والأشياء، حيث تتشابك الشبكات الخفية للسلطة، وتتوارى أجسادنا وأرواحنا تحت ستر القوانين، التقاليد والضوابط الاجتماعية، يقف الحب كتمرد هادئ، كهمس مُقاوِم في زوايا القلب وبين ثنايا الجسد.

حين نحب، نرفض أن نكون أشياءً يُدار مصيرها في دوائر السلطة اللّامرئية، نرفض أن نجعل من رغباتنا أدوات طيّعة في يد قواعد المجتمع. الحب بهذا المعنى مقاومة لآليات الضبط والانضباط التي تفرضها النظم السياسية والثقافية على أجسادنا وعلاقاتنا العاطفية.

في لحظات الحب الحقيقية نختار أن نكون مختلفين، حيث نُعيد صياغة حياتنا كما نشاء، بعيدًا عن أنظمة القيَم التي تفرض علينا كيف نعيش وكيف نحب؟ ذلك أن الحبّ هو اللحظة الأكثر ذاتية في الذهاب نحو الغير، وهو تجربة تتخطى المألوف، تقلب الموازين، وتكشف عن أساليب جديدة في التعبير عن الذات.

لا أخفي أن الحب يحمل في طياته الألم، ليس فقط لأننا نُجرَح أو نخسر، بل لأن الحب يفتح فجوات في نظام الذات، ويعرّي جسدنا من تحصيناته. حين نحب، نكون عُرضة للانكشاف، للضياع، للتغيير، وهذا هو الثمن الذي ندفعه مقابل حريتنا الجديدة، حريّة أن نكون مكشوفين فلا نخاف الانكشاف، أكبر مسبّب للخوف.

الحب هو تلك اللحظة التي نُعيد فيها اختراع الذات، ونتحدى حدود الممكن، ونجعل من الجسد ساحة للتمرد والحرية.

أيها السادة، أيتها السيدات، لا أتحدث عن حب مثالي، ولا عن قصص أسطورية، أنا أتحدث عن الحب من حيث هو ممارسة جمالية وأخلاقية يومية، من حيث هو شكل من أشكال فن الحياة.

فنّ الحياة، هو مهارة أن نحب بشغف رغم الألم، بل جراء الألم، أن نحب رغم الخوف، بل جراء الخوف، فنّ أن نخلق ذواتنا من خلال لقاءاتنا المبهجة، حساسياتنا الجسدية ورغباتنا الدفينة، فن أن نُقاوم بالحب كل أشكال القيد والتقييد.

ذلك أن الحب هو المساحة التي تتحرر فيها الذات من عبودية السلطة، وتستعيد كينونتها بأسمى صورها. الحب مهما كانت صيغته، هو انتصار للرحمة على القسوة، للتآزر على التنافر، للمعنى على الجهل والتجاهل.

فلا وجود لحب يُبنى على الإكراه أو الاستغلال أو الإذلال. إذا كان الحب، مهما يكن شكله أو نوعه، يقوم على الرضا والمسؤولية والصدق، فما الذي يُخيف فيه؟

لا أحد يختار من يُحب. فالحب لا يتخذ شكل قرار نقرّره، بل هو انفعال أوليّ قبل أن يتحوّل إلى فعل، إلى توق يسبق اللقاء، انجذاب أولي من أعماق الكينونة يستعصي على التفسير، وبالتالي يستعصي على أي محاولة للتبرير.

ثم يصمت قليلاً قبل أن يواصل:

أنا الذي اتُّهمت باتّهامات شتّى، أعرف كيف تعمل السلطة حين تتخفّى في لغات الطبّ والأخلاق والسوق: تُحوّل الحبّ إلى ملفٍ قابلٍ للقياس، أو اعترافٍ دائم أمام سلطةٍ ما، أو منتَجٍ تُحدَّد له قوالب السلوك المقبول. هنا يصبح الحبّ آليّةَ تطبيعٍ ومراقبة. لذلك يذهب

دفاعي في الاتجاه المعاكس، أن نستعيد الحبّ بوصفه اختراعًا لأشكال عيش لا تنطبق على قوالب الانضباط.

أقول، إنّ كل علاقةٍ هي شبكة قوّة. هنا لا أشيطن القوّة، طالما أنّها حاضرة في كلّ تفاعلٍ بشري، بل كل ما أفعله أنني أراقب شكلها: هل هي هيمنة تُسكتُ أحدَ الطرفين، أم قوّةٌ قابلة للعكس يتبادل فيها الطرفان الحقّ في القول والتمرّد والانسحاب؟ حين يتعذّر قلبُ مواقع القوّة، وحين تستدعي المحبّة الطاعةَ بدل الرغبة، نكون قد انزلقنا من العناية إلى السيطرة.

الحبّ، في صيغته التي أرتضيها، مدرسةٌ يوميّة في العناية بالنفس: تمرينٌ على قول الحقيقة من دون إذلال، وعلى صمتٍ يحمي ولا يخفي، وعلى اقتصاد لذّة لا يقوم على الاستهلاك والتسليع. أقاوم جهاز الاعتراف الذي يجعل من رغباتنا سرديّةً إجباريةً أمام سلطةٍ تقيس وتُصنّف، وبدل ذلك أفضّل معرفة الجسد بذاته، وطقوس الحنان الصغيرة التي تُهذّب الرغبة بدل أن تُحاصرها.

بهذا المعنى، الحبّ ليس حجّةً لتبرير العنف العاطفي ولا ذريعةً لشرعنة القهر الأخلاقي، بل أسلوب في الحرّيّة، حيث يمكنني أن أخفّف المراقبة، وأُحوّل القدرة إلى رعاية، وأجعل من العلاقة جماليّة وجود تُصاغ على مهل، ومسافةً تحمي الرغبة من استهلاك نفسها بنفسها.

الحبّ الذي أدافع عنه، هو تلك الممارسة التي تُعيد للذات سيادتها وللآخر صوته، وتمنح للعالم شكلًا أرحب كي نعيش فيه، لا بإلغاء القوّة، بل بتأديبها وتحويلها إلى رعاية.

حيث تتكاثر الحرّيات ويتراجع العنف، هناك فقط يُثبت الحبّ براءته.

لا أطلب منكم أيّ شيء، ولا أمنح لنفسي الحق في مطالبتكم بأي

شيء، لكنني أعيد تذكيركم بما لا يخفى عنكم، إذا أنتم أصدرتم الحكم ببراءة الحب فإنكم ستؤكدون استقلالية المشاعر الإنسانية عن حسابات العقل الضيقة.

حين أنهى ميشيل فوكو مرافعته، لم يكن في صوته ما يدل على انتصارٍ أو هزيمة، بل هدوء من قدَّم تقريرًا كافيًا.

مرافعة بيتر سلوتردايك

يتقدم من المنصّة رجل متوسط القامة، بلباس رسمي أنيق، له شارب كثيف وعريض، وبنية تميل إلى الامتلاء قليلاً. يمشي بخطوات هادئة لكنه يحمل في عينيه سخرية العارف. يركّز نظره في الجمهور ثم يبدأ في الترافع بصوت جهوري ونبرة ساخرة:

يصعبُ أن أقدم إليكم نفسي بسلاسة بدءًا من اسمي الذي لا يسهل نطقه، وهو حال الكثير من الأسماء الجرمانية، وصولاً إلى فلسفتي التي لا يسهل تلخيصها، وهو حال معظم الفلسفات الألمانية، لكن البروتوكول يقتضي أن أقدّم نفسي:

اسمي بيتر سلوتردايك، فيلسوف غير تقليدي، أو قولوا عني مفكر حرّ في زمن تنتشر فيه دعوات الحرية، لكن تتزايد الأدلة على أنها مجرد وهم، لذا ركزت جهدي على تلك الأدلة.

يا قادة الحكمة، ويا سادة المحكمة، لا أحب أن أدافع عن أي شيء، طالما ليس من طبعي أن أمنح الثقة لأي شيء. بل مهمتي الأصلية أن أجعل كل شيء موضع اتهام، مهما أظهر من براءة، لكن حين يتعلق الأمر بالحب فأنا أقبل عن طيب خاطر أن ألعب دور المدافع العنيد.

نحن لا نعيش في مجرّد فضاء مادي، بل نعيش داخل فقاعات عاطفية تقوم على علاقات العائلة، الصداقة، الزمالة، الجوار وغيرها. والحب هو أكثر الفقاعات سحرًا وجاذبيّة.

علاقة الأم بالجنين هي أول فقاعة في حياة الإنسان، وهي التي تحمل النموذج البدئي للحب، قبل أن تتفرع عنه سائر النماذج الأخرى.

ليست الفقاعة العاطفية مجرّد صورة رمزية، بل بيئة كاملة تتنفس

فيها الذات من خلال الغير. ما يعني أن الحبّ ليس شعورًا لاحقًا، بل أسلوبٌ في التعايش العاطفي يبدأ قبل اكتساب اللغة وقبل الوعي.

على المنوال نفسه، يصنع الشريكان في تجربة الحب عالمًا خاصًّا أشبه بفقاعة تحتوي على أصواتهما، مشاعرهما، أسرارهما وحتى هوائهما الرّمزي الذي يتنفسانه، وذلك قبل أن يتحوّل تبادل الأنفاس إلى فعل إيروسي في العلاقات الحميمة.

الحب ليس مجرّد اثنين على سرير واحد، أو تحت سقف واحد، فتلك غاية الزواج الذي قد يتحقّق سواء بالحب أو من دونه، بل غاية الحب بناء فقاعة عاطفية ساحرة تُمثل عالمًا مشتركًا حتى وإن تباعدت الأسرَّة والسقوف، إنها فقاعة تحتوي على لغة خاصة تؤلف معجمًا لما يقوله كل واحد للآخر، تتضمّن إيقاعًا خاصًّا يُحدد متى يكون التواصل، وكيف ترسم الحدود النفسية للعلاقة، بما في ذلك ما يتم الكشف عنه وما لا يتم الكشف عنه، ما يتم البوح به وما لا يتم البوح به، ما بالإمكان لمسه أو ملامسته وما ليس كذلك.

إلّا أنّ كل الفقاعات مهما بلغ جمالها، فإنها يمكن أن تنفجر في أي لحظة. وإن كانت فقاعة الحب هي الأكثر سحرًا فإنها الأكثر هشاشة كذلك. لذلك، وبسبب الوعي بهشاشة الحب نحتاج دومًا إلى تكرار عبارة «أحبك».

إنَّ فقاعة الحب، على الرغم من جمالها وسحرها، هشّة ومهدّدة بالانفجار في أي لحظة، سواء بسبب الفقد، الهجران، الخيانة، الموت، الملل، أو بلا سبب ظاهر. تلك كلها أحوال قد تحطم الفُقاعة وتلقي بالإنسان في فراغ فجائي، يشعر فيه كما لو أنّه طُرد من جو كان يحتويه مثلما يُطرح الجنين من الرحم.

يلتفت **سلوتردايك** إلى القاضي ويُكمل:

لستُ هنا لأدافع عن الحبّ كسلعةٍ رومانسية أو حالة وجدٍ تُستهلك

سريعًا، بل كـتقنيةٍ للعيش المشترك. الإنسان، في تصوّري، ليس كائنًا يصلح للحياة في العراء، بل إنّه حيوانٌ كُرويّ، لا يزدهر إلّا داخل أغشيةٍ دافئةٍ من لغةٍ وثقةٍ وعاداتٍ مشتركة. والحبّ هو فنُّ تشييد تلك الأغشية وصيانتها، الحب هندسةٌ دقيقة لفضاءاتٍ قابلة للسكنى بين اثنين، ثم بين جماعاتٍ أوسع.

حين نُحبّ، نصنع مع من نحبّ قبّةً صغيرة من حرارةٍ وتفاهم. قبّة يمكن أن تخنقنا كما يمكن أن تعلّمنا أهمية الشراكة، وأن تكون مساحة لحوار يخلق مناعة مشتركة. لستُ أتحدّث عن جوهرٍ سرمديّ، بل أتحدّث عن بناءٍ يوميّ، عن كيفية توزيع الوقت وترتيب المسافة وتحويل النيّات الحسنة إلى طقوسٍ قابلةٍ للتكرار بلا ملل.

ولأنّنا لا نحيا وحدنا، فمفهوم المناعة المشتركة أساسي. لا وجود لمناعة فردية داخل علاقةٍ حميمة، فإمّا أن نحصّن غشاءنا معًا، أو ننهار معًا. المناعة التي أقصد ليست جدرانًا عازلة، بل هي قواعد تعايشٍ تقلّل حمولة العنف في لغتنا وإيماءاتنا، بحيث نختلف بلا تحطيم، ونختلف بلا هجر، ونتحمّل الألم من غير ابتزاز. كلّ مرّةٍ ننجح فيها في خفض حدّة الصوت، أو في إعطاء مهلةٍ قبل الردّ، نضيف طبقةً رقيقةً من الحماية إلى قبّتنا المشتركة.

لكنّ الفقاعة هشّة بطبعها، وهذا ليس عيبًا ينبغي إنكاره، بل حقيقة تحتاج إلى بروتوكولات تحرسها. لذلك علينا أن نتعهد بميثاق كلامٍ واضح، وصراحة لا تجرح الغشاء، وحدودٍ قابلةٍ للتفاوض.

العاطفة وحدها لا تدوم، ما يدوم هو التمرين. الحبّ حدثٌ في بداياته، غير أنّه يصبح مقدرة بالمواظبة حين تتشكل مواعيد ثابتة للإنصات، مراجعات دورية للاتفاق، تدريبٌ على خفض النبرة عند الخلاف، وتوسيعٌ متعمَّد لدوائر الرعاية نحو الأصدقاء والجيران والمجهولين الذين يشتركون معنا في قابليّة الألم.

من هنا يتّسع الأفق إلى ما أسميه حبّ العالم. القبّة الصغيرة التي شيّدناها معًا ليست غايةً مكتفية بذاتها، بل هي نموذجٌ يمكن تمديده إلى الحيّ والمدرسة والمدينة. حين نتقن تكوير الحياة في أصغر وحداتها، يصبح ممكناً تعميم أخلاق الغشاء، باعتماد لغة أهدأ في الشارع والإعلام، حدود أذكى في السياسة والعمل، وممارسات تُقلّل هدر الكرامة. لا أزعم أنّ الحبّ يُلغي قسوة العالم، لكنّه يعلّمنا إدارة القسوة بحيث لا تغمر كلّ شيء.

وأختم يا سيدي القاضي بما يلي:

الحبّ هندسةُ أغشيةٍ مشتركة ومناعةٌ متبادلة وتمارينُ رعايةٍ تُخفّض نصيب العنف في اليوميّ. وإذا كان ثَمّة مُتَّهَمٌ حقيقيّ، فهو عنفُ الاستحواذ الذي يخنق الهواء داخل الفقاعات. أمّا الحبّ فيجعل من العلاقة جماليّةَ وجود. وبهذا يستحقّ الحبّ حكم البراءة.

حين أنهى بيتر سلوتردايك مرافعته، نزل عن المنصة وسار بخطواتٍ غير متساوية الإيقاع، كأنه لا يريد أن يسير على خطٍ مستقيم، قبل أن يجلس على مقعده بهدوء.

مرافعة ألان باديو

ينهض رجل يرتدي بذلة بلون رمادي، تعبر عن بساطة مواطن فرنسي من أواخر القرن العشرين، يتقدم نحو المنصة، وبصوت متوسط الحدة، يقدم نفسه:

أنا ألان باديو، فيلسوف الحدث. كان حدث ولادتي في الرباط إبان الحماية، حيث كان والدي أستاذ رياضيات، وأمي شاعرة، ما يفسر قيام فلسفتي على التركيب بين البعد الرياضي والبعد الشعري.

نشأت في أسرة متعاطفة مع الحركة الوطنية المغربية. ربما هذا ما قد يفسر روحي النضالية «العالمثالثية»، التي لم تفارقني، مع أنها لا تناسب شيخوختي اليوم.

ولمن يهمه الأمر، المهدي بنبركة كان تلميذًا لوالدي في الرياضيات، وترك كل واحد في الآخر أثرًا أشهدُ عليه بنفسي.

أدافع عن الحب، لكنني أنتقد الثقافة التي تحاول تقديم العلاقات العاطفية كخيارات جاهزة مثل الأكلات السريعة. وأعتبر هذه الثقافة تهديدًا للحب الذي يبقى في جوهره حدثًا متفردًا، يتطلّب قدرًا من المخاطرة والاستعداد للمواجهة المفتوحة من دون ضمانات.

الحب حدث وجودي مفصلي، إنه ضدّ التفاهة، التزام أخلاقيّ ضدّ اختزال العلاقات في عقود جاهزة للاستهلاك المتبادل، ثورة ناعمة ضدّ القسوة.

حنة أرندت:

كيف يكون ثورة ضد القسوة وهتلر كان بوسعه أن يعشق حبيبته إلى الحد الذي ماتا فيه متعانقين! بل رأيت بنفسي كيف كان العشاق يتبادلون

القبل أمام قطارات تجر أشباههم إلى الأفران دون أن تتحرك الضمائر. وبالتالي، يمكن للحب أن يبقى صامتًا أمام الشر. وحده التفكير لا يمكنه أن يصمت. بدوري دافعت وأدافع عن الحب إلا أننا نحتاج إلى التفكير أوّلًا، بل نحتاج إلى عدم تجريد الحب من سياقاته، كأنّ شرطه معزول عن وقائعه.

باديو:

لن نقاوم الشر إذا اكتفينا بمشاهدة نصف الصورة. لذلك علينا أن ننظر إلى الصورة بأكملها. فالحب يقع بين ذوات ويسقط حين يكون بين تابعين، وبالتالي هو غير معزول عن وقائعه. وهذا ما تثبته حالة هتلر، حيث ظلت إيفا براون مع هتلر لأزيَد من عشر سنوات، لم تكن تظهر علنًا إلا نادرًا، ولم يتزوجها إلا قُبَيل انتحارهما بساعات قليلة. في كل الأحوال، لم تكن العلاقة بينهما متوازية، لم تكن علاقة ذات مقابل ذات أخرى، لم تكن علاقة إرادة مقابل إرادة أخرى، أي لم تكن علاقة حب، بل مجرد تعلق وسواسي، حيث هو «الرجل» المسيطر، والغيور، والنرجسي، والغارق في عبادة الذات والذي حفظ «دميته» في الظل للاستعمال الخاص.

ثم يلتفت ألان باديو إلى ممثلة النيابة العامة، ويقول:

لا أنكر أنّ الحب يوجعنا، والأسباب كثيرة سأذكر خمسة منها توضح أن الأمر لا يتعلق بالحب نفسه، بل بقدرتنا على فهمه واستيعابه:

أوّلًا، يوجعنا الحب لأنه يربك مركزية الذات، ويكسر وهم الاكتمال الفردي. حين نحب نعلم أننا ننفتح على آخر غريب عنا بتاريخه، برغباته، وحتى بأعطابه وانحرافاته، ما يتسبب لنا في القلق، ويحرمنا من وهم أننا مكتفون بأنفسنا وأيضًا من وهم أن الاكتمال يحتاج إلى النصف الآخر.

ثانيًا، يوجعنا الحب عندما نظنه علاقة تعاقدية، تقوم على المصلحة أو

التبادل مثل معظم التعاقدات، بينما يتأسس الحب على الحدث الوجودي، إذ يفاجئنا ويخرجنا من روتين الحياة العادية، ويخلق لدينا تجربة جديدة في إدراك العالم، وإذا لم نستطع أن نتعامل معه كحدث له أثر في وجودنا قد يفشل، ويترك الوجع. إنه مثل الثورات التي تخلق حدثًا عظيمًا لكن عندما تدخل في زواريب المصالح الضيقة تفشل في النهاية.

ثالثًا، يوجعنا الحب لأنه يتطلب الاستمرار رغم التحديات. فالحب ليس لحظة شغف فقط، بل بناءٌ مشتركٌ طويل الأمد يتطلب الصبر والتضحية وتحمل الصدمات، هذا الالتزام بحد ذاته مؤلم أحيانًا طالما يبقى محفوفًا باحتمالات انكساره.

رابعًا، يوجعنا الحب لأنه يعرّضنا للهشاشة، حيث يجعلنا مكشوفين، ضعفاء ومرتبطين بآخر لا نتحكم فيه، مما قد يعرضنا للخوف من الفقد أو الخذلان.

خامسًا، يوجعنا الحب لأنه يحتاج إلى أن يُبتكَر كل يوم من جديد، فالحب ليس حدثا ينتهي في لحظة اللقاء فقط، بل حدث نعيد ابتكاره كل يوم، مثلما نعيد بناء الحميمية بصيغ جديدة كل يوم. فالحب ليس تجربة رومانسية يتحقق فيها العيش مع الشبيه بكل أمن وأمان، بل مغامرة تقتضي شجاعة العيش مع المختلف، وإذا كان هذا يوجعنا فإنه يحررنا في الآن نفسه.

حجّتي بسيطة: من دون قبول الخطر لا يحدث شيء يستحقّ اسم الحبّ.

لكن الحدث وحده لا يكفي. لهذا أُشدّد على الوفاء. الوفاء الذي أدافع عنه ليس حنينًا إلى الشرارة الأولى، بل عملٌ يوميٌّ يوسّع ما كشفه اللقاء. الوفاء لغة مشتركة، عاداتٌ مشتركة، وقراراتٌ تصمد أمام سوء الأحوال. الوفاء هو استراتيجية الزمن ضدّ نزوةِ اللحظة.

ينظر ألان باديو إلى هيئة المحكمة، ويرسل كلماته بنبرة التأكيد:

الحبّ ليس ذوبان الواحد في الواحد، بل إقامة في العالم من وجهتي نظرٍ مختلفتين. إنّه مساواةٌ بلا تماثل، واعتراف بالفروقات بوصفها ثروةً بنائيّةً لا خللاً يجب محوه. حين نرى بأربعة عيون بدل اثنتين، يتّسع الأفق، تتبدّل خرائط الممكن، وتُكتشف الحقيقة بما هي مشتركٌ كونيّ يخصّ البشر جميعًا، حتى وإن وُلد في خصوصيّة شخصين اثنين. من دون فهم وتقبّل الفروقات لا يستطيع الوفاء أن يصمد، ويتحوّل الحب إلى ألم ينتهي بكل ما سمعناه من الشهود.

أنهى ألان باديو مرافعته، ونزل عن المنصة بخطواتٍ هادئة، متوازنة، كمن يدرك أن كل حركة لها وزنها المفاهيمي.

مرافعة لوك فيرّي

يتحرّك من بين الفلاسفة رجل طويل القامة قليلاً، بملامح أوروبية وشعر رمادي اللون مسدل إلى الجانبين، يضع نظارة ويرتدي بذلة رسمية داكنة مع ربطة عنق سوداء. يدير نظره في القاعة، ثم يقدم نفسه:

أنا لوك فيرّي، أؤمن بأن الفلسفة ليست محاولة للإجابة عن أسئلة من قبيل ما الحقيقة؟ أو ما غاية التاريخ؟ بل محاولة للإجابة عن سؤال: ما الحياة الجيدة بالنسبة للفانين؟

من جهتي أرى أن الحنان هو حامي وحافظ الحب، وأنّ كل أشكال الحب لها منبع واحد، هو الحنان الأبوي/ الأمومي.

وأبدأ بالقول: إنّ الادّعاء على الحب وتحميله مسؤولية الشقاء مهزلة ستجلب لحضارتنا العار.

الحب يا أحبائي، ليس وعدًا بالخلاص، بل وعدٌ بالمعنى. وهذا كل ما نحتاجه لنبقى واقفين. فهل نحاكم ما يزرع المعنى لأن ثماره لا تدوم؟ هل نحاكمه لأنه يتغيّر بتغيّر الظروف والأحوال؟

في عالم ما بعد الأديان، وما بعد الأيديولوجيا الخلاصية، وما بعد المسكنات والمخدرات، وحيث تنهار الأحزاب التي وعدت بالعدالة، وحده الحب يمثل ملجأ أخيرًا من العدمية.

الحب هو التجربة التي تقول لكل واحد منا، لستَ وحدك في هذا الكون الموحش والوجود العابر، هناك من يراك بقدر من الانتباه، هناك من يرى بأن وجودك لا يُعوَّض، هناك من يراك أنت بالذات، هناك من يجد فيك المعنى وهو بهذا يمنحك المعنى.

صحيح أن الحب لا يدوم، وصحيح أنه مثل الفقاعة التي قد تنفجر كما يقول صديقي سلوترديك، لكنه يكشف لنا أعظم ما فينا، يكشف

قدرتنا على العطاء والتضحية والانصهار مع الغير لا من موقع الضعف، بل من موقع إرادة البقاء.

ثم يلتفت إلى شوبنهاور ويقول له:

عزيزي شوبنهاور، صحيح أن الحب خدعة لأجل البقاء، لكن بقاء النوع البشري هو المعنى الذي بقدر ما نحافظ على إنسانيته نواصل الحياة، فإما أن نقبله أو نقع في عدمية بلا نهاية. إذا كنت تحصر الحب في مجرد خدعة تنتهي إلى سكب السائل المنوي في الرحم، فما قولك في حب الآباء للأبناء والذي هو أقوى تعبير عن إرادة الحياة؟ فهؤلاء بعد أن اكتمل ما أنزلوه في الرحم وخرج إلى الحياة ظلوا مثابرين على احتضانه بكل أنواع الحنان، والصبر، والتضحية... والحب.

ثم يلتفت إلى سيمون فايل ويقول:

عزيزتي سيمون، حين قلتُ في أحد كتبي، المعنى الأسمى لحياة الإنسان المعاصر لا ينبع من الإله، بل من العلاقة، من الحب، من الغير، فقد كنت أستحضر ما تقولين، وما قاله القديس أغسطينوس قبلك، وقبلكما قاله ابن عربي. إلا أن محبة الله لا تقود بالضرورة إلى محبة الغير، بل هناك من يجعل من حب الله سبيلاً للانعزال عن البشر، بل عن الحياة باعتبار أن الحب لا يليق إلا بالله!

ابن عربي (معقبًا بهدوء):

لعلي أدركتُ مبكرًا هذا المأزق، ولأجل تفاديه قلت: ليس هناك سوى الله. كل الوجوه هي وجه الله، وكل العبادات هي طريق الله. وحين تقول الآية: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» فالمقصود، ليس الابتعاد عن الحياة، بل كيفما كان معبودك، وكيفما كانت عبادتك، فأنت في كل أحوالك تعبُد الله بالضرورة.

لوك فيري:

في مجتمعات الإيمان يُقدّم تصورك يا شيخ العارفين شكلاً للخلاص من العُنف المقدس، لكن في مجتمعات ما بعد الإيمان ربما لم يعد تصوّرك كافيًا. صحيح أنه لا يزال للأديان أثر في الوجدان، إلا أن هذا الأثر يخفت يومًا بعد يوم، لذلك قد نحتاج إلى علمنة تصورك ضمن ما أسميه بالروحانيات العلمانية.

أرى أن الحب ليس انفعالاً عشوائيًا، بل شرطٌ للمعنى. من دون الحب، تُصبح الحياة مجرّد لعبة بيولوجية مملة أو سباق عبثي نحو الموت. الحبّ في جوهره، هو ما يمنح معنى للوجود، هو ما يجعلنا نخاف الموت لا لأننا نخشى الفناء، بل لأننا لا نريد فقدان من نحب.

ألان باديو:

جميل، لكنني أختلف معك ليس في أهمية الحب، بل في طبيعته. لقد أكدتُ أن الحب مشهد يُفتتح بلقاء طارئ، لكنه يستمر كمغامرة. الحب ليس تمركزًا على المعنى ولا مجرّد نشوة وجدانية، بل بناء للحقيقة من موقع الاختلاف. أن تحب شخصًا مختلفًا عنك، وتبني معه عالمًا مشتركًا، فذلك تمرين على العيش مع الغير، بدل الانغماس في الذات. الحبّ عندي ليس معنى، بل ممارسة، وهو بهذا حدث سياسي أكثر مما هو حدث وجداني.

بيتر سلوتردايك:

أنتم تتحدثون عن الحب كأنه حقيقة واحدة. لقد أوضحت أن الحب بناء لمساحات حميمة، يعيش فيها الحبيبان تجربة اكتشاف الذات والعالم. الحب ليس مغامرة، بل مناخٌ مشتركٌ، إسفنجة عاطفية تعيد تشكيل الكينونة. وطالما الفقاعات العاطفية في ظل العولمة أكثر هشاشة،

وتنفجر بأصغر الوخزات، فإننا نعيش أزمة حب، حيث لم تعد الحميمية العميقة ممكنة وسط ضجيج السوق والسرعة والانكشاف الدائم.

لوك فيري:

هذا لا ينفي أنّ الحب لا يزال ممكنًا، رغم هشاشته. الحب هشّ بالفعل، لكنه حقيقيّ كذلك، ولذلك نحرص على عدم فقدانه، وهو ما تختصره عبارة «لن أدعك وحدك»، رغم أن العالم لا يمنحني ضمانات. إلا أن هذا الوعد، رغم هشاشته، هو ما يمنحني شيئًا من المعنى.

ألان باديو:

أتفق معك، لكنّني أصرّ على أن الحب ليس وعدًا شخصيًا فقط، بل فعلٌ تأسيسيٌّ. أن تحب يعني أن تفتح نافذة على رؤية جديدة للعالم. لذلك فالحب ضد منطق السوق، ضد ثقافة المصلحة الخاصة، ضد قيم المنافسة والأنانية، إنه شكل من أشكال الحدث الوجودي.

سلوتردايك (بهدوء ساخر):

هذا جميل، لكن ماذا تفعلون حين تنفجر الفقاعة؟ ماذا تفعلون حين يتحوّل الحبّ إلى غضب، أو كره، أو ملل، أو قيد أو غيرة؟ أنا هنا لا أحتقر الحب، بل أتفادى تمجيده، حيث أرى الحب فقاعة عاطفية جميلة بقدر ما هي هشة، وتتطلب بالتالي عناية خاصة لأجل الصيانة.

لذلك، بدل الدفاع عن الحب بشغف، نحتاج إلى أن نتعلم فن الصيانة الهادئة للحياة الحميمة. كيف نحافظ على الفقاعات دون أن نخنقها؟ هذا هو التحدي العاطفي الحقيقي أمام العشاق.

لوك فيري:

بهذا النحو، أنت بدورك تدافع عن الحب بكل شغف، بل أرى شغفك أكبر من شغفي. في كل الأحوال كلنا نفهم أننا من دون استعداد روحي

للحب، لن نتعاون، لن نتعاطف، لن نتضامن، لن نصغي للحكايات، لن نبدع ولن نستمتع.

سادتي الأفاضل، حين يُتَّهم الحب بأنه غريزة أنانية متنكرة في ثياب العطاء، أو مجرّد نزوة بيولوجية أو وهم رومانسي، فأنا لا أردّ بالنقاش النظري وحسب، بل أحتكم إلى مشهد إنساني من مشاهد الحب: أب يسهر قرب سرير طفل مريض طوال الليل، دون أن يطلب شيئًا، دون أن ينتظر شيئًا، دون أن يشترط شيئًا، دون أن يتوقع شيئًا، فقط لأنه يُحبه.

حبّ الأهل للأبناء هو النموذج الأسمى للحب الناضج، ذلك لأنه نابع من أعماق الحنان، حيث لا غيرة، لا أنانية، لا تملّك ولا شروط في المقابل.

حين تقول «أحبك»، فأنت تنتظر في الحال رجع الصدى، «وأنا أيضًا»، لكن حين تقولها لابنك أو ابنتك فأنت لا تنتظر رجع الصدى، لا تنتظر أي شيء على الإطلاق. ذلك أن الحب هنا متجذر في الحنان. إن قصص الحب التي دامت طويلاً هي التي عرفت كيف تتجذر عميقًا في تربة الحنان.

لقد دارت الفلسفة طويلاً حول الذات، حول خلاص الذات، حول سيادة الذات، حول قوة الذات، حول متع الذات. لكنّني أقول، لن تَعرف الذات معناها إلا حين تتجاوز نفسها. وليست هناك تجربة تدفعنا إلى هذا التجاوز مثل أن نكون آباءً أو أمهات. ففي لحظة الإنجاب، لا نربح فقط كائناً صغيرًا، بل نكتشف أنفسنا من جديد، ونفهم معنى أن نعيش من أجل شخص آخر دون مفاوضة أو مقايضة.

حبّ الأبناء لا يقوم على استحقاق أو تبادل. ذاك الكائن الصغير الذي هو ابنك/ ابنتك، لا يُعطيك شيئًا، لا يُغريك بشيء، لا يعرف كيف يردّ الجميل، رغم ذلك تُحبه، بل تُحبّه أكثر من أي شخص آخر.

لماذا؟

لأنه بكل بساطة يخصّك من حيث لا يملك شيئًا لك، ويستحقّ كل

شيء منك دون أن يطالب بأي شيء، إنه الحب في أنقى صوره، غير مشروط وغير نرجسي.

حبّ الأبناء يجعلنا نقدّس الحياة، حتى دون حاجة إلى أي نوع من الآلهة:

فأنا لا أبحث عن الخلود في السماء، بينما أراه في الأرض، أراه في تلك الرّغبة الغامضة في أن يواصل أبنائي الحياة من بعدي، وأن يكون عالمهم أكثر عدلاً من عالمي.

أنا لا أؤمن بالحياة الأبدية، لكنني أؤمن أن حياة ابنتي مقدّسة. ولأنها كذلك فأنا مستعدّ ليس فقط لأن أموت من أجلها، بل لأن أعيش من أجلها، وهذا هو الأصعب.

حب الأبناء يُعلّمنا أول دروس الأخلاق:

مَن يحنو على الصغار بصدق، سيعرف كيف يرحم الضعفاء، كيف يُنصت لمن لا صوت لهم، وكيف يشعر بالغير من دون أن يُلقَّن ذلك في مدارس الأخلاق. فمن حُضن الطفولة تتفرّع شجرة القيم كلها: الرحمة، الرعاية، المسؤولية، التضحية والحنان.

أيها القاضي، قد تقول لي: حب الأبناء فطري، غريزي، طبيعي وتلقائي، إلى الحد الذي قد يبدو فيه الأمر تافهًا. فأقول لك: الجمال لا ينتقص من قيمته أن يكون طبيعيًا، كما أن الشِعر لا يفقد سحره حين ينبثق من مشاعر بسيطة وصادقة.

حب الأبناء ليس إجابة نظرية عن سؤال الوجود، بل ممارسة يومية تعيد صياغة السؤال ذاته، «كيف أعيش بطريقة تجعل الحياة أقل قسوة، فقط لأن صغيرًا ينظر إليّ ويراني عالمه كله؟».

إن كان هناك معنى للحياة، فإنه يبدأ من حضن الأم، ومن حنان الأب.

لا أدافع عن رومانسيةٍ تُسوِّقها الصناعة الثقافية مثل الوجبات الجاهزة

والسريعة، ولا عن وجدٍ يشتعل سريعًا ثم يخبو فجأة. أدافع عن الحبّ بوصفه معنىً وواجبًا، وأدافع عن روحانيةٍ نقدية يجد فيها الإنسان تعاليه داخل العالم لا خارجه. فالمحبوب بوصفه شخصًا فريدًا يكتسب شيئًا من القداسة. هنا، في قلب المحايثة، يولد تعالٍ جديد. فأنا لا أحتاج إلى ما وراء الطبيعة حتى أفهم لماذا تُضحّي أمّ بوقتها؟ ولماذا يصمد حبيبٌ في أوقات العسر؟ يكفيني أن أرى الحبّ يمنح قيمةً لا محدودة لكائنٍ محدود.

أُسمّي هذا التحوّل ثورة الحبّ، حيث ينتقل مركزُ الأخلاق من الطاعة لأجل الخلاص إلى التضحية بملء الإرادة. لقد تعلّمنا أنّ الحقّ لا يبرّر القسوة، وأنّ القانون لا يكتمل بلا حنانٍ يُنعشه. بهذا المعنى، الحبّ ليس نزوةً خاصّة، بل هو الأساس الحديث للأخلاق: من يحبّ يتعلّم أن يقيس أفعاله بسؤالٍ بسيط: هل يزيد هذا الفعل من عافية من أحبّ؟ هل يصون تفرّده؟ ومن هنا تمتد الدائرة، قبل أن تترجم السياسة مشاعر الحنان إلى مؤسّسات عامة تحمي الضعفاء، وتضمن التعليم الكريم، وتدافع عن البيئة لأنّها مسكنُ من نحبّ اليوم وغدًا.

سيدي القاضي:

الحبّ حقيقةٌ إنسانيةٌ عليا تمنح الحياة دلالتها الحديثة وتؤسّس لأخلاقٍ بلا تعصّب، وروحانيةٍ بلا كهنوت، وليس خرافة الأمان البارد الذي يقتل المخاطرة النبيلة. إذا كان لا بدّ من إدانة، فلتُدَن معاملة الأشخاص كوسائل. أمّا الحكم الذي ألتمسه، فبراءة الحبّ الذي يعقلن الشغف، ويحفظ التفرد، ويحوّل العناية الخاصة إلى عدالةٍ عامة. فبه نصير جديرين بمن نحبّ، ويصير عالمنا جديرًا بالبقاء.

أنهى لوك فيري مرافعته، وفي عينيه بريقٌ هادئ، ليس انتشاءً، بل هو امتنان للحظة فكرية استطاع فيها أن يتكلم عن الحب بلغة الفلسفة والبساطة.

مرافعة ديفيد بوم

بملابس أنيقة وبسيطة وخطوات بطيئة، يتقدّم رجلٌ متوسط القامة نحيل القوام. يصعد إلى المنصة، ويقدّم نفسه:

اسمي ديفيد بوم. أنا فيزيائي، ولكن لمن لا يدري فإن السؤال هو الذي يدفع الفيزيائي للبحث. وأنا لطالما كانت الفلسفة العالم الذي جذبني، ولذلك جئت اليوم لأشارك إلى جانب الفلسفة، فقد أمضيتُ حياتي أطرح السؤال نفسه بألف لغة: كيف يتجلّى الكلّ في الجزء؟ وكيف يهمس الكون في ذرة واحدة؟ وُلدتُ في عالم ظنّ أنّ العلم يعني السيطرة، وأنّ المعرفة تعني التفسير، وأن العقل يعنيّ إصدار الأحكام، إلّا أنني كنت مأخوذًا بكل ما لا يمكن إدراكه، بكل ما لا يُمكن قوله باللغة، وبكل ما لا يمكن صوغه في معادلات رياضية.

فأنا لا أرى العالم كمجرد آلة، بل أراه أقرب ما يكون إلى رقصة الدراويش، حيث كل الأشياء ترقص بين المعلوم والمجهول، بين الضوء والظل، بين الفكر والخيال.

حين نظرتُ في أعماق ميكانيكا الكم، لم أجد يقينًا، بل مجرد ترابطات غامضة وعميقة، كأن الأشياء كلها تجمعها ذاكرة تضرب بجذورها في فجر الكون، أو قبل ذلك، كأن الكون بأسره يتحدث بصوتٍ واحد.

في هذا الكون الفسيح، ليس الانفصال هو الحقيقة كما يزعم البعض، بل الترابط. ليس الجزء منفصلاً عن الكل بل هو انعكاس له، دلالة عليه، وكل جزء في النهاية هو صدى جزئي لمعزوفة كبرى.

ألا يكون هذا الترابط الكوني تعبيرًا عن نوع من الحب الكوني أحبائي؟

لذا دعوتُ إلى ما اصطلحتُ عليه بالترتيب الضمني، ذلك البُعد

الذي لا يُرى، لكن منه يُولد كل شيء يُرى، ذلك الحقل الذي فيه تسبح الأفكار، وتتشابك الأرواح، وتمتزج الأزمنة.

لم أكن عالمًا فحسب، بل كنتُ دومًا تلميذًا تثيره الدهشة، وصديقًا لروح الحوار العميق: الحوار بين مختلف العقول، بين مختلف الأجسام، بين مختلف الجُسَيمات، وبين حالة الكون وحالة الوعي الإنساني.

يا سادتي، هناك فرضية فيزيائية حديثة، سبقنا إليها الذرّيون القدامى من ديموقريطس إلى الأبيقوريين، مفادها أن العواطف امتدادات لتآلفات الذرات. واليوم نهبط دون الذرة إلى عالم الجُسَيمات، فنلتقي بظاهرة «التشابك الكمومي». حيث يمكن لجسيمين متباعدين بمسافة هائلة أن يتفاعلا من دون أي «علاقة مادية»، كما لو أن بينهما «تعاطف». فما إن يقع مؤثر على حالة أحدهما حتى تتأثر حالة الآخر على الفور، ولو تباعدا ملايين الكيلومترات.

على هذا الأساس، يمكننا إعادة طرح السؤال العاطفي، ما الذي يجعلنا مرتبطين ببعضنا البعض؟ وما الذي يُثبت أنّ الحبّ حين يُبنى لا يبقى مجرّد انفعال عابر، بل يصير مبدأ كونيًا يحكم الأرواح والعقول في لحظات الهدوء؟

ربما يكمن هنا نوع من الترابط الخفي بين الرؤية الصوفية والرؤية الكمومية، حيث تؤكد الرؤيتان أن الواقع ليس مجموعة كيانات مستقلة، بل هو نظام من الترابطات التي تتخطى حدود المادة والزمان في بعض الأحيان.

في حدود العلم تستطيع فيزياء الكم بمنهجها العلمي أن تُظهر أن الترابط الكوني الخارق للزمان والمكان ليس مجرّد مجاز، بل هو حقيقة فيزيائية ملموسة. تمامًا كما أن الحب حقيقة عاطفية موجودة، يمكن الرهان عليه حتى ولو كان يعوزنا البرهان.

في فيزياء الكم كل شيء مرتبط بكل شيء عبر نسيج سري، حيث

الجُسَيمات تتحدّث بلغة خفية، لا تُرى ولا تُقاس، لكنها موجودة، وتجمع شتات الكون. هكذا هو الحب، فهو ليس شيئًا نأتي به ثم نستحوذ عليه أو نمتلكه، بل هو تيار ناعم يسري في النفوس الرحيمة، ويجعل بعض الأرواح قد تهتز في اللحظة نفسها.

حين تحب فأنت لا تكون مجرد ذات متفردة مقابل ذات متفردة، بل تكون جزءًا من نسيج حي يتنفس بك، ويتردّد فيك مثلما يتردّد الضوء في الفضاء. فلا تبحث عن الحب بوصفه امتلاكًا ووعدًا، بل عشه بوصفه تيارًا من الحياة يمر من خلالك، ثم يتجاوزك نحو فضاء الكون بأسره.

أثناء ذلك لا تخف من الحب إن لم تفهمه، فحتى علماء الفيزياء لا يفهمون تمامًا لماذا يتأثر جُسَيمان ببعضهما البعض رغم أنهما قد يكونان على كوكبين متباعدين؟

فقط تأمل في تلك المعجزة، واسمح لقلبك أن يكون حقلًا مفتوحًا للذبذبات الجميلة، التي قد تأتي إليك من مكان بعيد، من ثقافة بعيدة، من ديانة بعيدة، وكل ما عليك هو أن تحسن الإصغاء بحسٍّ مرهف وروح هادئة، على أمل أن تكتمل الحكاية فلا تضيع في متاهات المصادفات والتشنجات.

الحب في جوهره ليس مجرد فعل نقوم به، بل هو حقل نتحرك فيه. ونسمع نبضه بين الأشياء كلها إذا صمتنا قليلًا، تمامًا مثلما يسمع العالم الكمومي همس الجُسيمات اللّامتناهية في الصغر.

فيا أيها السادة في هيئة المحكمة، لا تحكموا على الحب، بل استمعوا إليه. ففيه يتجلّى الحنين الأول إلى الكل. إلى وحدة لم نغادرها، وحدة الكون بأكمله.

سيدي القاضي، أنا لا أدافع عن الحبّ كعاطفةٍ غامرةٍ تُسكر لحظةً، بل أراه حركة نحو الكلّية، أراه قدرة على إعادة وصل ما قطّعه التفكير التجزيئي حين يتوهم أنه طريقة سهلة في بلوغ الحقيقة. خبرتي الفيزيائيّة والفكريّة قادتني إلى يقينٍ بسيط: إنّ معظم قسوة البشر لا تنجم عن شر

جوهري، بل هي نتيجة تفكير مفكّك يتصرّف فينا من وراء ظهرنا. الحبّ الذي أدافع عنه هو انتباهٌ مواظِب يكتشف هذا التفكّك، ويستعيد انسجام المعنى الذي يجمعنا مع بعضنا ويجمعنا بالكون.

الفكر انعكاسيّ، يصنع العالَم ثمّ ينسى أنّه صنيعه، فيتشدّد في دفاعه عنه. حين أتعلّق بصورةٍ عن نفسي وعن الآخر، تتحوّل العلاقة إلى قفص من ردود الفعل: أهاجَم فأُهاجِم، يُساء إليّ فأُسيء لغيري. الحبّ في فَهمي، ليس تسامحًا ساذجًا، بل هو حسّ حركي للفكر، حيث أرى أفكاري وهي تتحرّك قبل أن تتحكّم بي. عندها فقط تنشأ إمكانيةُ حوارٍ غير انفعالي.

الحوار عندي، ليس مناظرةً للفوز، بل هو تدفّقُ المعنى بين المتحاورين. إنّه المكان الذي نُعلّق فيه المسلّمات لا لتهديمها بل لرؤيتها وهي تعمل فيما بيننا، حيث نُبطئ ردّ الفعل كي يتكشّف ما هو أعمق من الرأي: حاجاتٌ، مخاوف، خرائطُ واقعٍ صنعناها ثمّ صدّقناها.

هذا التعليق ليس حيادًا باردًا، بل فعل محبّةٍ لأنّه يترك للمعنى وقتًا ليظهر بلا قسر. هنا يتبدّى الحبّ كرعايةٍ للتماسك، حيث لا نحرص على الانتصار لهذا الموقف أو ذاك، بقدر ما نحرص على سلامة النسيج الذي يضمّنا.

على مستوى أعمق، أسمّي ما يجري بيننا بالحركة الكلّية، باعتبار ذلك نظامًا ضمنيًّا، تتكشّف منه الصور الجليّة في العالم. حين نُصغي بلا انفعال، تعمل فينا معلومات فاعلة تُرشد التدخّل الألطف وتقلّل الهدر بواسطة العنف والالتباس. الحبّ بهذا المعنى، ليس شعورًا يعلو على الواقع، بل هو مشاركة واعية في هذا النظام الضمني، واستعداد لأن ندع النظام الأعمق يعمل بدل أن نفرض عليه قوالبنا المتوتّرة.

ولأنّ الحبّ عندي فنّ انسجام، فهو يساعدني على التمييز بين التقارب الذي يشدّ النسيج والتقارب الذي يخنق النسيج. المسافة

ليست برودًا، بل هي فسحة للتنفّس والسماح بتدفق المعنى. لا يطلب الحبّ إذعانًا ولا اعترافًا دائمًا أمام سلطة معينة، بل يطلب انفتاحًا متبادلًا على ما لم نره بعد. حيث يزول الالتباس وتتراجع القسوة تلقائيًا، فليس العنف في النهاية سوى ضجيج فكرٍ غير منسجم.

وهاكم برنامج التمرين العمليّ الّذي أقترحه، وأنا ألتزم به لأجل حب ناضج، وهو من ست خطوات أتمرن على الالتزام بها في كل الظروف:

أوّلًا، توقف وجيز قبل الردّ، حيث ألاحظُ ردّ فعلي كما يلاحظ المرءُ حركةَ يده. فأتساءل: ما الذي يُشغلني الآن، خوفٌ قديم أم واقعٌ حاضر؟

ثانيًا، تعليقُ الافتراضات، حيث أقول داخل نفسي، «ربّما»، ثم أجرّب أن أرى العالم من موضع الغير ولو للحظةً واحدة.

ثالثًا، لغةُ تقصٍّ لا اتهام، حيث أسأل «كيف نزيل الصعوبات بيننا؟» عوض السؤال «من المخطئ؟».

رابعًا، دوائرُ حوار دوريّة، حيث نترك معا مساحةً بلا قرارات مُسبقة، نتمرّن فيها على الإصغاء المتبادل ومحاولة تجلية «معانٍ أعمق».

خامسًا، قياسُ التماسك، حيث نعتبر المعيار بسيطًا: هل جعلت كلماتُنا الفهمَ أوضح والانفعالَ أهدأ؟ إن لم تفعل، نعود خطوةً إلى الوراء.

سادسًا، توسيع الدائرة، حيث نشرع في نقل مهارة الانسجام من الخاص إلى العام، فريق العمل، الحيّ، المدرسة. فحيث يتحسّن انسجام المعنى تقلّ حصّة العنف.

حين أنهى ديفيد بوم مرافعته، وقف كما لو كان يعود من حالة تأملية، وعيناه لا تنظران إلى الجمهور، بل تسبحان في الفراغ كما لو أنهما تلاحقان علاقات لا مرئية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مرافعة سوزان سيمارد

تقف امرأة في العقد الخامس من عمرها، مظهرها بسيط، شعرها أشقر مائل إلى الرمادي، عيناها تشعّان بفضول طفولي. تتحرّك بهدوء نحو المنصة، تتكلم بصوت ناعم وهادئ فتقول:

اسمي سوزان سيمارد، عالمة كندية في البيئة الغابوية، يلقبني البعض بكاهنة الغابة الحديثة. جئت لأخبركم عن طاقة الحب في الغابات. هل سمعتم بهذا من قبل؟

ما سأخبركم به ليس شِعرًا صوفيًّا بل حقائق علمية اكتشفتها بكثير من معطيات المنهج العلمي، بالإضافة إلى بعض الحدس الأنثوي أيضًا.

في الغابات، كما في القلوب، لا يُرى كل شيء، ولا يُرى الأهم. إن كل ما نراه لا يمثل إلّا الجزء الظاهر من حكاية أعماقٍ متشابكة، تفيض بحنان الأمومة اللّامرئي.

يا سادتي، لطالما ظننتم أنّ الغابة مسرحٌ للتناحر من أجل البقاء، وفعلاً هذا هو ظاهر الأمور، لكن في مستوى الباطن هناك رسائل صامتة للتضحية والتعاطف والحنان.

نعم تتسابق الأشجار نحو الضوء، تتزاحم الجذور تحت الأرض، وهناك فروع تُلقي ظلالها لتمنع غيرها من النمو. هذا الحجم من القسوة موجود في الطبيعة، وقد أدركه العلم باختبارات حسية سهلة. لكن، عندما اعتمد العلم على «الحدس الأنثوي» العميق، وأنصتَ بعمق حنان الأمومة الكوني، اكتشف ما هو أبعد من ذلك: الأشجار تتعاطف، تتعاون، تتبادل رسائل الاستغاثة والتحذير، وأكثر من ذلك تتنازل لبعضها البعض عن مساحات الغذاء والضوء والهواء.

في باطن الأرض، توجد شبكة من الخيوط الفطرية تمتدّ من جذع

إلى آخر، ومن جذور إلى أخرى، قد نسميها بـ«الإنترنت الخفي للغابة»، من خلالها ترسل الشجرة الأم رسائل الدعم إلى الشتلات الصغيرة، وترسل الشجرة السليمة المعادن إلى تلك التي تنهكها الجائحة، وتُرسل الشجرة المصابة نداء استغاثة كي تستعدّ الأخريات لهجوم الحشرات.

تلك هي الروح العميقة للغابة. فما بين الشجرة والشجرة توجد مسافة احترام لا تنتهكها الأغصان، بل تتشابك بتروٍّ. ما بين الجذر والجذر توجد لمسة صامتة، تقول: «أنا هنا، إن احتجتني».

ذلك هو الحب الذي لا يُعلن عن نفسه، لا يحتاج لأي نوع من الدراما، لا يستعرض عاطفته للتباهي أو الإزعاج، لكنه موجود فقط لأنه موجود، إنه نظام عاطفي يعمل في الخفاء، مثل شجرة قديمة تظلّ تحمي البذور الصغيرة دون أن تطلب امتنانًا. مكتبة سُر مَن قرأ

في الحب كما في الغابة، ليست كل مسافة جفاءً، فالفسحة أحيانًا هي ما يسمح بالنمو. ليست كل كثافة اختناقًا، فالاحتضان الصامت أحيانًا هو كل ما نحتاجه.

سادتي في هيئة المحكمة، لا أطلب تبرئة رومانسيةٍ تسقطها البشرية على الطبيعة، بل أدافع عن الحبّ بوصفه نسيج رعايةٍ يعمل تحت أقدامنا، في تربة الغابات. حيث الأشجار لا تعيش فرادى، بل تتبادل الغذاء والمعلومات عبر شبكاتٍ فطريةٍ جذرية، مما يجعل من الغابة مجتمعًا متّصلاً. من هنا أقول إنّ للحبّ معنىً بيولوجيًا متواضعًا ودقيقًا: العناية المتبادلة التي تزيد فرص بقاء الجميع.

وإليكم حججي:

حجّتي الأولى، الهبة المتبادلة:

رأيتُ أشجارًا مختلفة الأنواع تتقاسم الكربون على قدر الحاجة، حيث شجرةٌ في الظلّ تتلقّى دعمًا من جارتها في الضوء، ثم تردّ الجميل

حين تنعكس الظروف. هذا ليس استعارةً شعرية، بل هو تدفّق مُنظَّم للتعاطف والحنان عبر خيوط الفطريات.

الحجّة الثانية، الأمومة الشبكية:

في قلب الغابة تقف ما أسميه الأشجار الأم، والتي لها جذورٌ أكثر تشابكًا، وذاكرةٌ أوسع لمسارات الغذاء، وقدرةٌ أكبر على احتضان الشتلات في سنواتها الأولى. حين تُجتزّ هذه القمم العتيقة تنهار شبكةٌ كاملة، ويَضعف الجيل القادم. الحبّ هنا ليس عاطفةً داخل جذع، بل بنية توزيع عادلة تمنح الصغار فرصة الحياة.

الحجّة الثالثة، لغة التحذير:

حين تتعرّض شجرةٌ لإجهادٍ، أو جفاف، أو مرض، تَمرّ عبر الشبكة إشاراتٌ تدعو الجيران إلى تعديل سلوكهم، فيبطئون من نموهم، أو يجهّزون دفاعاتهم، أو يلجأون إلى تخزين أكبر. هذا شكلٌ طبيعيّ للنداء: «انتبهوا». وهل الحبّ في الإنسان سوى اليقظة عينها؟

قد يعترض أحدكم قائلًا: «ألا تُسقِطين على الأشجار ما هو للإنسان؟» جوابي: أنا أحذر من التشخيص بقدر ما أحذر من العمى أيضًا. لا أزعم أنّ الغابة «تحبّ» بأسلوبنا، بل أزعم أنّها تُظهر قوانينَ تعاونٍ وتبادُل تمثل القالب الطبيعي لما نسميه نحن حبًّا حين نصوغ عنايتنا بالعالم وببعضنا.

أنا أتعلّم من الغابة ثلاث وصايا بسيطة:

أولًا، احموا الأشجار الأمّ. معنى ذلك في لغتنا المدنية، الحاجة إلى حماية البُنَى الحاضنة: المعلّمون، الأمهات، المؤسّسات الرحيمة.

ثانيًا، دعوا الأنواع تتجاور. فالتنوّع ليس مجرد زينة، بل تأمينٌ وظيفيٌّ ضدّ الأزمات. يمكن ترجمتُه من خلال تعليم غير تنافسي، وسياسات تراعي التنوع، واقتصاد لا يقصي الهامش.

ثالثًا، دعوا النسغ يتدفّق. فالغابة تموت إذا توقّف النسغ عن الجريان.

وفي حياتنا يعني ذلك ضمان حرية الكلمة وتداول الأفكار وتدفّق العاطفة، لأنّ المجتمع الذي تُقمع فيه الأرواح يصبح مثل الشجرة التي حُرمَت من ماء جذورها.

وها هي رسالة الشجرة إلى كل واحد منكم:

إن أردت أن تُحب كما ينبغي، فكن ظلاً لا يخنق ونورًا لا يُبهِر. كن جذعًا متينًا وجذرًا كريمًا. لا تسعَ لأن تسبق من تحبّ في أي مجال، ولا تخف أن يسبقك في أي مجال، وليكن سعيك أن تنمو معه، وينمو معك، حتى وإن سبقتك أغصانه إلى الضوء قليلاً.

لا يكون الحب ناضجًا إلّا حين نغرسه عميقًا في تربة الحنان، ونسقيه بماء الصبر والاحترام، ونتقبّل أن نراه مثل شجرة، لا تزهر في كل الفصول، لكنها تبقى حيّة في الأعماق، وبذلك النحو يمكنها أن تعمر طويلاً.

حين أنهت عالمة الغابات سوزان سيمارد مرافعتها، عمّ الجو هدوءٌ طبيعيٌّ كهمس أوراق الأشجار في غابة عميقة. لم تكن كلماتها مجرّد تأملات، بل كانت نداءً حيًّا ينبع من قلب الطبيعة، حيث يمثل الحب شبكة خفية من التعاطف والحنان، والذي بفضله توجد اليوم أحواض غابية تتكاثف فيها الأشجار بكل أمن وسلام.

الفصل الثالث

مرافعة الفلسفة

دخول الفلسفة

صوت حاجب المحكمة:

محبّة الحكمة تطلب الكلمة.

تتقدّم من المنصّة امرأة جميلة، ترتدي فستانًا يلتف حول الجسم ويُربط عند الكتفين، وعلى رأسها ضفائر ملفوفة كإكليل إلهة قديمة. كانت تحمل بين يديها مجلدًا كبير الحجم، وتنطلق في الكلام بصوت رخيم يسري مثل ناي في أعماق الليل.

الفلسفة:

لا أريد أن أثقل على وقت هيئة المحكمة الموقّرة، لكن لديّ كلام من واجبي قوله الآن.

تتقدّم نحو المنصة، وتشرع في تقديم نفسها:

اسمي مَحبّةُ الحكمة.

وُلدتُ في كلّ مكان، وحيثما طرح إنسان تساؤلاً حول الوجود.

جئتُ إلى الدنيا على دفعات عبر عصورٍ وأزمنةٍ شتّى، وإن قُيِّدت بدايتي في زمنٍ محدّد.

عمري الرسميّ يقارب ثلاثةَ آلافِ عام، أمّا عمري الحقيقيّ فأطولُ من ذلك. ومع طول عمري ما زلتُ أحتفظ بحماستي وبهائي. لا سرَّ في ذلك فأنا أُجرّب على نفسي دروس فنّ العيش قبل أن أُلقّنها لأحبّتي.

سأبقى ما بقي السُّؤالُ والنقدُ والشّكُّ، وما بقيت الحكمة أيضًا.

لقد نجوتُ من محارق الكتب والمخطوطات في الدهور القديمة والعصور الوسطى، ونجوتُ من المقاصل التي طالت كثيرًا من الفلاسفة الأوائل، ونضجتُ عندما آثر أبو الفلسفة، سقراط، ألّا يفرّ من

حكم الإعدام. وهو ما منحني القدرة على مواجهة كلّ الجهلة والطغاة. لكن لم يكن مساري بلا أثمان؛ فقد ضاع معظمُ تراث الحكماء بين لهبِ بعض الطغاة، وغِلظةِ بعض الكهّان، وجهالةِ بعض العوام.

خسرتُ كثيرًا، لكنّني بقيتُ في نهاية المطاف. وكما قال ابن رشد: يسهل حرق الكتب، لكن الأفكار لها أجنحة تطير بها.

لا أستطيع منع القنابل من السقوط، لكنني أستطيع منع محبّ الحكمة من مباركة سقوطها. أخذتُ على عاتقي حماية الحضارة من أشكال الهمجية التي تحيط بها من الداخل والخارج، فتحمّلت السجون والعذاب لإصراري على أن أكون مرآة أمام الهمجية لترى قبحها.

دوري أن أقاوم القسوة، بأن أُسمّيها وأكشف آلياتها، وأفضح مكرها وذرائعها، فليس كل ما يُسمى «ضرورة تاريخية» هو قدَر، وليس كل ما يُسمى «مصلحة وطنية» هو حقّ، وليس كل ما يُسمى «خسائر جانبية» هو عابر، وليس كل ما يُسمى «سلام» هو سلام بالفعل.

أقاوم قسوة العالم بأن أزرع الشكّ في اليقين المتغطرس، وأُعلّم الإنسان أن يقول «لا» حين يطلب منه أن يرضخ، وأن يتأمل حين يُستفزّ لينفعل، وأن يُصغي لصوت الضمير ولو أدى ذلك إلى الخسارة هنا أو هناك.

حين كان العالم يحرق الساحرات، اعترضتُ وطرحت السؤال الذي يزعج الجلّاد: ما هي معايير العدالة هنا؟ حين قالوا إن العبيد أقلّ إنسانية، اعترضت وطرحت السؤال: من يُحدّد معنى الإنسان؟ وحين يُقال اليوم إن القسوة ضرورية في بعض القضايا، فأنا أردُّ بلا أدنى تردد: القسوة فشل في التدبير، وعقمٌ في الخيال، وفقر في الروح، وعجزٌ في الرؤية.

ليست مهمّتي أن أُغيّر العالم بل أن أُغيّر الإنسان.

لقد استمعت إلى مرافعات الفلاسفة، وأسعدني إجماعهم على

طلب البراءة للحب، وأسعدني أكثر ما قدّموه من نماذج للحب ووضعه في قلب الفلسفة باعتباره حوارًا بين مختلفين، وبما يتضمنه من قيَم أخلاقية ومشاعر إنسانية يجتمع فيها الحنان والرقّة وتقبّل الآخر، وأيضًا الوجع والحزن والفقد.

لن أعود في مداخلتي لا ستعراض كل ما جاء في المرافعات، لأنتقل إلى مرافعتي:

كلُّ حبٍّ يولدُ في ظلّ أسطورة، لكنه لا ينجو إلّا إذا تمرَّد على الأسطورة التي ولد في ظلّها. وهناك فعلاً أساطير كبرى تضرّ الحب، ينبغي العمل على تقويضها.

لديّ ثمان نقاط أساسية أردت أن أترافع بها، وهي ليست مجرد دفاع فلسفي عن الحب، بل تمارين روحية لأجل أن نحب بوجع أقل، ونضج أكثر.

لقد ترافع أبنائي الفلاسفة دفاعًا عن الحب، لكنهم اجتمعوا على تأكيد أنّ الألم يرافق الحب، واعتبروه ضروريًا لأجل النمو والتحول، بينما أريد التركيز على إمكانيات التخفيف من الألم، لا سيما وأن وظيفتي الأكثر أصالة هي تقليص منابع الشقاء البشري.

إليكم الآن مرافعاتي الثمانية كما دوّنتها في هذا المجلد، وسأقرؤها عليكم تباعًا.

بصوت هادئ ونبرة واضحة شرعت في القراءة. كان الصوت منخفضًا في بدايته كأنّه يختبر الصدى، ثمّ راح يرتفع بدرجات قليلة، ليكتسب وضوحًا أكثر. كلُّ جملةٍ تُقال على مَهَل، وبين الجمل فسحاتُ صمتٍ قصيرة.

المرافعة الأولى
نزع الأساطير عن الحب

1 - نقد أسطورة «توأم الروح»

نفشل في الحب لأننا نُحمّل الآخر فوق ما يحتمل. فنطلب منه أن يكون طبيبنا النفسي، عكازنا الروحي وسياج أماننا الوجودي، نطلب منه أن يعوّض فينا كل ما فشلنا في بنائه داخل ذواتنا، وحين يعجز نملأ الدنيا صراخًا وعويلاً: الحب خيانة، العشاق خائنون ! الرجال خائنون! النساء خائنات! في حين أن الخيانة لم تكن منذ البداية سوى خيانتنا لأنفسنا حين لم نمرّنها على النضج الذي تحتاج إليه وخاصةً في التعامل مع المشاعر.

من أسباب الفشل أننا نطلب من الآخر أن يكون «توأم روحنا»، وفق أسطورة جميلة لكنها أسطورة مضللة.

ذلك أننا في لحظة من لحظات الشعور بالوحدة أو الضعف، قد نجد بعض العزاء في فكرة أن في مكانٍ ما، هناك «نصفنا الآخر»، شخص خُلِق لأجلنا وحدنا، مكتوب كوشم في الروح، شخص يشبهنا إلى حد التماهي، ويكمّلنا كقطعة مفقودة لكينونتنا المبتورة. لكن، إن كانت الفكرة مغرية بالفعل، فإنها ككل الأوهام الجميلة، تريحنا في البداية وتضللنا في النهاية.

لا يحتاج الحب إلى توأم روح، بل إلى روح شجاعة. لا يحتاج الحب إلى نصف آخر، فالحب ليس اكتمالاً بجمع نصفين.

الذين ينتظرون توأم الرّوح، يعيشون إما في تأجيل دائم للحب، كما لو أنّ كل من يمرّ أمامهم نسخة ناقصة، انتظارًا لوهم قد لا يأتي، أو يعيشون

في انتظار حارق للقاء لا يعرفون متى يتحقّق، فيسهل اصطيادهم من طرف الكهّان والدجالين.

والحقيقة المؤلمة والمحرّرة معًا، هي ألّا أحد خُلق ليُكمّلنا. نحن لسنا أنصافًا تتجوّل باحثة عن أنصافها الضائعة، بل ذواتًا كاملة، تعاني نواقص كثيرة بالفعل لكنها لا تبحث عمن يُتمّمها، بل عمّن يرافقها في رحلة النضج، وعمن يشجعها على مواصلة بناء الذات.

وهم توأم الروح يُسقِط الحبّ في فخ القدَرية، كأنّ العلاقة محكومة بنَصٍّ مكتوب لا خيار فيه ولا مسؤولية، أما الحب الحقيقي فيبدأ حين نختار ثم نتراجع ثم نعيد الاختيار، ننظر ثم نتردد ثم نعيد النظر. الحب الحقيقي يتحقق حين نُحب الغير كما هو، لا كما تخيّلناه وفق أسطورة توأم الروح.

والحق يقال، عكس الرؤية التي تُنسب إلى أفلاطون بسبب ورودها في إحدى محاوراته، مع أنها على لسان الشاعر أرسطوفان، فإن الحب ليس رحلة نبحث فيها عمن يكمّلنا بل عمّن يوقظنا. أن نحب بشكل سويّ معناه أن نحب لأنّ فينا فائضًا من الحب، لا لأن فينا نقصًا ينتظر من يكمله.

الإنسان ليس بحاجة إلى توأم روح، بل يحتاج إلى رفيق درب يشجعه على أن يستكمل صيرورته، يحتاج إلى شخص لا يشبهه تمامًا بل يتقاطع معه في العمق ويمنحه شجاعة الحب، حتى وإن كان يتباين معه في السطح، يحتاج إلى شخص لا يكمّله بل يشهد معه بناء الحب بصبر وتواضع، مثلما يُبنى منزل لبنة فوق لبنة.

يبدأ الحب حين ننسج العلاقة خيطًا فخيطًا، بدل أن ننتظر اكتشافها كقطعة أثرية نادرة.

يا سادتي، الحب ليس اكتشافًا بل بناء.

2 - نقد أسطورة «الحب من أول نظرة»

«رأيته فعلمت أنه هو، كأنَّ قلبي كان يعرفه قبل أن تراه عيني!» هكذا تُروى البدايات في الحكايات الرومانسية. كما لو أن الحب ومضة غيب تنزل في لحظة. ومع أن هذا التصور جميل إلا أنه يختلط بالوهم.

قد تهزّنا النظرة الأولى وتعيد فينا ذكريات شوق قديم، فإذا تواطأ الوقعُ في القلبين ظنّاه قدَرًا. والحقيقة أنّ الانجذاب الأوّل يُخفي فخًّا رقيقًا: نظرة نلوِّنها بأمنياتنا فتصيب القلب.

قد أنجذب إلى جسده(ها)، قوامه(ها)، وجهه(ها)، مشيته(ها)، لكن الانجذاب إلى نظرته(ها) سيكون هو الأعمق: النظرات «سهم قاتل» في الشعر العربي؛ «مسرح الرغبة» في التراجيديا الإغريقية؛ «اللقاء الأول» في الأدب الرومانسي الأوروبي؛ «الإغراء الصامت» في مجتمعات التحريم، ومن هنا قيل في بعض الأحاديث: «زنا العين النظر».

في كل الأحوال، ليس سحر العيون في تقاسيمها ولونها، بل في شيء أعمق من ذلك، شيء غير مادي تقريبًا لكننا ندركه، غير محسوس تمامًا لكننا نحس به: النظرات.

يقول: رمتني بنظرتها، فاستقرّ السهم في الفؤاد.

تقول: أرسل طرفه، فتدلّى قلبي من حاشية ثوبي.

هذا الانجذاب القوي، يقع للكثيرين بالفعل، لكنه ليس حبًّا بالمعنى الحقيقي، بل مجرّد انجذاب يساهم فيه مزاج اللحظة، وخيال اللحظة، وجروح اللاّوعي العميقة حين تتفاعل مع اللحظة. ذلك أن الحب لا يُلقى كالوحي، بل يُسقى قطرة قطرة حتى يثمر ويطلب الصبر حتى ينضج.

الانجذاب ليس قدَرًا مسطورًا، بل مجرد فرضيّة عمل يمكن اختبارها. إنه ليس حقيقة مبرمة، بل مجرّد مقترح ممكن ضمن لائحة مفتوحة. والمعضلة كلها هي حين نتوهَّم أن الأمر يتعلق بـ«لقاء العمر».

الحب من أول نظرة يوهمنا بأنّ العاطفة تنفجر دفعة واحدة من دون تمهيد أو معرفة أو اختيار، وبالأحرى من دون أن تتحقق إعادة الاختيار. ذلك أنّ الحب، لئلّا ننسى، لا يتمثل في الاختيار خلال لحظة واحدة، بل في إعادة الاختيار خلال كل اللحظات. هنا يكمن التحدي الحقيقي في تجربة الحب.

«أحبك»، معناه أنّني كل لحظة أعيد اختيارك.

حين يتعلّق الأمر بالجنس فقط، لا يمكن استقرار الاختيار نفسه في كل اللحظات، لكن حين يتعلق الأمر بالحب، عندها من الأرجح أن يستقرّ الاختيار نفسه في كل اللحظات.

ليس الحب مجرّد شيء يحدث كما يقول ألان باديو، بل هو بلغة ابن رشد في وصف خلق العالم، شيء دائم الحدوث، أي إنه حدث يعاد حدوثه بنحو دائم. «أحبك» معناه أني أعاود الوقوع في حبك بنحو دائم وفي كل اللحظات.

عكس أسطورة الحب من أول نظرة، يحتاج الحب إلى زمن للنمو، وإلى أوقات يختبر فيها المرء كيف سيكون مسكنه في روح الغير. إنه اختبار للغة، للأحلام، للذكاء وللجروح الكامنة في أعماق الذات.

قد تشعل النظرة الأولى فتنة بصرية، قد تشعل شهوة، قد تثير إعجابًا أو انجذابًا، لكنها لا تصير حبًّا بالمعنى العميق للكلمة، إلا إذا خضعت لعملية بناء مختبرة.

النظرة الأولى قد تثير اهتمامًا لكنها لا تكشف شيئًا عن الصدق الأخلاقي، عن الذكاء العاطفي، وعن العمق الداخلي للآخر، بل قد تكون مجرد إسقاط سطحي لرغباتنا الخفية أو لأوهامنا الرومانسية أكثر مما هي بناء حقيقي للعلاقة.

أسطورة الحب من أول نظرة تُسقط من الحساب فكرة أنّ الحبّ يُبنى ولا يُعثر عليه. والواقع أنّ الحب يبدأ عندما تتكشّف العيوب،

وتتعرى الهشاشات، وتُختبر النوايا، وبذلك يكون الحب تمرينًا روحيًّا على الصبر والقبول والصفح والتواضع.

أسطورة الحب من أول نظرة، حين نصدّقها، قد تجعلنا ضعفاء أمام كل وهج أوَّلي، وسذّجًا في مواجهة غواية الصورة. قد تجعلنا نهيم في معظم الأوقات بين نظرات العابرين والعابرات، بحثًا عن النظرة القاتلة.

لا يمكن أن ننكر أن كثيرًا من حالات الحب تبدأ بنظرة خاطفة وأنّ بعضها يستكمل مساره إلى علاقة ناجحة بهذا القدر أو ذاك، ناجحة بجهد إضافي كذلك، إلّا أن الانجذاب إلى النظرة الأولى ليس معيارًا لما ينبغي أن يمثل الحقيقة، إنه مجرد بداية مقترحة من بين آلاف البدايات المحتملة، مع أن مزاج اللحظة، وخيال اللحظة، قد يمنحان للنظرات قيمة مضافة، ولذلك ينبغي اختبارهما بحس نقديّ رحيم.

الحبّ الناضج لا يولد من البصر بل من البصيرة. فلا يكفي أن نراه في أول لحظة بل ينبغي أن نراه من جديد في لحظات مختلفة، نراه في لحظات التعب، لحظات التألق، لحظات الفشل، لحظات الحزن، لحظات الفرح، لحظات الغضب ولحظات الصمت العميق، وأن نعيد اختياره في كل تلك اللحظات.

3 - نقد أسطورة «الحب الأبدي»

تفترض أسطورة الحب الأبدي أنّ الشعور الذي وُلد في لحظة الانبثاق سيظل متوهجًا إلى الأبد، من تلقاء نفسه، لا ينقص منه الزمن شيئًا، لا يتآكل بفعل الاعتياد، ولا يتبدل بنضج الوعي أو تبدّل الذوق، أو نمو الوجدان.

إلّا أن تلك الأسطورة تتجاهل أن الزّمن لا يرحم حتى أقوى العواطف وأكثرها صدقًا، وأن دوام الحال من المحال، وأنّ الحب لا يستمر إلا حين يتجدّد مثل مياه النهر.

في الأساطير الرومانسية يمكننا أن نقرأ عن حب لا يشيخ، لا يخون، ولا يخفت. مثل هذا الحب يوجد في أبيات الشعر لا في بيوت الناس. الأدب يُعظّم الحب الأبدي لأنه يحتاج إلى ذروة درامية أو خاتمة مأساوية، طالما الضرورة الأدبية تحتّم ذلك. لذلك صار الحبّ الأبدي مرادفًا للحب المأساوي أو الموت من أجل الحبيب. هكذا تتحول الرغبة في الخلود إلى موت رمزي، لا حياة تُبنى في مدارج العيش.

ليس الخلود من صفات الإنسان. فكيف يُطلب من الحب أن يكون خالدًا إذًا؟

من بين علامات الحب الناضج أن يعترف بحدوده الزمنية، وأن يحتفل باللحظة بدل أن يطالبها بالدوام. الحب حين يُحاصَر بوعد الأبدية، يفقد هشاشته الصادقة وصدقه البسيط، ويتحول إلى واجب ثقيل على الزمن، وثقيل على الوجدان أيضًا.

لا يصمد الحب في صورته الأولى، لكنه قادر على التحوّل إلى صور متوالية، تتشكل مع تطور خبرة الحياة وتجارب الذات. قد يبدأ الحب شغفًا وينضج ليصير ألفة وتساكنًا، قد يبدأ رغبة ويتحول إلى مودة وحنان، وقد ينطفئ ثم يعاود الاشتعال في صورة أخرى، وقد يختفي لكنه يترك أثرًا روحيًا يبقى في وجدان الإنسان. إلا أن الأسطورة ترفض هذا التحول، لأنها تتشبث بصورة ثابتة غير إنسانية.

حين يزول الحب، يشعر البعض كأنه خان وعدًا مقدسًا، أو تعرض لخيانة عظمى. كأن انتهاء الحب جريمة لا يغفرها الضمير الأخلاقي. لكن الواقع أن انتهاء الحب لا يعني أن الحب كان كذبة في البداية، بل كان كائنا حيًّا، قد يمرض، قد يشيخ وقد يموت. الأسطورة لا تعترف بالموت الطبيعي للعلاقات، ولهذا تعمّق الشعور بالذنب بدل أن تفتح باب النضج أو التجاوز نحو علاقات أكثر نضجًا.

ليست قيمة الحب في أن يكون أبديًا، بل في أن يكون صادقًا في كلِ أحواله.

4 - نقد أسطورة «القدَر العاطفي»

ليس بعيدًا عن أسطورة توأم الرّوح، شاع في خيال الناس البسطاء أنّ اللقاء العاطفي قدَر، وأنّ الحب يقع بأمر من غيبٍ مكتوب منذ الأزل، فلا اختيار فيه ولا حرية ولا مسؤولية. يقال: «لقد كان مقدَّرًا أن نلتقي». ويقال أيضًا: «هذا هو نصيبي المحتوم الذي عليّ أن أتحمله». وفي اللغات الشعبية ترد عبارات من قبيل: «قسمة ونصيب». بهذا النحو يظن العاشق أنه خاضع لقوة عليا تُسيِّره كما تُسيِّر الرياح الأوراق المترامية. ربما الأمر كذلك في مستوى الكليات، لكن التفاصيل متروكة للناس.

العاطفة ليست قدَرًا، بل مجموعة من الدوافع، بعضها ظاهر وبعضها الآخر خفيّ. نحن ننجذب لأنّ دواخلنا تنجذب، أشباحنا تنجذب، ظلالنا تنجذب، وجروحنا تنجذب، لا لأن أسماءنا بين يدَي القدر، وهو بدوره يكتبها على جبين المحبوب(ة) ولا رادّ لما كتبه.

ليس القدر العاطفي سوى ستار أسطوري نضعه على جهلنا بأعماقنا. فبدل أن نعترف أن الحب ينبع من دوافع وميول كامنة في أعماق الذات، نعلّق الأمر على مشيئة غيبية، كما لو أننا نقول، لسنا مسؤولين عما نشعر به. لذلك لا تخلو أسطورة القدر العاطفي من مخاطر وأضرار، طالما تعفي الإنسان من مسؤولية سلوكه العاطفي.

حين يصدّق المرء أنه مسيَّر عاطفيًا، فإنه قد يبرر خياناته، قد يبرر تعلّقه المرَضي، قد يُبرّر عجزه عن الاتصال وعجزه عن الانفصال، وقد يبرر حتى عنفه أو استسلامه للعنف! بينما الحقيقة أن الحب مسؤولية، وأن القلب أرض نزرعها ونعتني بها، ونختار بأنفسنا ما نغرسه فيها، سواء عن معرفة بالأمور أو عن جهل بعواقب الأمور.

في مجال العواطف لا يوجد قضاء أو قدر، بل توجد دوافع واعية أو لا واعية؛ حين تكون واعية نسمّيها خَيارا نابعًا من الذات، وحين تكون لا واعية نظنها قدرًا من الغيب.

هناك توصية لكارل يونغ، تختصر الموضوع: في انتظار أن تعي دوافعك اللاواعية، ستظل تسمّيها القدر.

تتعلّق شابة في مقتبل العمر برجل كهل يبتسم لها، فترى فيه السند والمخلّص من مشاكلها، فتندفع نحوه ولا تدرك دوافع الجروح التي تعود إلى العلاقة بالأب في أعماق الطفولة المنسية، وطالما لا تفهم دوافعها فهي تعتبرها قدَرًا.

شاب في مقتبل العمر ينجذب إلى كل امرأة يراها قوية، وقد نشأ يتيم الأم مع والد «ضعيف الشخصية»، وحين تعلق بامرأة «قوية الشخصية»، فقد رأى في اندفاعه قدَرًا مسطورًا.

ثم لا ننسى، كما يؤكد يونغ نفسه، أن بعض الدوافع اللاواعية موروثة عن تاريخ الآباء والأجداد، وعن حكاياتهم المبتورة والمتوارثة عبر الذاكرة الجينية، وطالما لا نمتلك وسائل قراءتها، نعتبرها قدرًا من الغيب.

كل من يزعم أنّ الحبّ قدَر مكتوب سيُغلق باب الحرية والمسؤولية بنحو نهائي. أما الذي يُدرك أن الحب دوافع يمكن الوعي ببعضها، فيملك أن يتحرر من الارتباطات المدمِّرة والعلاقات السامة، وأن يقترب من معنى الحب الناضج.

تحرير الحب من أسطورة القدَر لا يعني إنكار سحره وجاذبيته، بل العكس. فإننا ما إن نكتشف أن العاطفة ليست نصيبًا مفروضًا، بل اختيارٌ ينطلق من أعماقنا، حتى نزداد شعورًا بالمسؤولية، ونعمل على توطيد علاقة الحب بما يكفي ليحفظ كرامتنا، حتى ولو أخطأنا الاختيار.

المرافعة الثانية

كيف نفهم الحب؟

1 - الحبّ في الفلسفة

العلاقة بين الحب والحكمة غامضة لكنها عميقة، حيث أظهر كبار الصوفية ارتباط العشق الإلهي بالحكمة الإنسانية، كما أن الفلسفة في الاصطلاح اليوناني هي مَحبَّة الحكمة. هذا يؤكد ارتباط الحكمة بالمحبة.

محبّةُ الحكمة أن نُحِبَّ ما نتعلّم قبل أن نتعلّم ما نُحِبّ. فإذا وقع القلبُ في حبّ الحكمة تشبّعت مشاعر الحبّ بخصالها، فغلب عليها التعقّلُ والسكينة.

لكن، دعنا نكون صريحين في توضيح الإشكال:

إذا كانت غاية الفلسفة أن يُحرز الإنسان سيادته على نفسه، ويظفر بسلامه الداخلي، سيكون الحب أحد المفاهيم الأكثر إشكالية في تاريخ الفلسفة، طالما يثير مسألة صعبة:

«منذ أخذت مني قلبي وأنا أتبعك!» يقول لسان حال المحبين.

أفلا يكون الحبّ ضربًا من العبودية الوجدانية التي تهدد حرية الإنسان؟ ألا يكون نمطًا من الفتنة العاطفية التي تهدد السلام الداخلي للإنسان؟ ألا يبدو العاشق في مقامات أهل التصوف عبدًا ذليلاً لمعشوقه في كل أحواله؟ ألا يبدو العاشق في أناشيد أهل الشعر يتقلب على جمر لا يطاق؟ ألا يحرم الحبّ الإنسان من حريته الذاتية حين يربطه بإرادة الغير، مزاج الغير وغيرة الغير أيضًا؟ ألا يحرمه من سيادته على نفسه حين يجعله يمنح قلبه الوحيد إلى غيره، ثم يبقى تحت رحمته في انتظار الرحمة؟

«ارحمني!» هكذا يناجي المعشوق معشوقه في ليالي الصّمت والغياب.

ألا يحرمنا الحبّ من سكينتنا حين يفيض علينا بمواجع تقضّ المضاجع؟

ليس مستغربًا أن تكون علاقة الفلاسفة بالحب متوترة، فقد مجّدوه وفي الآن نفسه توجّسوا منه، ولديهم مفارقات محيّرة: سبينوزا الذي أقام فلسفته على الحب هان عليه أن يفك ارتباطه بمعشوقته لئلّا يكذب بخصوص هويته الدينية؛ كانط الذي عاش بأناقة، طلب من معشوقته مهلة للتفكير قبل اتخاذ قرار الزواج منها، لكنه تأخر لسنوات، ولما ذهب إليها كانت قد تزوجت وأنجبت؛ كيركغارد الذي أقام فلسفته على الحب، هجر خطيبته في ليلة زفافهما لئلا يربط قلبه بأي شيء زائل؛ سارتر وسيمون دي بوفوار اضطرّا إلى نصف زواج، ونصف تعلق، لأجل نصف ألم.

واضح أيضا أنّ الرهان على الحب قد عظُم في الفلسفة الراهنة، حيث صار الفلاسفة يعتبرون الحب رهانًا أساسيًّا لأجل إنقاذ الإنسان من مخاطر العنف، الحرب، الفاشية، التقنية، الذكاء الاصطناعي، الإرهاب العالمي والعدمية.

لكن السؤال الفلسفي الأساسي هنا: كيف يمكن للإنسان أن يستمتع بالحب من دون أن يفقد سيادته على ذاته، من دون أن يفقد سلامه الداخلي، من دون أن يفقد حريته، كرامته، وأحلامه، ومن دون أن يفقد في النهاية جودة الحياة، والتي هي غاية الحياة، وغاية الفلسفة أيضًا؟

2 - الحب مفهوم فلسفي

المفهومُ هو ما نفهمه ونفهم به ونتفاهم به ومن خلاله، لذلك يشترط في «المفهوم» أن يكون مفهومًا. وحين نسعى إلى فهم الحب، فنحن

نطلب له هذه الدلالات الثلاث معًا: أن نفهمه، وأن نفهم به، وأن نتفاهم من خلاله.

تضعنا محاولةُ الفهم أمام خيارين كلاسيكيين: أن نُدرِجه في خانة «الحاجة» على نحوٍ أفلاطوني، أو في خانة «الرغبة» على نحوٍ سبينوزي. والرؤيتان وجيهتان، غير أنّ كُلًّا منهما تجرّ أسئلةً عسيرة.

لنبدأ بفرضية «الحاجة». لا أحد ينكر حاجتنا إلى الحب، بل كثيرًا ما نشعر بأن الطلب يفوق العرض، حتى أن شكاوى الأزواج والزوجات تتلخص في معادلةٍ واحدة: «شريك حياتي لا يعطيني ما يكفي من الحب». لكن هنا يبرز السؤال المفصلي: ما الحب؟ وأيُّ شيءٍ نعنيه حين نصفه بـ«الحاجة»؟

الحاجة، بطبيعتها، تزول بزوال موضوعها. ما إن نتناول طعامًا حتى تخفّ حاجة الجوع إلى حين، وما إن يُقضى الوطرُ الجنسي حتى يهدأ الطلبُ مؤقتًا.

حين أشعر بحاجة ما فأنا لا أحتاجُ إلّا إلى ما ينقصني، فإذا حضر ما كان ينقص انتفت الحاجة إليه. وإذا عومل الحبُّ بهذه الآلية، وقعنا في مفارقة: ما إن «يحصل كلٌّ منّا على الآخر» حتى يُفترض أن تخفّ الحاجة، ومن هذا المنحدر يتسرّب الملل إلى حصون الحياة المشتركة، قبل أن يلجأ البعض إلى تسوياتٍ في العلن أو حيلٍ في الخفاء، ويغرق كثيرون في صقيع الطلاق الصامت.

ومع ذلك، ثمة استدراكٌ مُهمّ: الحاجة إلى الحب تبدو من النوع الذي لا يُستنفَد. فقد يقول المرء: «شبعتُ من الأكل»، أو «شبعتُ من الجنس»، وهذا مفهوم؛ أمّا أن يقول: «شبعتُ من الحب» فتكاد العبارة تكون نفيًا لمعنى الحب نفسه. الحب لا يعرف حالةَ شبع، لأنه ليس موضوعًا يُستهلَك، بل هو علاقةٌ تتجدّد، ورعايةٌ تُنمّى، واعترافٌ متبادل لا سقف له.

إذا كان الأمر كذلك، فما جدوى السعي إلى «إشباع» ما لا يُشبَع؟

ربما مشكلتنا أننا خلطنا بين أمرين: «الحاجة إلى أن نُحَبّ» و«القدرة على أن نُحِبّ». الأولى تُروى نسبيًا بالحنان والاعتراف والأمان، فتَهدأ ولا تنطفئ، أمّا الثانية فمهارةٌ أخلاقية تنمو بالممارسة، وتزداد بالعطاء، ولا تُقاس بمنطق النقص والامتلاء. حين نصحّح هذا الخلط، يتبدّى أن الحبّ أقلُّ ما يكون «حاجة تُلبّى»، وأكثرُ ما يكون «فنًّا يُصان» و«قدرةً تُنمّى».

ينبغي أن نفترض بأنّ الحب ليس حاجة تنقصنا، وبالتالي ليس أمرًا نسعى إلى تعويضه، بل طاقة حيوية تدفع العشاق إلى النمو المشترك. وذلك عندما يكون الحب ناضجًا، لا مجرد نزوة عابرة أو تعلق وسواسي.

حين يُحبّني أحد، أدرك أنّ حبَّه لي ليس عقدًا مُبرَمًا ولا توقيعًا على بياض، بل ثقة تستدعي تجديدًا يوميًّا. لذلك أجتهدُ لأصونه وأستحقَّه كلَّ يوم. فهو لا يحبّ فيَّ البُعدَ الغريزيَّ وحده -وهذا ممكنٌ حتى بلا حكاياتِ حبّ- بل يحبّ الأبعادَ الوجوديّة التي ينبغي أن تنمو فيَّ دائمًا: تهذيبُ المعاملة، ذوقُ العيش، أناقةُ المظهر، سكينةُ الروح، رباطةُ الجأش، حسنُ الإصغاء، طيب الكلام، نقاء القلب وفن المسافة.

غير أنّ حصرَ الحبّ في الرغبة اختزال مُخِلّ؛ فالجنسُ رغبةٌ صادقةٌ قويّة، ومع ذلك قد تقع الرغبة بلا حبّ. قد أشتهيكَ جنسيًّا، ولا يلزم من ذلك أنّني أحبّك. بل حتّى إذا انحصرت رغبتي فيك وحدك، أو تمنّيتُك لي وحدي، فلا ينهض ذلك برهانًا على المحبّة. مؤسفٌ أن تكون الأمورُ كذلك، لكنها كذلك. فالحبّ أوسعُ من مجرّد الاشتهاء والتملّك.

ثمَّ إنّ للرغبة معضلة عَصيّة: سواء تعلّقَتْ بـ«أن أكون» أو بـ«أن أمتلك»، فطبعُها التمدّدُ والازدياد؛ ما إن تُستجابُ حتى تُنجبَ رغبةً أخرى. أبدأُ بوظيفة، ثم أتشوّفُ إلى رئاسةِ مصلحة، فرئاسة قسمٍ،

فمدير، إلخ. أتطلّعُ في الرياضة إلى بطولة محليّة، فإذا نِلتُها انساقت النفسُ إلى أخرى وطنية ثم قارّية ثم عالمية، إلخ. هكذا تعملُ الرغبة: تتكاثرُ بالاستجابة، وتطلبُ المزيدَ كلّما أُشبِعت، فلا تعرفُ حدًّا ولا اكتفاء.

على مستوى الرغبة الجسديّة قد يرغبُ الرجل في كلِّ امرأةٍ يتفق شكلها مع مزاجه من غير أن يقومَ أيُّ تواصُل معها، وقد يشتهي جمع أكثر من امرأة. وهناك رجال جمعوا عشرات كما فعل بعضُ السلاطين والخلفاء والأباطرة قديمًا. وكذلك هو حال المرأةُ وإن كبّلتها أعرافُ الكتمان. أمّا في تجربةِ الحبّ فالأمر مختلف: تتحوّل الرغبة من نزوعٍ مشتّتٍ إلى انشدادٍ مُفرد، فتصبح تثبيتًا دراميًّا تحت وعدٍ ملحميّ صامت: «أنتَ/ أنتِ وحدك، أو لا أحد».

ما مشكلة الرغبة إذًا؟

الرغبة هي مجموع الغرائز الإنسانية التي يعمل البشر على ضبطها على نحوٍ أو آخر، ولذلك هي خاصية إنسانية خالصة. الحيوان مبرمج على ما يرغَب وما لا يرغب، وفي الجنس غالبًا ما تكون له ضوابط لا إرادية، وهذا عكس الإنسان الذي تكون رغباته منفلتة من قيود الطبيعة. فقد يرغب في أي شيء، كل شيء، أو لا شيء، وقد يرغب في ما كان ينفر منه أو ينفر مما كان يرغب فيه، وقد يرغب في ما ينفعه كما يرغب في ما يضرّه.

لا ضوابط لرغبات الإنسان، بل لا حدود لها. ولذلك قونن الإنسان كثيرًا من هذه الرغبات التي قد تضرّ بغيره، وفرض ضوابط حتى على الرغبة الجنسية، كما أنشأ ضوابط أخلاقية على رغبات كثيرة، لكن الضوابط التي تمنع الإنسان من انفلات رغباته تختلف بين إنسان وآخر.

إلا أن الحب شكل مختلف من الرغبة، إنه يخضع لقدر من التثبيت، وهنا تنشأ تعقيداته.

الرغبة سواء في الجنس أو غيره تغلي في كل اتجاه وبلا حدود، لكنها

في حالة الحب عليها أن تتواضع، عليها أن تكتسب القناعة والتي هي شرط إنسانية الإنسان. لذلك دور الحب العمل على ترويض الرغبة. وهنا لا أقصد الرغبة الجنسية وحدها، بل أقصد كل الرغبات الإنسانية، سواء أكانت رغبات الكينونة أم رغبات التملك، أم رغبات الجسد.

حين تبلغ الرغبة في السلطة أو المال أو الشهرة من الجموح ما قد يؤذيها ويؤذي صاحبها كما يحدث للكثيرين، فلن يقدر على لجمها وترويضها سوى الحب.

قد لا ينجح الحب دائمًا، قد يفشل أحيانًا، لا ننكر ذلك، لكن حينها كل ما يحتاجه المرء هو تحقيق المعادلة الآتية:

إن لم نقع في حب ناضج بما يكفي، فلنغادره بنضج كافٍ.

3 - الحب طاقة روحية

ليس الحب مجرد عاطفة عابرة ولا مجرد ميل جسدي أو انفعال نفسي. وهو ليس مجرد حدث عابر، بل طاقة روحية تتدفق عبر الكائنات كما يتدفق النور في الآفاق أو كما تسري الكهرباء في الأسلاك. إنّه يعمل كقوة إشعاعية تتجاوز حدود الفرد لتربطه بالآخرين، بالعالم، وبالوجود ذاته. ليس في هذا أيّ سحر أو خرافة، إنه الواقع الذي تؤكده فيزياء الكم، وبيولوجيا النباتات، وقد ذكرنا في هذا الباب ما يكفي.

الحب، بهذا المعنى، ليس حدثًا يقع للإنسان من الخارج، بل قوة روحية وعقلية، أشبه بما يسميه الفلاسفة «الطاقة الحيوية»، وأقرب إلى ما يسميه المتصوفة «النفحة» أو «الوهج».

حين نقول إن الحب طاقة روحية فنحن نعتبره قدرة على الإحياء: يحيي ما هو ذابل فينا، ينير ما هو معتم، ويبعث الدفء في أكثر المساحات برودة داخل أرواحنا. إنه مثل النور الذي لا يُرى في ذاته لكن الأشياء تُرى به.

الطاقة الروحية والعقلية للحب تتجلّى في ثلاثة مستويات، أبسّطها على النحو الآتي:

في المستوى الفردي:

الحب يوقظ فينا الحسّ بالمعنى. إنّه ما يجعل الاستمرار ممكنًا رغم التحديات، وما يمنح لحظات الحياة العادية إشراقًا خفيًا يأتي دون انتظار. ذلك أننا كائناتٌ قصّة لا كائناتُ شكلٍ فقط. المظهر شرارة تشعل الشغف، أمّا القصّة فهي الوقود الذي يحركُ الرحلة. من يمنحك إمكانيّة أن تعيش معه حوارًا يتجدّد، ومعنى يتّسع، ومشاريع صغرى تتواصل، سيبدو أكثر جاذبية.

في المستوى العاطفي:

ليس الحب مجرّد انجذاب جسدي أو شغف غامض، بل هو انجذاب عقلي يمر عبر الذكاء. ففي الحضارة المعاصرة لم تعد الجاذبية الجنسية منفصلة عن الحياة الذكية. صحيح أن أثر الشكل الخارجي للجسد يعلو على المدى القصير، وفي العلاقات العابرة، لكن في الأفق البعيد تعلو إشارات العقل والعاطفة والقيم. هنا لا نبحث عن «أجمل صورة» بقدر ما نبحث عن «أفضل إمكانيّة للعيش»، عن شخصٍ يُحسن أن يكون شريكًا دائمًا في التفاصيل اليومية، يحسن التعامل مع ضيق الوقت الذي هو صفة حياتنا المعاصرة، يحسن توزيع الصمت والكلام، ترتيب الفوضى الصغيرة، إلخ.

في المستوى الأخلاقي:

الحبّ طاقة روحيّة تتخطّى هوى الجسد، لتغدو التزامًا بالآخر: صونًا لكرامته، وحرصًا على سلامته، وإحساسًا مسؤولًا نحوه. وقد صار الانجذابُ في زمننا يمرّ عبر العقل أكثر فأكثر، حتى غدا الذكاءُ

معيارًا حاسمًا في الاختيار. فنحن كائنات تعقل وتبحث عن شريكٍ يُحسِن العيش معنا على المدى الطويل: فهمًا، وتواصلاً، ورعايةً، ومعنى. عندئذٍ يقترب الحبّ من الواجب الأخلاقي، بل يؤسِّس له.

في المستوى الكوني:

الحب لا يربط بين شخصين فحسب، بل نسيج يربط الكائن بالوجود برمّته. الحب هو ما يجعل الإنسان يشعر بانتمائه إلى الكلّ، كما لو أن كل ورقة شجر، كل طائر وكل قطرة مطر، تتحدث معه بلغة سرّية، وتذكّره بالطيف الكوني الذي يجعلنا نحسّ أننا لسنا وحدنا في هذا العالم.

الحب طاقة شبيهة بكهرباء روحية، يمكنها أن تضيء مصابيح الوعي، أو أن تصعق إذا لم تُهذَّب. وما يحتاجه الإنسان ليس أن «يسقط في الحب» كما يقال عادة، بل أن يرقى بالحب ليكون طاقة واعية، متزنة ومنفتحة، قادرة على الإشفاء لا على الإيذاء.

طاقة الحب لا تُستهلك بالإنفاق، بل تتجدد كلما أعطينا. كلما أحببنا أكثر شعرنا أنّ داخلنا ينفتح أكثر، وأن القدرة على الحب تفيض أكثر فأكثر.

الحب إذًا ليس مجرد تجربة شخصية، بل هو أيضًا إمكان روحي يُعيد تشكيل علاقتنا بالوجود بأكمله. إنه القوة التي تجعل الإنسان يخرج من عزلته الوجودية، ليلتحق برحابة الوجود.

بهذا المعنى يكون الحب طاقة روحية كونية تحفظ للحياة حيويتها، وللحياة الذكية معناها.

4 - الحب مشروع لم يكتمل بعد

الحبّ، مثل الوجود والحداثة وأشياء أخرى، مشروعٌ لم يكتمل. إنه حديثُ الولادة نسبيًا في تاريخنا الأخلاقي، وإن كان قد تبلور مبكّرًا في لغة الفنّ والأدب؛ فالأحلام الجمالية تسبق الواقع وتدلّ عليه، ولهذا نقرأ الأدب: لأنه يستشرف ما يتأخّر المجتمع عن بلوغه.

لا أنكر أنّ الحبّ نشأ جنينًا في مخيّلة الشعر والحكاية، يتغذى من القصص الشعبيّة وأهازيج الجدّات، بوصفه تعويضًا رمزيًّا عن واقع كان لا يزال يقمع الاستقلال العاطفي للأفراد باسم العشيرة والجماعة في مجتمعات الزراعة التقليديّة. غير أن الحب لم يتشكل في الواقع إلّا مع قيام المدينة الحديثة: مع اقتصاد العمل المأجور، وخروج المرأة إلى المجال العام واستقلالها النسبيّ ماليًّا واجتماعيًّا، ومن ثمّ ترسّخ مبدأ الاعتراف المتبادل والمتكافئ بين الذوات على النحو الهيغلي. هنالك فقط اكتسبت عبارة «أحبّك... وأنا أيضًا» معناها الكامل. إذ لا يقوم الحبّ إلّا بين كائنين متكافئين في الكينونة.

قبل ذلك ماذا كان؟

كان الحب جنينًا في رحم الأدب إذًا.

لكن، ماذا عن الأسرة؟

حتى في الروابط الأسرية والزوجية ورعاية الأبناء لم يترسّخ الحبّ كقيمةٍ أخلاقيةٍ مُعلَنة إلّا منذ عقود قليلة. قبل ذلك كانت أعمدة التنشئة تقوم على العنف والطاعة والعقاب والتلقين، في مناخ يملؤه السخط والتأثيم والتذمّر.

وماذا عن المدرسة؟

في حجرات التدريس لم يبدأ الحبّ، بوصفه رعاية واحترامًا لكرامة المتعلّم، إلا متأخّرًا، بعد زمنٍ كانت فيه «الفلقة» والهذر والتسرّب جزءًا من المشهد التعليمي.

وماذا عن الزواج؟

الزواج القائم على الحبّ لا يزيد عمره العالمي، على أبعد تقدير، على قرنٍ أو قرنين من الزمن. ذاكرة آبائنا لا تزال تروي كيف كانت الروابط تُعقد بالتوافقات العائلية والقبلية، وبمفاهيم تحطّ من الكرامة في بعض الأحيان: ستر العرض، حفظ الفرج، طاعة الزوج، بيت

الطاعة، وذلك في أجواءٍ كثيرًا ما شحنتها الضربات والهجر والنشوز وسموم العنف المكتوم.

أما السياسة فلا تزال هي الحقل الأكثر تخلّفًا عن ثورة الحبّ، إذ تقوم روابطها في الغالب على الغلبة والتمكين والمكر والدسائس.

لهذا ليس مبالغةً أن أقول: تحديث الروابط الإنسانية يعني الانتقال من علاقاتٍ قائمة على الطاعة والخوف والقوّة والعصمة والتستّر، إلى علاقاتٍ تؤسّسها قيمة الحبّ. وإذا كانت الحداثة «مشروعًا لم يكتمل» كما يؤكد هابرماس، فلأنّ ثورة الحبّ لا تزال في أطوارها الجنينية.

صحيحٌ أن الإنسان لا يزال قادرًا على ممارسة الجنس من دون حبّ، كما فعل الأسلاف، بدافع الضرورة البيولوجية، لكنّ دافع الحبّ لدى الإنسان المعاصر في نموٍّ مضطرد. وهذا ما يتيح إنقاذ ما هو إنسانيّ في الإنسان، حتى في ظلّ رأسماليةٍ مُضارِبة وتكنولوجياتٍ فائقة الذكاء. وقد ساهمت الديانات الكبرى في هذا الارتقاء العاطفي حين نزّهت القرب الروحي وجعلت «الصلاة» في جوهرها نوعًا من المحبّة الخالصة والتقرب بلا قرابين. وقد حفظت التجربة الصوفية هذا الجوهر فبلورت مفهوم العشق الإلهي، وتلاقت معه الفنون الجميلة، الموسيقى والرقص والأدب، فوسّعت حساسيّتنا للحبّ وأقامت له لغته وطقوسه.

تُحاوِل بعض القراءات أن تجعل ارتفاع نسب الطلاق دليلاً على فشل الحبّ. أمّا القراءة الأنسب فترى فيه إصرارًا على البحث عن حبٍّ صالح حين يتعذّر تجديد الحبّ القائم. فالحياة اليومية تُظهر أن زيجات كثيرة تستمرّ بلا حبّ فقط لأنّ أصحابها يئسوا من فرصة أخرى. ليست المشكلة في «طبيعة الحبّ» كما يهوى بعض الفلاسفة أن يقولوا، بل في أنّ بنية المجتمع لم تتهيّأ تمامًا للحبّ: الأسرة والمدرسة والعمل والسياسة لم تُبنَ بعد على ميثاق الرعاية والحنان والاعتراف المتبادل.

لكن، ليس مستغرَبًا أن يصبح الحبّ اليوم مفهومًا مركزيًا لدى

فلاسفة معاصرين ذوي حضورٍ واسع. فهذا مؤشرٌ على وعيٍ حضارتنا بالحاجة إلى الدفاع عن الحبّ ضدّ حملاتٍ إلكترونية عابرة تُصوّره فخًّا ينبغي للرجل أن يحذر منه. تلك هزّاتٌ ارتدادية يائسة أمام تقدّم أخلاقيّ لا يُردّ.

إنّ تعقيدات الحبّ وتوتّراته، بل وخيباته ومآسيه، لا تعود إلى مأساويةٍ أصيلة في الحبّ، بل إلى أنّ ثورة الحبّ لم تكتمل ولم تكتسح بعد أهمّ مجالات الحضارة. وحتى في الفلسفة لم تتكثّف الكتابات المتخصّصة في مفهوم الحبّ إلا خلال العقود الأخيرة. لذلك قد تحتاج هذه الثورة إلى عشرات السنين الإضافية قبل أن نروّض الوحش البدائي القابع فينا. وما يلزمنا الآن هو أن نُسهم في هذه الصيرورة بالتربية والإبداع والتفكير النقدي، وبالعمل اليومي الهادئ على تنمية القدرة على الحبّ.

5 - الحبّ حافز للحياة

نُولَد ولا نعرف معنى ولا هدفًا ولا غاية، ونبدأ رحلتنا على مسالك الوجود الغامض. وكلما تقدمنا في مراحل الحياة تزداد حاجتنا إلى مَن يُشعرنا بأنّ وجودنا له ضرورة وقيمة، نحتاج إلى نظراتٍ تميّزنا من بين الجميع، إلى صوتٍ يخاطبنا بنبرةٍ تختلف عن باقي الأصوات، وفوق كل هذا نحتاج إلى مَن يقول لنا: «أحبّك».

الحبّ تِرياقٌ لفقدان المعنى. غير أنّه، ككلّ ترياق، قد يتحوّل إلى سمٍّ قاتل إن أُسيءَ فهمُه أو أُسيءَ استعمالُه.

كثيرًا ما نظنّ أنّنا بلغنا الحبّ، قبل أن نكتشف أنّ ما بلغناه كان سرابًا. وفي غياب معيارٍ واضح نفرّق به بين الحب الحقيقيّ والحب الزائف، يستبدّ بنا التوتّر مع كلّ تجربة جديدة: أهو حبٌّ هذه المرّة أم هو وَهمٌ آخر؟

لذلك، يمكنني أن أقترح معيارًا بسيطًا وواضحًا: الحبّ الحقيقيّ

يُنمّيك. بعد كلّ لقاءٍ معه تشعر بنشاط أكبر، تعمل أفضل، تقرأ أفضل، تفكّر أفضل، وتُحسّ بالعالم على نحوٍ أوسع. أمّا الحبّ الزائف فيستنزف طاقتك لقاءً بعد لقاء، حتى ينزف القلب في النهاية لأجل لا شيء. إنّهاء ارتباطٍ لا يُشجّع على النموّ قرارٌ مؤلم، لكنه ألمٌ عابر يجنّبك ألمًا دائمًا.

العاشق الحقّ لا يقصّ جناحيك خوفًا من فراقٍ محتمل، بل يساعدك على اكتشاف النَّسر الكامن فيك، أيًّا كانت مآلات الطيران، ما دامت تلك هي إرادة الحياة ورسالة الحبّ. فالحبّ يمنحنا فرصة أن نصير أفضلَ نسخةٍ ممكنةٍ من أنفسنا: أن نعتني بهندامنا وكلامنا وأعمالنا، أن نعتني بصحتنا وأسلوبنا في الحياة، وأن نمتلك شجاعة العيش وحب الحياة.

يَلتبس الأمر على كثيرين لأنّ لديهم تصوّرًا خاطئًا للحبّ: يظنّونه قبولًا جامدًا «كما هو» فلا يشجعون أي عملية تحسُّن، بل يَقرنون الوفاء بثباتِ العاشق وامتناعِه عن التطور. وبالتالي يتحوّل الحبّ من تجربةٍ تبعث على الفرح والنمو إلى تجربةٍ تُنتج الذبول والحزن. والحال أنّ الوقوع في الحبّ ينبغي أن يحفّز على النموّ. لذلك فإنّ الوقوع الحسن قليل. لكن الأمر هنا أشبه بكرة القدم، حيث مهما تكن الأهداف قليلة، فإنها تكفي لحسم المباراة. لكن، وأيضًا، في الملعب كما في الحياة، لا تكفي مهارات الجسد ما لم تُوازِها مهاراتُ الذكاء.

يبدو في الظاهر أنّ الحبّ والعقل ضدّان لا يجتمعان: كثيرًا ما تنسحب حساباتُ العقل البارد من مناطق الحبّ الملتهبة، وكثيرًا ما يخبو لهيب الحبّ أمام يقين العقل. لكن المفارقة أنّ الحبّ نفسَه ينهل من أشرف طبقاتنا الذهنيّة، ويتميّز بذلك عن دافع الجنس ذي الجذور الأقدم. الفارق بينهما يُشبه الفارق بين الجوع والشهيّة: كلاهما يدفع إلى الأكل، لكن الجوع حاجةٌ بيولوجيّةٌ تقول «أحتاج أن آكل ولو أيّ شيء»، بينما الشهيّة نزوعٌ تأمّليّ يقول «أرغب في طعامٍ محدّد». كذلك الجنس دافعٌ عامّ، أمّا الحبّ فهو رغبةٌ واعيةٌ بشخصٍ مُعيَّن: إن اشتدّ

الحبّ لا أحتاج «أيَّ أحد»، بل هناك «واحد محدّد»، يستدعيه مخزونُ الذاكرة وممكناتُ الخيال.

عبارة «أيّ أحد»، لا تُشير في الواقع إلى أيّ أحد، بينما عبارة «واحد محدّد»، تُشير إلى ذاك الآخر الذي ليس «غير الذات»، ليس «ذاتًا أخرى» وحسب، بل هو «الذات الأخرى» بألف ولام التعريف. حيث لا يكون الأمر مجرد تقابل بين أنا وأنت، بل يكون تقابلًا بين الأنا والأنت. الأنا كتفرد مطلق مقابل الأنت كتفرد مطلق. ذاتان متفردتان تقرران النموَّ جنبًا إلى جنب.

حين نقول «نُحبّ بعضنا بعضًا» فمعناه أنّنا نريد أن ننمو معًا إلى أقصى الحدود وإلى آخر الممكنات.

ولِمَ السعيُ إلى اعترافِ شخصٍ واحدٍ بعينه، إذا كانت كلّ ذات، كما عند هيغل، تطلب اعتراف الآخرين أجمعين؟

لأنّ للحبّ سرًّا لا تملكه الجموع.

انظرْ إلى الملاعب:

يسجّل اللاعب هدفًا مدويًا، تهتف له آلافُ الحناجر، ومع ذلك يركض صوب المدرّج الذي تجلس فيه حبيبتُه/ أمُّه/ رفيقتُه، يرسم بيديه إشارة القلب. اعترافُ الواحد قد يساوي ضجيجَ الجميع. في الحبّ نقول: «أرغب في هذا الشخص بالذات، وسأسعى ليراني أفضل». عندئذٍ يصبح حضوره في المقاعد شجرةً تُخفي غابة التّصفيق كلّها.

ليس الحبّ حاجةً تنطفئ بالشّبع، ولا رغبةً استهلاكيّةً لا تشبع. إنّه طاقةٌ روحيّةٌ تأمّليّة تساعد الإنسان على السموّ الوجدانيّ والتهذيب الأخلاقيّ. ولهذا ينسجم مع المقاصد العليا لكثير من الخبرات الدينيّة. أدركَ ذلك روّاد التصوّف ومصلحون كُثر في الأديان كافّة.

الحبّ الحقيقيّ يوسّعك. فإذا ضاق بك بعد كلّ لقاء، فليس ذاك حبًّا

بل مجرد سراب. وإذا نما بك، وأعاد لك معنى وجودك، وأطلق النسر الكامن فيك، فذاك هو الطريق.

6 - الحب عوَزٌ غير قابل للإشباع

«ماء العشق أشربه فأزداد عطشًا!» تلك شكوى كل الذين ذاقوا العشق منذ غابر العصور إلى اليوم. كيف نفسر هذا اللاّشبع في عوالم العشق؟

هناك تفسيران ممكنان:

التفسير الأول: إذا كانت الحاجة إلى الحب لا تعرف الاكتفاء، فلأنّ الحب بطبيعته تبادلي، قائم على رجع الصدى. فالحب من طرف واحد سرعان ما يذبُل، إلاّ إذا تحوّل إلى تعلّق مرضيّ. الحب لا يكون إلا هكذا: ما أمنحه لك أستعيده منك في اللحظة ذاتها. حين أمدّ يدي إليك ينبغي أن تتجاوب يدك حالاً، وإلاّ انقطع الحبل الخفيّ بيننا. حين أقبّلك لا بدّ أن تتجاوب شفتاك في اللحظة نفسها، وإلاّ انكسرت الجرّة الهشّة التي تحفظ ماء الروح. وحين أهمس: «أحبك»، فلا بد أن يجيء صدى صوتك من دون تردّد: «وأنا أيضًا». وإلاّ انتهى الكلام قبل أن تبدأ الحكاية. فالحب ليس وعدًا مؤجّلاً، بل أخذٌ وعطاء يتمّ التعبير عنه في اللحظة نفسها، من دون أن يعني أن الردّ يجب بالضرورة أن يكون مساويًا للعطاء، فالبشر مختلفون ولكل منهم ردة فعله، وهذا ما نتعلمه عبر المعايشة، فقد يكون أحد الطرفين قادرًا على التعبير عن مشاعره بالكلام أكثر من الطرف الآخر، أو عنده قدرة مالية أكبر... إلخ. المهم الشعور الفعلي بأنه يبادله وأن هذه المبادلة تكفي لاستمرار نمو الحب. بهذا التبادل يظلّ الميزان قائمًا، فلا يطغى طرف على آخر، والميزان هنا ليس توازن كفّتين، بل هو توازن المشاعر وليس الأدوات أو الوسائل.

التفسير الثاني: ليست الحاجة إلى الحب دائمة إلاّ لأنّ إشباعها لا

يكتمل. مثلًا، يسكنني جزء أنثوي ناقص، أسعى إلى إكماله من خلال المرأة التي أعانقها. في المستوى الميثولوجي فإن حواء التي كانت ضلعًا من آدم وفق بعض المرجعيات والتفاسير، سيمثل انفصالها انشطارًا للجزء الأنثوي. وبالتالي يكون الحب هو حنين البعض إلى بعضه كما يقول ابن عربي. إلّا أنّ التطلع إلى الاكتمال لا يتحقق بالتمام طالما جزئي الأنثوي غير قابل للاكتمال. مهما اعتصرتُ المرأة بين ذراعيَّ وحاولتُ الالتصاق بها فلن تعود إلى السكن في أضلعي، سيبقى جزئي الأنثوي ناقصًا، وبدورها يظل جزؤها الذكوري ناقصًا. بهذا النحو تظل الحاجة إلى الحب غير قابلة للإشباع، ما يبرر الخيبة الملازمة لمعظم قصص الحب في تاريخ البشرية.

في معظم اللغات الأوروبية يُستَحضَر الحبّ عبر معجم الفقد والنقص: «أنتَ/ أنتِ تنقصني» و«أفتقدك». وهو ما يومئ إلى عوزٍ بنيوي في العشق، حيث يظل العطش متّقدًا مهما بلغ الارتواء. فالإشباع، أيًّا كان نوعه، لا يُختزل في بعده البيولوجي وحده، بل يحتاج إلى تأطير نظري يواكبه في المراحل كافة: قبله، أثناءه وبعده.

ليست التصوّرات النظرية ترفًا زائدًا عن حاجات الناس، بل هي من صميم الحياة العاقلة، حتى بالنسبة إلى البسطاء منهم. فالتفاحة التي أتناولها الآن لا أتناولها باليد والفم وحدهما، بل أتناولها بالذهن أيضًا. ليست مجرّد شيء حسيّ، بل ثمرة مشحونة بالرموز والأساطير والحكايات واللغة. هذه الحمولة الرمزية لا تؤثّر فقط في شهيّة الأكل، بل تترك أثرها في مشاعر ما بعد الأكل: الفرح أو المتعة أو القلق.

كذلك نظرتي إلى المرأة التي أمارس معها الحبّ، فهي لا تخلو من إسقاطات اللاوعي الجمعي: حواء الأولى، الحريم والجواري، ألف ليلة وليلة، الأميرات الحسناوات والساحرات الشريرات، وربما بعض ظلال الطفولة وذكريات الأمهات وبنات الحيّ. كل ذلك ينعكس على

مشاعر ما بعد الوصال: ارتياح، أو ذنب، أو سكينة، أو توتّر، أو نومٌ هانئ يشبه نوم الرضيع الآمن.

في كل الحالات إن لم يكن الإشباع نظريًا أيضًا فإنّ الجوع لا ينقطع، أكان جوعًا غذائيًا أم جنسيًا. بل قد يستمر الجوع في عالم الأبدية وفق بعض التصورات الأخروية.

لا يتحقق الإشباع عبر علاقتنا بالشيء، بل من خلال فكرتنا حول ذلك الشيء، ومن خلال تمثّلنا له، وحجم تركيزنا الذهني أثناء الاستمتاع به، مع القدرة على التعامل في الأثناء مع جروح كامنة، وقصص منسية، وأحلام مجهضة.

هنا تتجلّى أهمية الحبّ في تهذيب الغرائز. حيث إنه يمنحها شكلاً أرقى ويسمح بإمكانية تأسيس أخلاقٍ للحضارة. بفضل الحبّ يستطيع الإنسان، بعد تحقّق وجوه كثيرة من الإشباع، أن يتحرّر من أسر الحاجة المباشرة ليساهم في التمدّن والعمران. وهذا ما أدركه باكرًا روّاد التصوف الفلسفي في الإسلام، حين رأوا في العشق سبيلاً لارتقاء النفس وترقية الوجود.

يتطلب الأمر إعادة بناء التعريف الذي يتمثله العقل العمومي لمفهوم الحب:

حين أُنزِلُ الحبَّ من مقامه إلى مرتبة الحاجة، وأُوكِل أمره إلى دَوافع الغريزة وحدها، سأكون كمن يدورُ حول ساقيةٍ لا ماءَ فيها. أطوفُ على الأجساد كعطشانٍ يُطارِدُ السراب، وأعبرُ سُرَى الليل بين الحانات كمن يفتّش عن نبعٍ بمنظارٍ لا يرى إلا الصحراء. ثم أعودُ كما خرجت: جائعًا إلى معنى، عطشان إلى اسم يذكرني بمن أنا. فالإشباعُ لا يُنالُ بالأجساد وحدها، بل حين يُستعادُ الحبُّ إلى مقامه: حضورٌ يَرْوِي الروح باللغة والخيال، وذِكْرٌ يُطمئن القلب بالكلمات والنظرات.

7 - الحبّ في منتصف العمر

الدافع إلى الحبّ لا يأتي من سلالة الدم، بل من سلالة الكلام. نحن لا نرث العشق عبر الجينات، بل نتشرّبه همسًا: حكايةً تُروى قبل النوم، أغنيةً تتسلّل من مطبخ الأم، قصيدةً تُوقظ أسماءنا، أسطورةً تنفخ في الأشياء سحرها، وديانةً تفتح للرحمة بابًا في القلب. هكذا تصير اللغة مهدَ الحبّ وهواءه معًا: لا تكتفي بوصفه بل تصنعه. نتعلم كيف نحبّ بالطريقة نفسها التي نتعلم بها أسماء الأشياء. فحيث يتّسع المعجم تتّسع القدرة على المحبّة، وحيث تضيق الكلمات يضيق الوجدان.

الحبّ الذي نبحث عنه في كل مكان، وقد نجده حيث لا نتوقع، هو أثر الوقع السحري لكلمة «أحبك» حين كنا نسمعها صغارًا، فنحاول في مطلع شبابنا أن نلقي بها كما نلقي بالحجر في بئر عميق، ويمضي وقت لنتعلم كيف نرخي السمع لوقعه المهيب في بئر الوجدان، ومن ثم نكتشف أننا أمام لعبة خطرة، لعبة لا ينبغي أن نلعب بها!

في تجربة الجنس يكون الأمر هيّنًا، إذ يكفي أن يتحقّق الإغراء. وهذا ما أوضح شوبنهاور كيفيّة تحققه، حيث يُمثل الإغراء حيلة تطورية لغاية تقويم النسل. ما يُفسر قصص الحب في فترة ريعان الشباب، ومرحلة الرومانسية، والتي هي الفترة الأنسب لجودة التناسل الطبيعي. لكن ذلك كله لا يفسر قصص الحب التي قد تحدث بكثافة بعد منتصف العمر، حين يدبُّ دفء الحب في عظام بدأ يصيبها الوهن، وتعود الحرارة إلى مفاصل بدأ يسكنها البرد، وتشدّ اليد على اليد في المنحدر الأخير للحياة. هناك يصير الحبّ أقلَّ امتثالاً لآليات الطبيعة، وأكثرَ اقترابًا من معنى الرعاية والأنس والوفاء. وبالتالي قد يصير الحب حبًا حقيقيًا إذًا.

صحيحٌ أنّ مشاعرَ النهايات تُنعش الحبّ، غير أنّ ما يقع بعد منتصف العمر أعمق: يتحرّر الحبّ تدريجيًّا من منطقِ النوع وبرنامجه التطوّري، ذلك الذي لطالما تحقّق أحيانًا على حساب الذائقة الثقافيّة والميل

الروحي. وعند هذه العتبة تتبدّى أزمةُ منتصف العمر لدى كثير من الأزواج، إذ يُعاد تعريف المعنى وترتيب الأولويّات.

وهكذا يحدث:

في ريعان الشباب، تطغى على الإنسان الدوافع البيولوجية عند اختيار شريك الحياة، إذ يكون التناسل، من منظور المشيئة التطورية، هو الغاية الكبرى. تحلم الفتاة اليافعة بشاب قويّ البنية، جميل الطلعة، يقودها في الغالب إلى مكان بعيد، فينطلق خيالها في الأفق البعيد كحصان جامح. غير أنّ الأمر لا يعدو أن يكون حيلة من حِيَل الحياة، إذ يسعى اللاوعي إلى جيناتٍ جديرة بالوراثة، وإلى زواج الأباعد ضمانًا للتنوع الجيني وتحسين النسل. بالمقابل، يحلم الشاب اليافع بفتاةٍ رشيقة القوام، تقيم في أرضٍ أخرى، حيث يتجسّد جمال الآخر؛ وهنا أيضًا، يبحث اللاوعي التطوّري للحياة على تنوّع وراثي يضمن نتائج أفضل.

لذلك، فإن الطوائف والمذاهب والعشائر التي ترفض التزاوج الخارجي تفسد خطة الحياة في تحسين النسل، ويصبح التمرد عليها ضرورة حيوية.

بعد منتصف العمر لا يبقى الوقت مناسبًا لجودة الإنجاب، فتسحب الحياة مخططها التناسلي التطوري، وتُدمر بويضات المرأة، وتُضعف تدريجيًا نطفة الرجل. بالتوازي، يتباطأ إنتاج الخلايا المنوية، وتتقلص الطاقة الجنسية، ما قد يترك جرحًا نرجسيًا في «الفُحولة».

بعيدًا عن الوساوس الشائعة لدى بعض كبار السن، فإن الحاجة إلى شريك يناسب النصف الثاني من الحياة يتضمن بعدًا إضافيًا يسمو قليلاً على البُعد التناسلي، هو «الوجه المقابل».

قديمًا جدًّا، قبل أن ينتصب أسلافنا واقفين، كانت المؤخرة هي الأكثر بروزًا (كان الذيل مناسبا إذا!). لكن، حتى ولو بدا الجنس في تلك الحقبة أكثر إمتاعًا على نحو استيهامي، فإن الحبّ لم يكن ممكنًا

بعد. لقد احتاجت بذرة الحب الأولى إلى مسار تطوري طويل الأمد، قبل أن يقف الإنسان منتصبا ويتقابل وجها لوجه، وقبل أن تتجه ملامح الوجه نحو التفرد والهوية الشخصية.

أحبك لأنّك أنت.. بوجهك، ملامحك، نظراتك، نبراتك.. لأنك أنت بالذات.

ذلك هو المغزى الذي قد لا ندركه إلّا بعد تراجع الضرورة التناسلية، بعد منتصف العمر أحيانًا.

أن نفقد جاذبيتنا أثناء الشيخوخة، فتلك قد تكون حيلة تطورية للحياة، طالما هناك عمر محدّد لجودة التناسل. ثم ماذا يبقى لنا بعد ذلك؟

الحب هو القدرة على مواصلة الجاذبية عن طريق النظرات والكلمات واللمسات.

يومًا ما سيفقد الجسد جاذبيته بقوة الزمن ومشيئة الحياة، لكن النظرات تزداد ألفة، والكلمات تزداد لهفة، واللمسات تزداد رأفة.

يومًا ما يشيخ الجسد، لكن الحب قادر على التخفيف من الخسارة.

8 - لماذا اثنان؟

لماذا اثنان بالضبط؟

لماذا لا تكون ثلاثة، أو أكثر؟

إذا استعرنا فكرة «الفقاعات» التي تحدّث عنها سلوتردايك، أمكننا افتراض «الفقاعة الثنائية»: ففي الصداقة قد تتشكّل جماعاتٌ تضم ثلاثة أو أكثر. كثيرًا ما تفضّل الآداب العالمية صيغة «الثلاثة» (الأصدقاء الثلاثة، الفرسان الثلاثة، الإخوة الثلاثة). مع ذلك، حتى حين تتكوّن صداقةٌ داخل مجموعة، فإن فقاعة الصداقة لا تستقرّ إلا على فقاعاتٍ جزئية من ثنائياتٍ صلبة: ثنائياتٍ تتفاهم أكثر، وتتناغم أكثر، وتتبادل

التعاطف بتركيزٍ أعلى. فالعين لا تستطيع أن تنظر في اللحظة نفسها إلى وجهين مختلفين. والإنسان يحتاج إلى مرآة واحدة يركز فيها.

الحبّ: فقاعة ثنائية بطبعها. لماذا؟

حتى لو افترضْنا إمكان علاقةٍ رومانسية بين أكثر من شخصين في الوقت نفسه، ثلاثة أو أربعة أو أكثر، فإن فقاعة المجموعة لا تدوم إلا إذا ساندتها فقاعاتٌ ثنائية تُشكّل لبناتِها الحاملة. فالحبّ، في جوهره، يشبه الرقص الثنائي: يحتاج إلى انسجام وإيقاعٍ وتوقيتٍ دقيق، وإلى تركيزٍ متبادل بين وجهين متقابلين. لذلكَ قد يَدير الإنسان أكثر من فقاعةٍ رومانسية في آنٍ واحد، لكن نجاح التجربة يظلّ رهنًا باحترام «الطابع الثنائي» لفقاعات الحب.

على أن الصداقات الأعمق تميل إلى الثنائية. لماذا؟

لأن الصداقة، حين تتعمّق، تنتقل من كونها شبكةً اجتماعية إلى رابطةٍ وجدانيةٍ كثيفة، وهذه الكثافة بطبعها تميل إلى أن تكون ثنائية. ويمكن تلخيص الأسباب في الآتي:

-محدودية الطاقة العاطفية والانتباه:

قدرتنا على الإنصات والمشاركة الوجدانية مركّزة ومحدودة. كلما توزّعت على أكثر من شخصٍ خفَّ بريقُها لدى كلّ واحد. لذلك لا تتعمّق الصداقة إلا بتركيزٍ وجهًا لوجه.

-الأمان والبوح:

عمق الصداقة يقوم على مساحةِ أمانٍ تتيح كشف الذات بلا أقنعة. حفظ هذه المساحة أسهل بين اثنين، بينما داخل المجموعات يصبح البوح عرضةً للتشتّت وسوء الفهم.

-توازن التبادل:

في العلاقة الثنائية يكون تبادلُ الاهتمام والمساندة أوضح وأسهل

ضبطًا. أمّا في الثلاثية وما فوقها فكثيرًا ما يتشكّل مَيلٌ لطرفين على حساب ثالث، فيضطرب العمق الجماعي.

-الزمن المشترك:

الصداقة العميقة تنمو بذكرياتٍ متراكمة وتجاربَ متكرّرة. ومن العسير تنسيقُ أوقات ثلاثة أو أربعة على نحوٍ دائم، بينما بين اثنين يسهل انتظام اللقاء وتراكم الذاكرة المشتركة.

-الخصوصية الوجدانية:

حين تتكوّن أسرارٌ ومشاعرُ حسّاسة تميل النفسُ بطبعها إلى تضييق نطاقها؛ فتزداد الكثافة كلما ضاقت الدائرة.

-إيقاع التزامن العاطفي:

المشاعر لا تسير دائمًا على الإيقاع نفسه. في لحظةٍ ما قد يحتاج أحدُ الأصدقاء إلى دعم مضاعف بينما يكون الآخرون في مزاجٍ مختلف أو منشغلين؛ فتتوزّع الاستجابة وتفقد العلاقةُ استمراريتها.

-تآكل البوح في مصفاة الجماعة:

في الثنائية يمضي القول مباشرة من قلبٍ إلى قلب. أمّا في العلاقات الثلاثية والرباعية فكل كلمة تمرّ عبر مصفاة إضافية: كيف سيتلقّاها الآخرون؟ هل تُفهم على غير قصدها؟ هذه المصفاة تحدّ من الصراحة، ومن ثمّ ينقص العمق.

الصداقة الثنائية نهرٌ عميق يجري في مجرى ضيّق، والصداقات الواسعة بحيرةٌ رحيبة تنتشر على سطحٍ أوسع. كلاهما ماءٌ واحد، لكن عمقهما مختلف.

ليس «الاثنان» صدفةً حسابية، بل هو الحدّ الأدنى للدفء المركّز، والإطار الذي تتشكّل فيه الثقة والإيقاع والاعتناء المتبادل. وكلّ توسّعٍ بعدها لا يستقرّ إلا إذا قامت بناه الداخلية على ثنائياتٍ متينة.

9 - لماذا هو/ هي بالذات؟

حتى عند الحاجة إلى تعديل الاختلالات الفيزيولوجية أثناء التناسل كما يقول شوبنهاور، يضعنا الانجذاب الجنسي أمام خيارات واسعة. لكن الحب يضعنا أمام خيارات ضيقة جدًّا إلى شبه منعدمة أحيانًا. هنا تكمن أزمة الندرة في «سوق» الحب، خلاف «سوق» الجنس حيث الوفرة على الدوام.

حين يتعلق الأمر بالحب، لا يمكنني أن أقع في حب كل امرأة تصحّح اختلالاتي الفيزيولوجية بتوجيه تطوري من الغريزة، بل هناك معايير «خارقة» تضيّق لائحة الخيارات، وتجعل لقاء الحب فرصة نادرة، ليس من السهل توفّرها.

إن سؤال الحب هو على الدوام سؤال اللغز المحيّر:

لماذا تلك المرأة بالذات؟ لماذا ذلك الرجل بالذات؟

ما الذي يجعل وجهًا واحدًا بين وجوه العالم كلّه يتألّق فجأةً في عينيّ كأنه القدَر؟

الميل الجنسي يترك لي خيارات واسعة في كل اللحظات، غير أنّ الحب يضعني بنحو درامي أمام انتقاء واحد، سأراه الأخير، حتى إشعار آخر.

هناك تفسير تطوري قد يقدّم لنا نصف الإجابة، على أن نتدبّر أمر النصف الباقي:

إن كان الإنسان قد ورث الدافع الجنسي عن المرحلة الحيوانية، فإنّ إعمال مبدأ الانتقاء في اختيار الشريك الجنسي لدى كثير من الفصائل الحيوانية، من ضمنها الإنسان، يمثل إحدى الإرهاصات الأولية التي مهدت لظهور بذرة الحب، عقب أزمان من التطور البيولوجي، ثم أزمان من تطور الثقافة واللغة والفن والأدب وتطور الوعي بالذات.

تلك الإرهاصات القديمة تفسر كيف أن الاشتهاء الجنسي، ولو

في فردَوْس مليء بالفاتنين والفاتنات، لا يتحقق إلا من خلال التركيز الاستحواذي على شخص بعينه، شخص له ملامح متفردة، ونظرة خاصة، ونبرة صوت مميَّزة.

قد يحضر المرءُ عرضًا إغرائيًّا لأجسادٍ متعدّدة، لكن الأمر لا يلبث أن ينزاح من التعدّد إلى الواحد: تركيزٌ استحواذيّ على جسدٍ بعينه. عندئذٍ ترتفع الكلفة: ماديّةٌ تُدفَع، أو جهدٌ تواصليٌّ يُبذَل، وربّما وقتٌ وعاطفةٌ تُستنزف.

هنا لا أناقش المبدأ الأخلاقي الذي قد يعترض باسم الأديان، أو العدالة الاجتماعية، أو الكرامة الإنسانية، بل أستغل الوضع كما هو للتأمل في كيفية اشتغال غرائزنا.

حتى وسط مئات الأجساد الفاتنة لا يتحقق الإغراء إلا بالتركيز على جسد محدَّد، ولو لفترة محدودة. وهذا ما يفسر أنك في حالة وقوعك في إغراء حادّ فإنك لا تستطيع أن تغيّر الوجهة بسرعة مع يقينك بأن لا فرق في المكافأة. كثير من الحروب الطاحنة نشأت بين الذكور على هذا الأساس، سواء في ممالك الحيوانات، أو مملكة الإنسان، لا سيما قبل نشوء الحضارة.

داخل مبدأ الاستحواذ الإيروسي نفسه تكمن البذرة القديمة للحب، إلا أنها بذرة لا تكفي لظهور فكرة الحب طالما أن التركيز الاستحواذي يحافظ مبدئيًا على خيارات متنوعة، بحيث يمكن تعديلها بعد أن يتغير المزاج، هذا في الوقت الذي يمثل فيه الحب نوعًا من التثبيت الإيروسي والدرامي أيضًا، على طريقة هو أو لا أحد/ هي أو لا أحد/ هو إلى الأبد/ هي إلى الأبد.. ثم ماذا بعد؟

تعلّق الأنثى بذكر بعينه، وتعلق الذكر بأنثى بعينها، فكرة حديثة العهد نسبيًا، نشأت مع تطوُّر الوعي بالذّات في عصر الملاحم والبطولات

والفروسية، ثم تطورت مع ولادة الفرد انطلاقًا من مبدأ المسؤولية الفردية في الحساب الأخروي داخل معظم الديانات، ووصولاً إلى الحقوق والحريات الفردية داخل الحداثة.

الحبّ ليس سوقًا للبدائل، بل نداء يخصّ واحدًا بعينه وواحدة بعينها. إن الحب لا يتعامل مع «الأجناس» ولا مع «النماذج» ولا مع «الأوصاف» العامة، بل مع الكينونة الفردية في فرادتها التي لا تُستبدَل.

إنه لا يقول: أحب امرأة جميلة فحسب، أو أحب رجلاً ذكيًا فحسب، بل يقول: أحب هذه المرأة التي لا يكرّرها الكون، وأحب هذا الرجل الذي لا يشبه أحدًا.

الحب يقع بين «هو بالذات» و«هي بالذات»، لأنه لا يعرف إلا لغة التفرّد، ولا يقبل إلا الحضور الفريد والمتفرد. كل حبّ هو حدث كونيّ صغير، ولأجله يُعاد خلق العالم من جديد. وحين لا يكون كذلك فهو تلاقي مصالح، رغبة جنسية متاحة... لكن ليس حبًا.

قديمًا كانت العلاقات العاطفية متروكة لتدبير القبيلة، العشيرة، العائلة، الأسرة أو المشيئة الإلهية في آخر المطاف، كان بوسع المرء أن يتلقى توجيها مباشرًا من الأب أو الأم، أو يرى رؤيا في المنام، أو علامة من السماء. وقتها كانت الخيارات محدودة، ولم تكن هناك فسحة كافية للحب.

أما وقد صار الفرد اليوم متروكًا في خياراته العاطفية، فإنه قلِق لأجل ذلك، خائف، حائر، تائه. وبقدر ما تتسع حرية الاختيار لديه تضيق فرَصه في المقابل. لذلك يحنُّ بعض الناس إلى عصر الحريم، ويلوذ آخرون إلى وكالات التعارف.

على أن القلق العاطفي للفرد المعاصر، هو ثمن الحرية العاطفية الفجائية، ثمن الحب الذي كلما اتسعت فيه الحرية ضاقت الخيارات.

10 - لماذا نرغب بالوقوع في الحب؟

لماذا نرغب بالوقوع في الحب؟ ولماذا نُعاود الوقوع في الحب حتى بعد أن تُمزّقنا التجربة؟

أقترح خمسة أجوبة ممكنة ومتكاملة:

أوّلًا، نرغب بالوقوع في الحب لأننا نبحث عن المعنى لا السعادة. إذا لم نفهم أنّ الحب بحث عن المعنى فلن نفهم معنى الحب، ومن ثم قد نظلمه وقد نتهمه بالخذلان. نحب الوقوع في الحب لا لأنّنا نرجو سعادة مضمونة، بل لأننا نحتاج إلى معنى يُضفي على الألم جدوى. فمن يملك سببًا يعيش من أجله، يستطيع أن يتحمّل الحياة في كل أحوالها وبكل أهوالها، ويمكنه أن يمتلك قَدْرًا كافيًا من شجاعة العيش. لا يمنحنا الحب السعادة، بل لحظات من الكثافة الوجودية، لحظات نشعر فيها أن الحياة رغم قسوتها تستحق أن تُعاش.

ثانيًا، نرغبُ بالوقوع في الحب لأننا نحتاج إلى من يكسر كبرياءنا، وهي المهمة التي لا نسلّمها بسهولة لأي كان. وأعود إلى الفقاعة العاطفية التي نعيش في داخلها مع من نحب كما قال سلوتردايك، حيث في البداية تنفتح فقاعتان على بعضهما لتصنعا فقاعة واحدة، تصير كونًا صغيرًا مشتركًا بين اثنين يتنازلان عن كبريائهما دون أن يخافا من فقدان الكرامة، طالما يستنشق كل واحد منهما زفير الآخر. فالحب يضعنا أمام الآخر لا باعتباره مجرد موضوع للرغبة، بل باعتباره فوق ذلك كائنًا غريبًا، مستقلًا، لا يمكن ابتلاعه. نقع في الحب إذًا لأننا نحتاج أن نخرج من سجن الأنا، ونتحرر من اكتفائنا الوهمي بالذات. وهذا ما يجعل الغير في الحب ينفلت دومًا من قبضة الذات. الحب في جوهره هو ذلك الإفلات المتواصل، تلك المسافة

التي لا تُردَم، وهذا العوَز هو ما يؤلمنا في تجربة الحب، إلا أنه يربّينا في المقابل.

ثالثًا، نرغب بالوقوع في الحب لأنّ فيه تربية لنا. فليس الحب مجرّد فرح ومتعة بل مدرسة شاقّة، نتعلم فيها الانضباط، الصبر، المسافة، الصمت، تقبّل غموض الغير، تهذيب الرغبة ومقاومة أسوأ أشكال التملك، والتي هي تملّك الإنسان لأخيه الإنسان. حتى أعتى المتسلّطين يهزمهم الحب، فما إن يقع السلطان في عشق جاريته حتى تصير حرة، أو تنقلب الأدوار لتصير هي السيدة في الحياة الحميمة. وما إن تقع السلطانة في عشق خادمها حتى يصير حرًا أو تنقلب الأدوار فيصير هو السيد في الحياة الحميمة. وحده الحب يكسر علاقات العبودية والتملك، وقد يقلبها أحيانًا. الحب تجربة تُعلمنا كيف نعيش مع الغير بوصفه ليس فقط آخر، بل بوصفة ذاتًا أخرى. هذا التعلم لا يكون من دون وجع، لا يكون من دون صراع بين الرغبة والتقدير، بين الأنا والغير، بين التملك والاعتراف. إلا أنه لا حب بلا تربية، علمًا بألّا تربية بلا صبر، ولا صبر بلا ألم.

رابعًا، نرغب بالوقوع في الحب لأن الحب نفق نحو الأعماق. فالوجع لا يُدين الحب بل يكشف عن عمقه حين يكون عميقًا بالفعل. الحب الذي لا يوجع ليس سوى نزوة عابرة، ترف عاطفي سطحي، أو استهلاك جسديٍّ عابر. نحب الوقوع في الحب لأنه نفق الوصول إلى أعماق ما لدينا من مخاوف وهواجس ورغبات، إنه فرصة التعري الروحي، ومن ثم السماح بانعكاس الذات على مرآة الغير.

خامسًا، نرغب بالوقوع في الحب ونحن ندرك أنّ الحب مغامرة، لكننا نندفع لمواجهة كل العقبات التي تعترضنا في الطريق.

نعرف أن ما يُميز فقاعة الحب هو وجود قابلية للانفجار في أي لحظة. لكننا نستمر وفي هذا الاستمرار نتعلّم. فلأجل أن يُصبح الحب عميقًا، ينبغي أن يظل عرضةً للفقد، للخيانة، للفناء. مثل هذه الهشاشة ليست مرضًا، بل شرطًا لحيوية الحب.

نحن لا نُحب رغم هشاشة الحب، بل نُحب بفضل هشاشة الحب.

المرافعة الثالثة

لماذا يوجعنا الوقوع في الحب؟

1 - قد لا نحسن الوقوع

الوقوع في الحب موجع، فهو حتى في شغفه موجع لأن المحبّ يريد أن يرى الحبيب كل لحظة، وموجع بسبب الخوف من الخذلان، وموجع بسبب عدم اليقين تجاه التوقعات..

يقال: حين نقع في الحب نحتاج إلى الشعراء، وحين نفشل في الحب نحتاج إلى الفلاسفة. إلّا أنني دون التشكيك في عظَمة الشعر، أرى أننا نحتاج إلى الفلاسفة في كل الأحوال طالما الحب تجربة غير آمنة. نحتاج إلى الفلاسفة ليس فقط في نهاية الحكاية حين نفشل في الحب وننتظر العزاء، بل منذ اللحظة الأولى للوقوع طالما الوقوع في الحب مؤلم، ليس فقط لأنه وقوع، بل لأننا قد لا نقع في البئر المناسبة، والمعضلة كلها أننا لا نملك معايير واضحة لمعرفة البئر المناسبة لنا قبل الوقوع، ومعرفة هل توافق أشباحها أشباحنا؟ هل يناسب عمقها مقاييسنا؟ هل يلائم ماؤها صحتنا؟ والأدهى من ذلك كله أن الماء قد يكون ملوَّثًا!

نحن لا نعرف شيئًا قبل الوقوع، وخوض التجربة.

لذلك يكون كل حب جديد مخاطرة، فكثير من قصص الحب تنتهي إلى خيبة الأمل، سواء استمر وبلغ الزواج أم لم يستمر.

ربما تبدو الحصيلة غير مشجّعة، ما يبرر خوف الكثيرين من الحب إلى درجة الرهاب أحيانًا، وإن كان هذا الشعور سيئًا فهناك ما يبرره بالفعل.

في الكثير من تجارب الوقوع في الحب، لا يدرك المرء أنه لم يعِش

سوى وهم الحب إلّا بعد طيّ الصفحة، وأحيانًا يمرّ كثير من الوقت قبل أن يصحو الحسّ النقدي ثم يشعر المرء بالخجل من حجم الوهم الذي أفقده كرامته الإنسانية.

بين الواقع والسراب قد لا يكون الفرق في المظهر واضحًا، لكن الفارق في المحتوى يحسم مصير الحياة. بين الواقع وما نتوهّم أنه الواقع قد نضيع، فالقدرة على التمييز، بينما نكون تحت ضغط أي قرار يتعلّق بحياتنا، تحدد جودة الحياة. كذلك الأمر في الحب، فمع الاندفاعة وكثافة المشاعر لا نتوقف لنفكّر في الوقائع التي نعيشها، حيث الخلط شائع، والتداخل واسع بين الحب ووهم الحب، إلا أن القدرة على التمييز هي التي تقينا الألم والخذلان. وهذه القدرة هي التي تمنح الحب قدرته على الاستمرار، وتجعله طاقة تنعش الحياة وتعطيها أجمل لحظاتها.

وإذ أطالب ببراءة هذا المتهم الماثل أمامكم الآن في قفص الاتهام الزجاجي، فأنا أؤكد لكم أنّ الذي ينبغي إدانته ليس الحب، بل وهم الحب الذي يقع فيه مَنْ لا يمتلك القدرة على التمييز. ذلك الوهم الذي صنعتموه في أذهانكم وخلطتموه بالحب، هو الذي ينبغي وضعه في قفص الاتهام.

لكن، وبعد أن نقع في الحب، ما المعيار الذي يحدد إمكانية نجاح تجربة الحب؟

المعيار نجده في تطوّر علاقة الحب، فالوقوع في البئر المناسبة يحرك القدرة على النمو والحياة، وعندها مهما يكن الألم سنحتمله لأنه ألمٌ ناتجٌ عن النمو، أما الوقوع في البئر غير المناسبة فيصيب بالتعاسة والخمول، ويكون الألم فيه غير محتمل لأنه ألم الذبول.

الوقوع في الحب دائمًا يحتمل المخاطرة، لأننا قد لا نعرف إن كان الوقوع مناسبًا أم لا، إلّا بعد الوقوع. هنا تقع المسؤولية علينا، إذ علينا أن

نتحمّل مسؤولية تصرّفنا مع تلك البدايات الرائعة فلا تتحول إلى نهايات موجعة... وهنا الحب بريء.

2 - قد تتسلل الانفعالات السلبية

قد يحدث أن يطرق الحب بابك في يوم جميل.

المفاجأة سارة. ربما كنت تتوقعها وربما لا، لكنها ستقلب بشكل فجائي إيقاعك اليومي.

يخفق قلبك ترحيبًا بالزائر الجميل، ومنذ اللحظة الأولى سيختلف كل شيء، طعم القهوة، مذاق الشاي، نكهة الشوكلاتة، نسيم الصباح، سحر الموسيقى، إلخ، وستكتشف في نفسك قدرة كبيرة على الإنصات والتذوق والتسامح، لكن السؤال المحيّر هو، من أين يأتي ذلك التوتر الذي يجعل التجربة مؤلمة؟

إليكم الصورة بوضوح تام:

عندما يطرق الحبّ بابك، يأتي بادئ الأمر مصحوبًا بالأمل يدًا بيد، إذ يراه صديقًا مخلصًا. ظاهريًا لا يبدو أنّ هناك أيّ خطأ طالما يمثل الأمل حافزًا للتعلق والارتباط، أمل كل عاشق في أن يمنحه معشوقه السعادة الدائمة. من هنا يصبح الإنسان مستعدًّا لتقاسم السرير كل ليلة ضدّ طبيعة الإنسان ككائن متمرّد بطبعه، فنراه يتقلب في السرير حتى حين يكون مع شريكه.

إلّا أنّ الأمل يجرّ بيده الأخرى الخوف، حيث ما إن يكبر الأمل حتى يكبر معه الخوف من الخيبة، النكران، الهجران، والخوف أيضًا من أن يجد المعشوق عرضًا أفضل، وقد تصبح أدنى إشارة مؤشرًا على ذلك. ثم ماذا بعد؟

الأسوأ من ذلك كله أنّ الخوف يصحب معه الغيرة ممسكًا بها من الجهة الأخرى، حيث تشتعل نار الغيرة في وجه أي منافس محتمل إلى درجة الوسواس القهري أحيانًا.

ثم إن الغيرة تصحب معها الحقد والحسد.

وفي النهاية لا يبقى من أثر الحب سوى الأسى المحفوف بجحيم الكراهية.

الأمل الشائع في الرهان على الحب هو توقُّع كل طرف من الطرف الآخر أن يجعله سعيدًا. هنا تكون نقطة البدء خاطئة، ويكون منطلق البناء باطلًا. علما بأن ما بُني على باطل فهو باطل.

إذا لم ينطلق الحب من شعور داخلي يريد أن يجعل أحدهما الآخر سعيدًا، ستعترضه عقبات كثيرة. فالسعادة شعور داخلي، أو باطني بلغة الصوفية، ينبع أو لا ينبع من الداخل.

بلغة أكثر وضوحًا، يكون الحب حبًا سعيدًا في القلوب التي يسعدها الحب، ويكون حبًا شقيًا في القلوب الشقية أصلًا.

أو بلغة سبينوزا أقول، يكون الحب حبًّا مبهجًا حين تسود المشاعر المبهجة، ويكون حبًا تعيسًا حين تطغى على الإنسان المشاعر الحزينة.

الحبّ شعور مبهج في الأصل. لكن المعضلة أنه قد يأتي برفقة شرور ومشاعر غير مبهجة، تبدأ من الأمل الذي لا يبدو شريرًا في مظهره، بيد أنه يجلب الخوف والغيرة والغضب، ومن ثم يرتفع السخط وتنتصر الكراهية.

الخوف والغيرة والغضب مشاعر قد تحمل بدورها قناع البراءة، وتوهم الحب بأنها ستقاتل من أجله باستماتة، لكنها سرعان ما تنخره مثلما يفعل السوس.

نعرف أنّ جرعة خفيفة من المشاعر السلبية لا تضرّ، بل تنفع حين يحسن المرء إعادة استعمالها بالتي هي أحسن، إذ يسهل تحويل مشاعر الغيرة أو الغضب إلى لهيب إيروسي في الفراش، لكن فشل عملية التحويل قد يقلب الحب إلى كراهية مزمنة.

مشكلة الغيرة أنها ما إن تخطو خطوتها الأولى حتى تستعجل الخطى

الموالية، إلى أن ينسج الخيال الجامح واقعًا موازيًا من الأوهام يثير الغضب ومن ثم تأتي الشكوك التي تزعزع الأسس في النهاية: اتصلت به(ا) بالهاتف ولم يردّ، أخشى أن يكون مع شخص آخر. لقد تأخر(ت) ولم يخبرني بسبب تأخره... وهكذا تُفتقَد الثقة وتدخل التهديدات.

لأجل ذلك ثمة اليوم تطبيقات تقترحها بعض أسواق التكنولوجيا الذكية لمثل هذه الوساوس غير الذكية:

«قبل يومين اشترى عطرًا غير مألوف!»

«البارحة كان سعيدًا جدًّا، لا شكّ أنه كان في لقاء أسعده ويخفيه عنّي!»

ثم سرعان ما يعاد خلق ذاكرة الخلافات أو التوهّمات:

«كان عليَّ أن أفهم عندما أصرَّ(ت) على الذهاب إلى تلك الحفلة التي لم أكن أحب الذهاب إليها». «كان عليّ أن أنتبه منذ اللحظة التي انخرط(ت) فيها في نادي تعلم الرقص قبل عامين»؛ «كان عليَّ أن أنتبه منذ اللحظة التي بدأ(ت) فيها بصباغة الشعر... منذ 5 سنوات فعلت كذا...».

هكذا، وفي وقت وجيز، قد تعاد حكاية تاريخ العلاقة، بل حكاية الكون بأكمله، لكن بصورة غير التي كانت.

3 - قد تشتعل نار الغيرة

كثيرًا ما نخلط الحب بالغيرة، كما لو أنهما متلازمان، فيُقال إنّ الغيرة تعبير عن حب عميق. نحب ونظن أن علينا أن نغار ليكبر الحب أكثر. وإذا لم نرَ الغيرة في أعين الغير نشعر بالخيانة والخذلان. بل هناك من لا يطمئنّ إلى الحب إلا إذا تأكد من وجود غيرة حارقة، قد يعمل على تأجيجها قصدًا، في لعبة لا تخلو من خطورة.

إنّ الغيرة لا تنتمي إلى مشاعر الحنان، بل تنتمي إلى مشاعر القسوة. إنها مزيج مركب من مشاعر التشكيك، والتملك، والخوف، والحسد، وانعدام الثقة... حتى تأتي الكراهية.

الغيرة تدل على خوف غائر مثل الجرح، خوف من الخسارة، من المقارنة، من الهزيمة، من النقص. في المقابل، إن الحب الناضج لا يعاني من الخوف، لأن فيه من التواضع ما يكفي لتقبل الغير كما هو، ومن النضج ما يكفي لمنحه حرية أن يختار، ومن الكرامة ما يكفي ليقول: «أحبك، لكنني لن أقصّ جناحيك لأضمن بقاءك».

لا توجد غيرة في الحنان. الحنان هو الجذر الأول للحب، وهو لحظة تجذّره أيضًا. لذلك، لا تدل الغيرة على جودة الحب، بل تدل على أن الحب لم ينضج بعد كما ينبغي، فلم يتجذّر في تربة الحنان، ولم يزهر في هواء العقل.

الغيرة تدل على أن الحب لا يزال في مرحلة الانفعال، ولم يتحول إلى فعل، لم ينتقل من الجهل إلى العقل. أما حين ينضج فالغيرة تختفي، مثلما تخفت الحمى بعد زوال العدوى.

لكن، إذا استمرت الغيرة واستشرت، فذاك دليل على أن جذور الحب لم تبلغ تربة الحنان، وأغصانه لم تبلغ ضوء العقل، وبالتالي يكون الأمر مجرد «نزوع إلى التملّك» أو «تعلق مَرَضي»، أو «احتياج طفولي»، أو «جوع نفسي» يتنكّر في قناع كلمة نبيلة: الحب.

الحب الذي يحتاج إلى الغيرة كي يثبت وجوده، هو حب لا يثق بنفسه، وبالتالي لا يُعوَّل عليه.

الحب الحقيقي لا ينبع من مشاعر القسوة، بل من مشاعر الحنان. إنه لا ينبع من مشاعر التملك والتحكم والسيطرة والاحتكار، بل ينبع من مشاعر الثقة والرفقة والعناية.

الحب الحقيقيّ لا يحبس الإنسان في قفص، بل يمنحه جناحين ليحقق أحلامه، ويشجعه بالتالي على الطيران.

الحب لا يزدهر حين نُراقبه، بل حين نثق فيه ونمنحه ما يحتاجه من غذاء وهواء.

من يحبك لا يراقبك بل يراك.

وأخيرًا، من يمتلك الحنان في الحب يفضّل مغادرة الحبيب بلطف، على خوض معركة مؤلمة.

4 - قلق ما بعد الأورغازم

حين نبحث عن الجنس فإنّنا نعرف عمّاذا نبحث بالضبط! نعرف إلى أين نريد الوصول! لكن عمّاذا نبحث حين نسعى إلى الحب؟ لماذا نتحمل عناء البحث المضني عن الحب حتى عندما يكون لدينا ما يكفي من الجنس، وما يكفي من شركاء السرير! وبالتالي، فإنّ السؤال: لماذا لا يكفينا الجنس؟

داخل نشوة الأورغازم نفسها يكمن سر الإلحاح في البحث عن جنس مشفوع بروحانية الحب، وهو ما يجعل حتى الإنسان الذي يؤمن بتحريم العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، يندفع دون أن يغمره أدنى شعور بالذنب حين يمارس الجنس مع شخص يعشقه بكل صدق وعمق وصفاء. روحانية الحب إذًا هي شفاعة تُرجى لكل العشاق، بمن فيهم الذين يعلنون رفضهم للعلاقات المحرّمة، وهذا ينطبق على العاشقات اللواتي يعلنّ القدر نفسه من الإنكار.

هدف الدافع الغريزي البيولوجي هو الأورغازم الذي يلحّ بنحو آني وبالإمكان تلبيته على الفور، كما أن غايته الفضلى بقاء النوع البشري، إلّا أنّ الطبيعة التي تقدّم لنا الأورغازم كإغراء سحري سرعان ما تترك لنا خيبة الأمل عقب القذف الذي هو أقصى ما نبحث عنه، وذلك حين تفتر قوة القضيب ويجفّ المهبل وينقطع الشريط الرومانسي، ويدير كل واحد ظهره للآخر قبل أن يسلم نفسه لعالمه الداخلي.

خيبة الأمل الإيروسية تلك لا تنبع من الدافع الغريزي البيولوجي الذي قضى وطره كما ينبغي، بل تنبع من الدافع الروحي الذي لا

يستوفي حقه حين يغيب الحب، وهو ما يفسر وخز الضمير الذي ينتاب الكثيرين مباشرة عقب الأورغازم، على أن مشاعر الذنب هنا لا علاقة لها بالدين والقيَم كما قد يتراءى للبعض، بل لها علاقة بمخطط الطبيعة نفسها، فجذورها أعمق من الديانات نفسها. الأمر شبيه بتحريم زواج المحارم والذي يتسبب في مشاكل جينية بالفعل. لذلك، بصرف النظر عن فرضية قتل الأب البدائي لدى فرويد، فالواقع أن مشاعر الذنب تجاه زواج المحارم نبعت من المشيئة التطورية للحياة، وإن تحوّلت إلى تحريم مجمَع عليه.

وخزة الذنب التي قد تعقب الأورغازم لا ينبع مصدرها من الدين أو التابو أو السلطة الرمزية للأب، أو ما شابه ذلك، وإلا لكانت ستستمر حتى حين يأتي الجنس مشفوعًا بالحب الخالص، ولما كانت تصيب الأزواج الذين يهجر الحب مضاجعهم، بل تنبع من حالة الفراغ التي تعقب الأورغازم حين لا يستطيع الجنس أن يلبّي الدافع الروحي أيضًا.

لذلك فإن ردود الفعل الحميمة للشريك مباشرة عقب الأورغازم هي الاختبار الأكثر بداهة لطاقة الحب. لعله اختبار قاس أحيانًا، محرج أحيانًا أخرى، لكنه كاشف في كل الأحوال، وينبغي أخذه على محمل الجد.

إن مشاعر الذنب التي قد تغمر بعض الذوات عقب نشوة الأورغازم لا تدل على الوفاء لعلاقة سابقة كما قد يتصور البعض، ولا تدل على التمسّك بقيَم الزهد أو التحريم كما قد يتراءى للبعض الآخر، بل تدل بكل بداهة على الفراغ الروحي الذي يعقب انقطاع اللذة البيولوجية، وذلك حين لا يكون الحب حاضرًا كما ينبغي، حين لا يكون الحب صادقًا كما ينبغي، حين لا يكون الحب حقيقيًا كما ينبغي.

الذي تطلبه الحياة الذكية من الإنسان ليس أن يتناسل وحسب، ولا أن يتكاثر وحسب، بل أن ينمو في كل لحظة من لحظات حياته، وأن

يساهم بذلك في نمو النوع البشري. إلا أن القدرة على مواصلة النمو في حياة عابرة يحتاج إلى امتلاك معنى للحياة، والمعضلة هنا هي فقدان المعنى، فيكون الحب وقتها هو الطاقة البديلة لمواصلة النمو.

يُقال، وراء كل عظيم امرأة. لكن ينبغي توضيح أن وراء كل عظيم امرأة تشجعه مثلما كانت تشجعه أمه على المشي، وتصفّق له مثلما كان أصحابه في اللعب يصفقون له، امرأة تعالج هشاشته «الذكورية» بترديد عبارة، «أنت قادر على أن تفعلها (You can do it)»! فماذا عن المرأة في المقابل؟ المحظوظات بسماعها قليلات، لكن سماعها يمنح للمرأة الثقة والأمان للذهاب إلى آخر الحلم. إلا أن الناجحات اكتفين بقولها لأنفسهن، ولذلك نجاحهن خالص.

في ملحمة الأوديسة، ما إن انتهت حرب طروادة حتى بدأ البطل المحارب أوديسيوس يشقّ طريق العودة إلى زوجته. ورغم أهوال الطريق التي لا تنتهي، رغم كل المجد الذي خلّد ذكره في التاريخ، رغم إغراء الحياة الأبدية الذي قدمته إحدى الحوريات، إلا أنه أصرّ على مواصلة الطريق نحو الحب الذي منحه الثقة ليفعل كل ما فعله.

المرافعة الرّابعة
لأجل حب ناضج

1 - قواعد الحب الناضج

لا يوجعنا الحب، لكنه يكشف عن مواضع الوجع فينا. فإن كان هو الضوء الذي يُنير الغرفة ويجعل الغبار ظاهرًا، فالضوء ليس هو الغبار. فلا ينبغي الخلط.

أن تُحب بأقل الوجع معناه أن تُحب في الوقت الذي تستطيع فيه أن تكون مكتفيًا بذاتك، معناه أن تحب غيرك في حريته، أن تحبه بقدر ما تسمح له أن يكون كما هو لا كما تراه، وأن يصير ما يمكنه، لا ما تريده. معنى ذلك أيضًا أن تتقبل الغير باعتباره ليس كاملاً، ليس خالدًا، وليس منقذًا.

بهذا النحو يتحوّل الحب من وهم إلى تجربة واقعية، تكون جميلة في هشاشتها، مقنعة في نواقصها، وممتعة في بساطتها.

أن تحب بوجع أقل معناه أن تعرف نفسك. فمن لم يعرف جراحه يسقط في حب يشبه جراحه. من لم يُداوِ ندوب الطفولة قد لا يبحث في الحب سوى عن أمّ بديلة، أو أبٍ مفقود، أو حكاية مبتورة قد تكون في الماضي الشخصي أو في ذاكرة الجينات. فالحب لا يُرمّم الماضي، بل يفتح أفقًا جديدا أمام الحال والمآل.

لا ينبع الحب الناضج من الحاجة بل من الوفرة، لا ينبع من المرض بل من العافية.

فكثيرًا ما يخطئ العاشق حين يحاول أن يجعل من المعشوق مركب نجاة، حين يطلب منه أن يخلّصه من وحدته، من رتابته ومن نفسه. لكن لا أحد يقدر على أن يكون خلاصًا لأحد.

حبيبك ليس منقذًا، بل رفيق درب يعبر معك الطريق، لا رفيق مطلوب منه أن يَحملك على ظهره. بهذا المعنى الحب ليس وعدًا بالخلاص، بل خبرة بشرية، مؤقتة، هشّة، لكنها ثمينة أيضًا.

أن تُحب بوجع أقل معناه أن تترك نافذة الفقد مفتوحة. لعل هذه من أقسى الحقائق، لكنها شرط أساسي للحب المعافى، طالما كل حب قابل لأن ينتهي، وكل وجه مهدد بأن يغيب، وكل قلب مهيَّأ لأن يتوقف عن النبض.

أن تُحب بوجع أقل معناه ألّا تخاف من الفقد، بل تستعدّ له في كل الأحوال. فكل ما يحتمل البداية يحتمل النهاية. كذلك هو الحب أيضًا. لكن على سؤال «كيف تكون النهاية؟»، يتوقف صدق الحب.

أن تُحب بوجع أقل معناه أن تُحب من دون امتلاك. فكم مرّة خنقت من تُحبه باسم الحب؟ كم مرة حاولت أن تُحب شخصًا كما تُحب شيئًا من الأشياء؟ حيث تقول في نفسك: «أريده لي، لي أنا وحدي، أريده أن يبقى تحت أنظاري طوال الوقت»، ومن دون أن تدري قد تضيّق عليه إلى حد الاختناق. إلا أن المُذنب هنا ليس الحب بل الحالة المرضية التي تسكنك والتي قد ترتدي قناع الحب، قبل أن تنتهي المغامرة إلى التعاسة والشقاء.

علينا أن ندرك أن الإنسان لا يُمتلَك.

وأنّ مَنْ لا نقدر أن نمنحه حريته، لا نقدر أن نمنحه حبنا.

أن تحب أحدًا، معناه أن تقول له: ابقَ كما أنت، وسأحبك كما أنت.

لكن، في المقابل، أن تحب بوجع أقل معناه ألا تختزل حياتك في الحب. فقد يكون الحب زهرة جذّابة بالفعل، لكنه ليس الحديقة كلّها.

الحب يجب أن يكون مدعاة للسعادة ودافعًا للنمو وباعثًا للطاقة، لكن ليس كل حياتك، لأنّ فشله في هذه الحالة يعني انهيارك الكلي، ومن ثم يصير الخوف من الفشل حالة مزمنة، وعقدة ملازمة. فلا ننس أن الخوف من وقوع الشيء أسوأ من وقوعه.

لكن، حين تكون لك حياة متعددة المعاني، متعددة الألوان، فيها إبداع، صداقة، تعلّم، تأمّل، رقص، سفر، وفيها ثمرة الحب أيضًا، فإنك تصبح أقدر على تحمل فقدان الحب. وبهذا تعيش تجربة الحب بخوف أقل، ووجع أقل، وبالتالي فرح أكبر.

ستُحب بوجع أقلّ، حين تُحب كما تتأمل. وهذا مبدأ أساسي من مبادئ العشق، حيث التأمل العقلي لا يعني الانفصال عن الواقع، كما يتصور البعض، بل يعني الحضور العميق في الحياة، يعني أن تكون حاضرًا مع الغير، بلا تعلّق، بلا تملّك، وبلا استعجال.

الحب الذي نتعلمه من خلال التأمل هو حب بلا قلق، بلا صراخ، حب يحتمل لحظات الصمت، يتقبل لحظات الغياب، ويعيش كل لحظة كما هي.

صحيح أن حبًّا بصفر وجع قد لا يوجد، لكن يمكننا أن نُشيّد عقلاً يقلص الأوجاع، وقلبًا يُحب لا لأنه بحاجة، بل لأنه ناضج بما يكفي ليشارك الحياة مع غيره.

أن نُحب بوجع أقل معناه أن نفهم بأنّ الحب ليس هروبًا من الذات، بل تعميقٌ لها، ليسَ علاجًا للفراغ بل بناء لمعنى جديد. معناه أن نحب الغير لا بوصفه حلاًّ لمشكلتنا، بل شريكًا في درب يتطلب منّا العناية والرعاية والإنصات، وفي النهاية ينبغي أن نُفرّق بين التعلّق الذي يُنتج القلق، والحب الذي يُنتج الطمأنينة.

هناك خمس قواعد، أقترحها لأجل حب بوجع أقل وفرح أكثر:

أ - الحبّ ليس وعدًا بالخلاص بل دعوة إلى الحضور:

أوّل وهم نحتاج أن نُسقطه، لتفادي الخيبة، هو وهم الخلاص العاطفي، وهم أن نجد في الغير تلك المعجزة التي ستنقذ حياتنا. إن التعامل مع الحب كدين كما يوصي شيخ العارفين ابن عربي، وإن كان

القصد نبيلًا، قد يجعلنا نُسقط على الحب الرؤية الخلاصية الكامنة في لاوعينا الجمعي، ومن ثم نرفع سقف الأمل إلى سماوات الرومانسيات الوردية، فيكون للخيبة وقعٌ كارثيٌّ.

الحبّ ليس إلهًا منزّهًا، ولا نبيًا مخلّصًا، بل تجربة بشرية قريبة من التراب، تنبت مثل شجرة تحتاج إلى الماء والهواء، تحتاج إلى كثير من العناية، وقد تهلك في أي لحظة. من قال إن الحبّ خلاص، فقد كلّفه ما لا يحتمل، ثم لامه حين لم ينجز مهامًا ليست من اختصاصه.

من يُحبّ حقًا، لا يسأل: «ماذا سأربح منك؟»، بل يسأل: «كيف يمكنني أن أكون حاضرًا معك في كل أحوالي وكل أحوالك؟»

أما من لم يتحرر من جراحه النفسية، من احتياجاته العمياء ومن عقَده الخفية، سيحب بدافع النقص لا بدافع الحياة، وسيطلب من الآخر أن يُرمّمه بدل أن يشاركه، وبالتالي، من لم يتعلم أن يعيش وحده بلا هلع، لا يمكنه أن يُحب.

ب - الحبّ لا يوجع لأنه حبّ، بل لأنه سوء فهم:

نحن لا نتألم لأننا نُحب، بل لأننا نطلب من الحبّ ما لا طاقة له به. الألم العاطفي ليس نتيجة الحبّ، بل نتيجة أوهامنا حول الحبّ. من ظنّ أن الحبيب سيملأ كل الفراغات، سيعيش كل لحظة باعتبارها لحظة خيبة. ومن طلب من الآخر أن يكون نسخة منه، سيقوده الحبّ إلى حفرة الآلام.

الحبّ يُوجع حين لا نعرف كيف نُحب. وحين لا نفهم أن جوهر الحبّ ليس في التشابه، بل في شجاعة الاحتفاظ بالاختلاف والاحتفاء به.

ج- أن تحب ليس معناه ألا تكون قادرا على الهجر:

الحب هو أن تبقى مع الحبيب حين تكون قادرًا على عدم البقاء. أما حين يكون هناك قيد يرغمك على البقاء، إما خوفًا أو عجزًا أو طمعًا،

أو حين لا يبذل محبوبك أي جهد لبقائك، هنا يبدأ الحب في الذبول والأفول. فليس الحب سوى ذلك الجهد اليومي الذي يجعلك راغبًا بالبقاء. أما التعلق فليس حبًا، بل معظمه وسواس يتنكر بلباس العشق.

د- الحب لا نبحث عنه بل نبنيه:

الحب لا نبحث عنه، لا نكتشفه فجأة، بل نبنيه. فالحب في جوهره ليس مغارة نكتشفها ثم نتصرّف بناء على ما نكتشفه فيها، بل بيتٌ نشيّده. الحب ليس وعدًا نترقبه بل مسؤولية ننهض بها، ليس لباسًا نلبسه ثم نملّه بل ثوبٌ يتم نسجه بصبرٍ وتفهّم.

نخطئ حين نظنّ أن الحبّ ينتظرنا في مكانٍ ما، خلف منعطفٍ ما، في ملامح وجهٍ ما. الحب لا يُعثر عليه كما يُعثر على قلادة ذهب، أو على كتاب نادر في سوق الكتب القديمة. الحب ليس كنزًا مدفونًا، بل هو اليد التي تحفر، والنَفَس الذي يصبر، والعين التي تبصر في نواقص الغير إمكانيات النمو، وليس صورة مكتملة.

إننا لا نحب الغير كما هو فقط، بل وفق صيرورته أيضًا. ليس الحب أن نجد الشخص الذي يجذبنا بل أن نجد من نتشارك معه النمو المشترك، لنكبر معًا كل يوم. إننا نساهم في تشكيل ملامح من نحبهم، كما أن الذين نحبهم يساهمون في تشكيل ملامحنا، ومن ثم يكون أمامنا مآلان، إما أن ننمو معًا أو نذبل معًا.

البحث عن الحب يجعلنا نقع في وهم توقعات بعيدة المنال. حين نبحث عن الحب فإننا في تلك الأثناء نحمل صورًا جاهزة في أذهاننا، لكن التوقعات تعمي القلب عن فرص الحب الحقيقي، والذي قد لا يبدو في ظاهره مطابقًا لما تخيّلناه، لكنه بمعزل عن توقعاتنا يحمل ممكنات نموّ غير متوقعة لكنها حقيقية.

الذين يبحثون عن الحب، كثيرًا ما يُصابون بخيبة التوقعات،

وينكسرون بسرعة. أما الذين يبنونه بنموٍّ متواصل، فقد يعرفون طعمه الحقيقي: طعم البناء بدل انتظار اللقاء، طعم المشاركة بدل انتظار المفاجأة، طعم الألفة التي تُنسج بخيوط متينة بدل الإثارة التي لا تدوم، طعم المسؤولية، والرعاية، والإنصات، والتسامح.

حين نبحث عن الحب، فإننا نبحث عن حب يشبه مرآتنا، نبحث عن شبيهٍ لنا، عمن يشبه رغباتنا، ويعيد إلينا صدى صوتنا بالتمام، وهذا مجرد وهم أناني. لكن الحب الذي نبنيه يُخرجنا من أنفسنا، ويفتح لنا بابًا نحو التواضع، نحو التخلي، نحو التعلم، وكذلك نحو الاستيعاب دون تملك، والاندماج دون ذوبان.

الحب ليس شيئًا نعثر عليه، بل حالة نبلغها مع الغير، عبر جراح الشوق، ومخاض الغفران، وحنان اليد على اليد. لذلك أقول لكل واحد على حدة: لا تبحث عن الحب في أي مكان، لا تنتظره في أي مكان. ازرعْ بذوره في أرضك، وسِر مع من يملك ما يكفي من الكرامة كي يزرع معك، ويملك ما يكفي من الكرَم كي تزرع معه.

ابنِ الحب كما تُبنى القلاع، بصبر البنّائين، لا بعجلة الحالمين.

هـ- الحب ينبتّ في الحنان ويزهر في العقل:

الحب انفعال كما يرى سبينوزا، وهو مثل سائر الانفعالات، لا يدوم من تلقاء نفسه، إنه مثل الفرح الذي لا يدوم من تلقاء نفسه ما لم يجد أفكارًا إيجابية تحتضنه وتطيل عمره، مثل الحزن في المقابل والذي ما لم يجد أفكارًا سلبية تغذيه فإنه يميل بعد وقت قصير نحو التلاشي، مثل الخوف، ومثل الغضب أيضًا.

الفرق هنا أنّ الحب مثل الفرح يحتاج إلى أفكار إيجابية تُغذيه ليدوم طويلاً، من دونها سيخمد وينطفئ بسرعة.

الوهمُ القاتل لدى كثيرٍ من العشّاق هو الاعتقادُ بأنّ الحبّ يدومُ

بطبعه، ومن تلقاء نفسه، حتى إذا انطفأ فجأة ألقوا باللائمة على بعضهم البعض، أو اتّهموا الحب بالكذب والاحتيال. والحقيقةُ أنّ نار الحبّ حين تشتعل تحتاجُ إلى حطب يغذّيها، فإن حُرِمَت منه خبت وانطفأت.

يحتاج الحب إلى القلب ليشتعل فيه. لكنه يحتاج أيضًا إلى العقل ليستمر به. بل كل الانفعالات على ذلك المنوال.

الشفقة مثلًا! كم تبدو تلك الكلمة مألوفة، لكننا نسيء فهمها حين نكتفي بما تثيره من رنين عاطفي. الشفقة شعور إنساني بالإحسان، لكنه لا ينتمي لمشاعر الحب، بل عندما يتصرّف المحب بدافع الشفقة يستفزّ الطرف الآخر أشد استفزاز، لأن الشفقة تتوجّه للضعيف وتعني عند الحبيب أنه يسامح أو يدافع بسبب ضعف الآخر وأنه يحسن إليه. في بدايتها تولد الشفقة كاستجابة فطرية لرؤية ألم الغير، كانجذاب بدائي إلى ما هو هشّ وضعيف، لكن الشفقة تصبح اختناقًا، والرحمة إذلالًا، والمحبة عبودية.التعاطف مع المظلومين يبدأ غالبًا كنوع من الشفقة، أي كاهتزاز غريزي أمام مشهد الألم أو القهر. نرى طفلًا يئنّ، أو سجينًا يُذَلّ، أو شعبًا يُسحق، فتنتفض فينا نوازع الشفقة، ثم نندفع بكل عفوية نحو الحزن والسخط والغضب. لكن الشفقة إن لم ترتقِ إلى مقام العقل لتصير تعاطفًا، فإنها تصبح بحرًا من الألم العاجز، حيث يُستنزف القلب، وقد تتحول الشفقة إلى عُقدة ذنب. ذلك لأن الغريزة، مهما كانت نبيلة، فإنها لا تضمن بناء التضامن الإنساني.

وحده العقل يُعلّمنا كيف نحزن دون أن ننكسر، وكيف نتضامن دون أن نُستنزف، وكيف نُبقي نار التعاطف مشتعلة دون أن تلتهمنا.

العقل لا يُطفئ العواطف، بل يُهذّبها، يوجّهها، ويمنحها أدوات الفهم والعمل والدوام. العقل يقول لك: لا يكفي أن تشعر بالظلم، بل يلزم أن تفهم كيف ولماذا وقع الظلم؟ وأين فشلت المقاومة؟ وما الممكن؟ ما الواجب؟ ما العمل؟ وبهذا النحو يُحوّل العقل الشفقة إلى

تعاطف، والتعاطف إلى تضامن، والتضامن إلى موقف عملي واقعي وفعّال.

المظلوم لا يحتاج إلى دموعنا بقدر ما يحتاج إلى وعينا، يحتاج إلى أن نُحسن فهم ألمه، لا أن ننظر بعين الشفقة. الشفقة انفعال نبيل يولد من التعاطف، ومنهاه الإحسان.

أما الحب فهو انفعالٌ نبيلٌ أيضًا، يولد من خليط من المشاعر (الجنسية، البيولوجية، الجمالية، الميزات الجسدية، الذهنية...)، وينمو مع الحنان الذي هو منبع المشاعر الإيجابية كلها (الرحمة، العطاء، التضامن، المساعدة، اللطف)، لكنه لا يستمر إلّا إذا تَغذّى بالعقل، وتروّى بالفهم، وتهذّب بالمعرفة، وأثناء ذلك يزداد تجذّرا في أعماق الحنان، مثل الشجرة التي تنمو في مستوى الأغصان والجذور معا. فلا تكفيه التربة الجيدة، بل يحتاج إلى معرفة بكيفية السقي، والتقليم، والحماية. بغير ذلك، يمكن أن يتحوّل أجمل حبّ إلى نبتة ذابلة.

ما يعني أن العقل لا يطفئ المشاعر، بل على العكس، يُهذّبها ويُنضجها. إنه لا يقف في مواجهة العاطفة، بل يصعد بها من المستوى الانفعالي إلى المستوى القيَمي. إنه من يمنح للتعاطف اتزانه، وللحنان نضجه، وللحب دوامه.

يُقال لا تتبع مشاعرك، بل اتبع عقلك. لكن العقل لا يُلغِي الحب، بل يُحرره من الفوضى، ويجعل منه موقفًا أخلاقيًا دائمًا لا انفعالاً ظرفيًا عابرًا. أن تحب عقلانيًا معناه أن تحب دون أن تُخضِع أو تخضَع.

حين تُنار المشاعر بنور الفكر، تصير أفعالاً راشدة، وتخرج من دائرة التلقائية العمياء إلى أفق المسؤولية الإنسانية.

والحنان هو التربة التي تمنح الحب جذوره، هو الأصل الباطن الذي يغذي كل شعور نبيل: منه يتفرع العطف، وتنبثق الرحمة، ويزهر العطاء. من دون حنانٍ أصيل، لا يستطيع الحب أن يتجذر، بل يظل هشًّا، سريع

الذبول، لا يقاوم عواصف الزمن. الحنان هو ما يجعل الروح تحتمل هشاشتها والقلب يتسع لغيره. إنه لغة الأصل، لغة الأمومة الكونية، التي تسبق كل الكلمات.

أما العقل فهو الهواء الذي يمد الشجرة بأفقها، بحيث ترتفع الأغصان نحو الشمس. بالعقل يتحرر الحب من عمى اللاوعي وعبودية التملك. بالعقل يتزن الحب فلا يصير وسواسًا وهوَسًا، وبالتالي يتبصر ولا ينقلب إلى جحيم من الغيرة، ويتهذب فلا ينحط إلى أنانية متنكرة. العقل لا يطفئ نار الحب، بل يحفظها متّقدة دون أن تحرق، وهادئة دون أن تخبو.

الحب الناضج إذًا هو لقاء بين عمق الحنان وصفاء العقل. جذوره في حنانٍ يثبّت ويغذّي، وأغصانه في عقلٍ يوازن ويهذب. وحين تلتقي التربة بالهواء، العمق بالعلو، يولد الحبّ الإنساني في أبهى صوره: شجرة وارفة الظلال، تمنح الأمان لمن يستظل بها، وتطرح ثمار الحكمة لمن يقترب منها.

ذلك هو الحب الذي لا ينهار مع أول عاصفة. إنه الحب الذي يثمر وفاءً ودفئًا ونضجًا، حبٌّ لا يلتهم بل يحتضن، لا يستهلك بل يثمر، لا يستعبد بل يحرر.

ليس الحب الناضج هو ذاك الذي يشتعل بسرعة، بل ذاك الذي يعرف كيف يستمر، كيف يتكيّف، كيف يحتمل الخسارات، ويخترق التقلّبات، ويحمي كرامة الجميع.

2 - تمارين فلسفية في الحب الناضج

ليس الحبّ مجرد نزوة عابرة أو تعلق وسواسي، بل هو تمرين فلسفي طويل النفس، تدرّبٌ روحيّ على فنّ العيش مع الذات ومع الغير، إنه تمرين لا يتطلّب فقط صدق المشاعر، بل يستدعي يقظة الفكر، وحنكة

التأمل، وصرامة الانتباه. فالحب ليس مجرد حدث انفعالي بل تمارين روحية.

نخطئ حين ننتظر أن يأتي الحبّ مفاجئًا، ساحرًا، غامرًا. نخطئ حين نتخيّله ينقضُّ علينا من حيث لا ندري، في لحظة خارقة، أو تحت ضوء القمر، كما لو كان معجزة تهبط على قلوبنا من السماء. صحيح أن الحب قد يشتعل بسرعة ويندفع بقوة، لكنه لا ينضج إلا بفعل التكرار، ولا يعيش إلا في التفاصيل الصغيرة، في الرعاية اليومية، في القدرة على الاحتمال، والالتزام بالصبر على هشاشة غيرنا وهشاشتنا نحن.

الحب تمرين على الانتباه:

أول تمارين الحب الناضج أن تكون منتبهًا إلى من تحب، أن تراه كما هو لا كما تريده، أن ترى آلامه، أن تستوعب صمته، وتنتبه لأحواله الدقيقة التي لا تُقال بالكلمات. الحب لا يعني أن نتكلم كثيرًا، بل أن نُصغي كثيرًا أيضًا، وأن نمنح للآخر المساحة التي لا يشعر فيها أننا نراقبه، بل نرافقه.

قد يبدأ حين ننجذب، لكنه يتعزّز حين ننتبه. الانجذاب قد يكون غريزيًا، تلقائيًا، عفويًا، وحتى ساذجًا أحيانًا، لكن الانتباه فعل فلسفي يتحقق بالوعي. الحب هو أن ترى الغير كما هو بالفعل، بضعفه، بتردّده، بانكساراته، وأن تُقاوم ميلك الفوري إلى إصلاحه، لأنك حينها تكون من حيث لا تدري تريد احتلاله والاستحواذ عليه. لتساعد على نموّ المحبوب(ة) عليك أن تُعامله(ا) كعالم مستقل بذاته، لا كمرآة لذاتك.

بهذا المعنى، الحبّ تمرين على التحرّر من النرجسية، وعلى الإصغاء دون نية التعديل، والنظر دون شهوة التملك. إنه حضورٌ منتبه، دون انفعال مشوَّش.

أن تحب يعني أن تُهدي الآخر شعورًا بالسكينة الوجودية، كأنك

تقول له دون كلمات: «أنا هنا، لا أطاردك، لا أستعجلك، ولا ألزمك مسبقًا بأي شيء، كل ما في الأمر أنني هنا».

الحب تمرين على عدم التملك:

الحب الحقيقي لا يُمسِك، لا يُقيِّد، لا يُراقِب. الحبّ الحقيقيّ يُتقن فنّ التوازن الضروري والدقيق بين القرب والحرية. لكي تحب حقًا لا بد من اختبار قدرتك على قبول أن الآخر ليس لك، أن تحبّه كما هو، لا كما تريد أن تروّضه ليكون، وأن تراه طليقًا، فقد يختارك وقد لا يختارك، قد يجدد اختياره لك كل يوم وقد يأتي يوم لا يختارك، ومع ذلك تتمنّى له السلام.

من لا يستطيع أن يحب دون تملّك، فإنه لا يزال في مرحلة الرغبة، ولم يرتق إلى مقام الحب. ومن لا يستطيع أن يرخي قبضته، فإنه لا يزال في مرحلة الخوف، ولم يرتق إلى مقام الثقة والأمان.

الحبّ تمرين على التواضع:

في الحبّ يكتشف المرء أنه ليس مركز العالم، بل هناك من لا يفكر مثله، لا يحبّ مثله، لا يخاف مثله. هنا تكمن الدهشة، حين نلتقي بشخص لا يشبهنا ونُحبّه رغم ذلك، بل بسبب ذلك.

الحبّ يُربّينا على الاعتراف بالغيريّة، لا على محوها. وهذا درس فلسفي من الطراز الرفيع، لأن الفلسفة الحقّة ليست بحثًا عن التطابق، بل قبولًا بالاختلاف.

الحبّ تمرين على المعنى:

من خلال الحبّ ندرك أن معنى الحياة لا يُعطى جاهزًا، بل يُصنع من تفاصيل العناية اليومية. ليس المعنى في الخطب الكبيرة، بل في كوب شاي يُحضّر بمحبة، في نظرة تُنقذ الآخر من وحشته، في جملة تقول بكل بساطة: «أنا هنا فلا تقلق».

الحبّ يُعلّمنا كيف يكون للزمن طعمٌ، وللروتين لحنٌ، وللعالم لونٌ، لأنه يُدخِل المعنى إلى كل التفاصيل المنسية. بهذا المعنى، الحبّ هو الفلسفة حين تنزل إلى رصيف الحديقة العمومية.

الحب تمرين على القبول:

الحب ليس مشروع إصلاح للآخر. لسنا نحبّ أحدًا لكي نُعيد تشكيله على صورتنا. فالحب تقبُّل، والقبلة اصطلاحًا توقيع على التقبّل.

القبول تمرينٌ على تقبّل أنك لست الأعلم ولا الأعرف، ولا الأقوى، وأيضًا لست الأضعف، لأنه تمرين على أنّه لا تجاذب قوّة بين الحبيبين. القبول لا يعني الاستسلام لكل شيء، بل يعني الامتناع عن تحويل العلاقة إلى ساحة معركة بين شخصين يريد كلٌّ منهما أن ينتصر.

بهذا المعنى للقبول بُعدٌ فلسفي.

الحبّ تمرينٌ على ترميم الشروخات:

كل علاقة عميقة تمرّ بلحظات شرخ لأسباب بسيطة أو أسباب عميقة أيضًا، وأحيانًا قد لا نفهم السبب، ولا ندرك مدى عمقه. هنا تظهر قوّة الحب عبر الصبر، والتفهّم، الحرص والاحتضان. وأحيانًا قد نخدش الآخر ونتمسّك برفض تقبّل أننا خدشناه. كل هذه الأمور تسبب شروخًا علينا معًا مداراتها ومعالجتها، وهو أمرٌ صعب، ولن ننجح فيه إلا إذا كانت قوة الحب أعلى من كل هذا. ألّا نكسر ولا ننكسر، بل أن نمتلك الشجاعة للاعتذار، والمرونة للإصغاء، والنية الطيبة للترميم وإعادة البناء.

ترميم الحب لا يعني إلغاء الخلاف، بل إدارته. ولا يعني الانسحاب عند أول تعب، بل الالتفاف بلطف حول النقطة المؤلمة، إلى أن تهدأ.

أن نُحب يعني أن نعود، لا كي نُكرّر الخطأ، بل كي نُصلحه.

الحبّ تمرين على التخلّي:

كلّ حبّ ناضج يعرف فنّ التخلّي دون قسوة، والانفصال دون تحطيم. لأن الحبّ الحق لا يُمسك بل يُرافق. لا يُقيّد بل يُحرّر.

أن تحبّ يعني ألّا تعتبر أنه على الآخر أن يكون خلاصك الوجودي. الحبّ لا يمنح الأبدية لكنه يُعلّم كيف نعيش اللحظة كما لو كانت تكفي. وهذا أسمى دروس الحكمة.

الحبّ تمرين على الصبر:

لا حبّ من دون صبر، لا حبّ من دون تأجيل، لا حبّ من دون تنازل محسوب. في هذا السياق، الحبّ ليس رعشة، بل بناء يتطلّب هندسة دقيقة، صبرًا على الانهيارات المحتملة، ومرونة أمام الهزات العنيفة.

الحبّ في جوهره، مشروع يوميّ، لا لحظة خلاص. الحب هو أن تواصل السير في طريق لا تخلو من العثرات، لكنك تعرف أن هذا الطريق يستحقّ السير فيه.

الحبّ ليس نقيضًا للفلسفة، بل أحد ميادينها الأساسية. في الحبّ، كما في الفلسفة، لا نبحث عن اليقين بل عن المعنى، لا عن الامتلاك بل عن الفهم، لا عن الأجوبة بل عن الأسئلة الجيّدة.

الحب تمرين دائم على أن نكون أقلّ أنانية، أكثر حضورًا، أوسع فهمًا، أعمق تعاطفًا. وإذا كان سقراط يقول: «اعرف نفسك»، فإن الحبّ يقول: «اعرف غيرك، لتعرف نفسك».

الحب تمرين على الحنين الهادئ:

في الحب الناضج، نتعلم أن نشتاق دون أن نُصاب بالذعر. نتعلم أن نترك الآخر يغيب أحيانًا، دون أن نخاف من الفقد أو الفقدان.

الحنين الناضج لا يَجرُّنا إلى التعلق بالماضي، بل يُعلّمنا الصبر

على ما فات. إنه يربّي فينا قدرة روحية على الانتظار دون تعلّق، وعلى الاشتياق دون قلق.

إنه تمرين على الثقة. والثقة في الحب ليست شعورًا وحسب، بل فضيلة تُكتسب.

الحب تمرين على المحبة بلا مقابل:

نُحب لا لنأخذ، ولا لنحصد مكسبًا، بل نُحب لأنّنا نُحب. نعطي لأنّ في العطاء امتلاءً لنا، لا نقصانًا منّا.

الحب تمرين على الخروج من منطق السوق (كم أعطيت؟ كم أخذت؟) ودخول منطق النعمة: أحبك لأني أحبك.

وإن لم تُبادلني ما أتوقّعه من الحب، فلا بأس، ما دمت أحبك بأسلوب لا يهينني، ولا يُذلّك. الحب الناضج ليس ضعفًا ولا تفريطا في الكرامة، بل تمرينٌ على قوّة ناعمة، لا تُجبر أحدًا، ولا تستجدي أحدًا.

الحب ليس مجرد نزوة عابرة أو تعلق وسواسي، بل هو تمرين روحي طويل النفس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المرافعة الخامسة
القُدرة على الحب

1 - الحب والقدرة

قد لا تعيش قصة حب تخصّك. ربما لا أحد يُفكر فيك، لا أحد يشتاق إليك، ولا وجه ينتظرك خلف النافذة. لكن ذلك لا يبطل إمكان أن تكون مُحبًا، ومحبوبًا أيضًا. لأن الحب، قبل أن يكون علاقة ثنائية، هو بنية وجدانية داخلية، وتوجُّه قصدي نحو العالم، وخصوبة روحية تنتج قابلية العطاء، ونور قيَمي يفيض من القلب على العالم، قبل أن يعود أثره في هيئة رجع صدى.

قد لا تكون تعيش قصة حب، أو ليس بعد، لكنك تستطيع أن تكتب كأنك تُحب الكل، ترسم كأنك تحتضن الجميع، تعزف على آلة موسيقية كأنك تهمس في أذن غائب لا تعرفه، لكنه قد يرمز إلى الغير إجمالا. فالحب ليس فقط ما يحدث بين اثنين، بل ما يحدث داخل الواحد حين يكون ممتلئًا بالعطاء، منصتًا للجمال، متوهجًا بالمعنى. لذلك قد لا تعيش قصة حب بالضرورة، لكنك قد تملك القدرة على الحب. هذه القدرة كافية لأن تجعل حياتك بهجة تتجدد كل يوم.

نحن لا نتعلم الحب، بل نتعلم كيف نصبح قادرين على الحب.

نتعلم كيف نُنمّي قدرتنا على الحب.

أما الحب فهو لا يُعلّم كما تُعلّم قواعد الرياضيات أو قواعد العروض.

لا أحد يستطيع أن يقول لك: «افعل كذا كي تحب، أو عليك أن تحب بهذه الطريقة أو تلك». الحب ليس تقنية، بل حالة من الانفتاح الوجودي، من الإقامة في العالم بروح شفافة تفيض دون أن تطلب.

الذي يمكننا أن نتعلمه وننميه ونطوره هو القدرة على الحب. فنحن لا نولد قادرين على الحب، تمامًا كما لا نولد قادرين على الإنصات أو على قول الحقيقة. ومن خلال الحب نتعلم كيف نوسّع صدورنا بدل أن نغلقها، كيف نحب من لا يشبهنا، ولا يعيد إلينا صوتنا الداخلي. من خلال الحب نتعلم كيف نحب من دون أن نطلب ضمانًا، من دون أن نُلزم غيرنا بأفق انتظاراتنا.

القدرة على الحب ليست نتيجة إملاءات، بل ثمرة نضج داخلي. فهي لا تنمو في أوقات الفرح والشغف واللقاءات الأولى وارتجافات القلب والجسد بقدر ما تنمو في أعقاب الخيبات، وبعد أن نتعرض لألم التحطم مرات عديدة، وبعد أن نرى أنفسنا على ما نحن عليه بالفعل: هشّون، ناقصون، ونتوق إلى مَن يؤنسنا في رحلة الوجود الموحش، دون أن يُلغي وجودنا. حينها نتعلّم كيف نبني حبًا قادرًا على تجاوز الخيبات والآلام، وعندها نصير قادرين على الحب، لا لأننا صرنا أقوى، بل لأننا صرنا أكثر قبولاً لضعفنا وضعف غيرنا.

فلا تسأل: هل أحببت يومًا؟ بل اسأل: هل أصبحتُ قادرًا على الحب؟ هل وسّعت قلبي بما يكفي لأستقبل مَن لا يُشبهني؟ هل نزعت من نفسي أشواك التملك والغيرة والرغبة بالسيطرة؟ هل أستطيع أن أحب أحدًا ولا أخاف أن يختفي؟ هل أستطيع أن أستمر في الحب ولو لم يُبادلني القدر نفسه؟

هذه الأسئلة هي التي تُخرج منك الإنسان الكامن فيه، وتمنحك المناعة الوجودية.

2 - تنمية القدرة على الحب

تبدأ تنمية القدرة على الحب حين تنكسر الصورة:

ذلك أن القدرة على الحب لا تُكتسب إلّا بعد أن تنهار أوهامنا الأولى: حين نكتشف أنّ الحب ليس كما تخيّلناه في قصص الأميرات

والفرسان، ليس خلاصًا نهائيًا، ولا سعادةً لا تنتهي. كما أن من نحب قد لا يُحبنا، أو قد يحبنا ثم ينكسر، أو قد يحبنا بطريقته التي لا تشبه توقّعنا.

في خيبات الحب الأولى، لا نموت، بل نولد من جديد. نولد بوعي جديد. كأن الروح تُغسَل بجرح عميق، لنخرج منه أقل وهمًا، وأكثر صفاءً. أو هكذا يُفترض.

من هنا قد تتطور قدرتنا على أن نحب دون حاجة إلى الأوهام، وأن نُخلص في حبنا دون أن نقعد على كرسي انتظار، وأن نحزن عند الضرورة لكن دون أن نُصاب بالانهيار.

فالحب ليس دائمًا علاقة، بل حالة داخلية:

ليس شرطًا أن تعيش قصة حب كي تكون مُحبًا. فقد لا تطرق بابك قصة من ذلك النوع الذي يُدوَّن في الروايات الرومانسية، والتي لم تعد تصلح حتى للأطفال، لكنّ قلبك قد يكون أكثر خصوبة ممن عاش ألف علاقة بلا عمق ولا معنى.

قد تكون وحدك في غرفتك، تكتب، ترسم، تصلي، تداوي، تعلم، تصغي، إلخ، تفعل كل ذلك كأنك تفعله لشخص لم يأتِ بعد، كأنك تهدي عملك إلى حضور غير مرئي، كأنك تردّ الجميل لحب لم يحدث، أو تفي بوعد قطعه قلبك منذ زمن. ذلك أن القدرة على الحب لا تحتاج إلى معشوق محدد، بل تحتاج أولًا إلى حالة داخلية من الاتساع الروحي تجعل الإنسان قادرًا على أن يفيض حتى لو لم يكن هناك من يستقبل الفيض. ذلك أن القدرة على الحب هي ما يجعل الإنسان إنسانًا.

من يملك هذه القدرة، حتى إن لم يحب أحدًا، فهو ليس فارغًا. بل ممتلئٌ بما يكفي ليشارك العالم شيئًا من جماله الداخلي. لأنه حين يحب، لا يُريد أن يأخذ، بل أن يُضيف. لا يسعى إلى ملء فراغه، بل إلى مشاركة امتلائه.

هو يحب لا ليُرى، بل لأنه لا يستطيع أن يكون إلا كذلك. فقد

صارت المحبة فيه مثل النَّفَس، مثل الإحساس، مثل الإيمان الذي لا يحتاج إلى برهان.

هذه القدرة، وحدها، هي التي تجعل الإبداع مُمكنًا، والسلام الداخلي متاحًا، والوجود أقل قسوة.

لذلك، حين تُسأل: هل عشت قصة حب؟ ربما لا تجد ما تقول.

لكن حين تُسأل: هل صرت قادرًا على الحب؟ فهذا هو السؤال الحقيقي، سؤال النضج، سؤال المعنى، سؤال مصائر الروح، وبالتالي مصائر الإنسان.

وهذا سؤال آخر، قد يكون الأخير هنا: كيف ننمي القدرة على الحب في أواخر العمر؟

حين تنحني الذاكرة كقوس متعب، تتباطأ خطوات الجسد، ويخفت ضوء الحواس، حين يصبح العالم أكثر صمتًا، والروح أكثر هشاشة، هل نستطيع أن نحب بعد كل هذا؟ وهل يُمكننا أن نُنمي القدرة على الحب من جديد؟ الجواب: نعم، لكن ليس بالكيفية نفسها.

3 - القُدرة على الحب في أواخر العمر

في أواخر العمر، يُصبح الحب فعلاً من أفعال الحكمة.

القُدرة على الحب في آخر الرحلة لا تُبنى على أساس الرّغبة، بل على أساس العطف والحنان. لا يسعى الحب إلى الامتلاك، بل الامتلاء. لا يتغذّى على الوعود الكبيرة والمواعيد المتكررة، بل على الأثر الجميل. في أواخر العمر، نحب كما يحبّ من يعرف أن الوقت قليل، وبالتالي نختصر الشكوى، نتجاوز اللوم، ونصغي كما لم نصغ من قبل.

في ذلك الوقت، يُصبح الحب شبيهًا بما قاله ليفيناس، مسؤولية غير مشروطة عن وجه الغير، لا مجرد رغبة في الآخر، بل مسؤولية كاملة حياله، ولو في صمت هادئ وعميق.

كيف نصون القدرة على الحبّ في أواخر العمر؟

أربعةُ مسالك أساسية:

أولاً، المصالحةُ مع الماضي:

لا تزهر القدرةُ على الحبّ في قلب مثقَل بديون قديمة. في أواخر العُمر تصير المصالحةُ مع كل ما وقع وكل ما لم يقع بابَ العودة إلى الحبّ، ومن ثم العودة إلى الحياة. لا حبَّ مع الندم. لذلك، أطفئ شمعة الأسى، وامسح من اللغة كلمات من قبيل، لو، ليت، ربما... ومرِّن الذاكرة على أن تتذكر من دون أحكام.

ثانيًا، التخفّفُ من الأنا:

يُهدي الزمنُ لمن طال مُكوثُهم فيه نعمةَ التخفف، حيث يتخفّفون من تضخّم الذات. وكلّما خفّت الأنا ازدادت قابليّةُ القلب للحبّ. فالحبّ في الكِبَر ليس شغفًا مُستعرًا، بل هو رفقٌ مقصود، وكرمٌ بلا ضجيج، ولمسةُ حكمةٍ بعد نُضجِ العقل.

ثالثًا، الحُنُوّ على ما تبقّى من الحياة:

على حافّة العمر نرعى الصغير: زهرة تُبهج، طفلٌ يُعيد الوهج، وكلمةٌ طيّبةٌ تصير غذاءً للروح. هذا الحنوّ بذرةُ الحبّ في صورته المتأخّرة والأعمق نُضجًا، نَسقيها بالتأمّل والامتنان والعودة إلى البساطة.

رابعًا، التفكيرُ في مَن بعدَنا:

قد لا نطلبُ الحبَّ لأنفسنا، لكننا نوسع مجالَه ليشمل القادمين: نزرعُ ما لن نقطف، نغفرُ لنخفّف الإرث، نكتبُ ونُعلّم ونُوصي، ونترك أثرًا صغيرًا يدلّ على أننا أحببنا، من غير أن نأخذ شيئًا. ففي آخرِ الحساب لا أحد يأخذ شيئًا.

القدرة على الحب لا تموت مع الشباب، بل قد تولد من جديد حين تضيق الرغبة المباشرة وتتسع الرؤية غير المباشرة، حين لا نطلب

شيئًا ولا نستعجل شيئًا، فنصير بهذا النحو قادرين على أن نعيش الحياة بإيقاعها الحقيقي. حيث الأصل في الأشياء ألّا شيء يأتي قبل أوانه.

على حافّة العمر، لا نُحب لأننا نحتاج آخرَ، بل نحب لأننا نعلم أن الحب هو الذي يدعم مناعتنا الوجودية، ويمنحنا المعنى.

4 - القدرة على حب الأطفال

الحب ليس ماذا نمنح للطفل؟ بل، كيف نكون حاضرين معه؟

حين نقول إننا نحبّ أطفالنا، فإننا غالبًا ما نعني أننا نوفر لهم ما يحتاجونه: الطعام، الدفء، اللعب، الحماية، التعليم... لكن الطفل لا يتعلّم الحب ممّا يأخذه، بل ممّا يشعر به وهو في حضرة من يُحبّه.

طفل يُحتضَن دون استعجال، طفل يُصغى إليه بوجه هادئ، طفل يُسمح له بالبكاء دون تأنيب، وبالفرح دون قيد، طفل يرى الحب في النظرة قبل الهدية، في التشجيع قبل المكافأة، في نبرة الصوت قبل استيعاب الكلمات، وفي طريقة الإنصات، واحترام المساحة الخاصة.

بهذه الطريقة، لا نُقدم الحب للطفل كما نقدم إليه الحليب، بل نُعلّمه أن يكون قادرًا عليه.

لا نلقنه دروسًا في الحب، بل نهيئ له مناخًا ليصبح مُحبًّا:

تمامًا كما لا يمكننا أن نُعلّم زهرة كيف تتفتح، لكننا نهيئ لها التراب، الضوء، الهواء والماء، كذلك لا نُعلّم الطفل الحب كدرس يُلقَّن في أوقات معينة، بل نزرعه في مناخ يومي من الاحترام والحنان والعدالة.

نعلمه الحب حين نعتذر منه إن أخطأنا، حين نحترم خوفه ولا نسخر منه، حين نُصغي إليه دون أن نُقاطعه، حين نُعلمه أن الغير ليس عدوًّا بل مرآة، وأن الخلاف لا يعني الكراهية، وأن القوة ليست في الصراخ، بل في الطلب برفق.

اللعب هو تمرين أول على الحب:

اللعب ليس ترفًا، بل هو مختبر الطفولة. حين يلعب الطفل، يتعلم أشياء لا تُقال في الجمل، يتعلم المشاركة، الصبر، التناوب، القبول، الرفض والتفاوض. لكن اللعب لا يكون مُعلمًا للحب إلا حين لا يبالغ في الطابع التنافسي، حين لا يكون مشحونًا بالخوف من الخسارة.

حين يُسمح للطفل أن يلعب لا ليكون الأفضل، بل ليكون مع الآخرين، حينها تنمو فيه البذور الأولى للقدرة على الحب: القدرة على التواجد، على الانسجام، على المرح دون غلبة.

في حضن الحكاية تنمو مشاعر الرحمة:

الحكايات بدورها ليست مجرد وسيلة للترفيه فقط، بل هي مجال خصب لزراعة الخيال العاطفي، وتوسيع قدرة الطفل على التقمّص، وأن يشعر بما يشعر به الغير، وأن يرى العالم عبر عيون أخرى.

ينبغي اختيار حكايات لا تزرع الخوف بل الحنان. لا تعزز الانتقام بل المغفرة. لا تُؤله القوة بل تحتفي بالعطف والتعاطف.

كل مرة يتأثر فيها الطفل بموقف خيّر، تنمو فيه القدرة على أن يكون بدوره خيّرًا.

القدرة على الحب تبدأ حين يشعر الطفل أنه محبوب كما هو:

طفل يُحب بشرط أن يكون مطيعًا، جميلاً، ذكيًا، ناجحًا... لن يتعلم الحب، بل القلق سيظل مشروطًا في حبه لنفسه، وفي حبه للآخرين. أما حين يُحب الطفل كما هو، حين نُشعره بأن وجوده وحده يكفي كي يكون محبوبًا، حين يُحتضن في ضعفه،حينها تبدأ جذور الحب في التشكل.

نحن لا نُعلّم الطفل أن يُحب كما لو أننا نلقّنه جدول الضرب، بل نزرع فيه القدرة على الحب كما تُزرع شجرة، ببطء، برفق، بصبر، دون صراخ ودون تسرّع.

وإذا نجحنا في ذلك، فلن نكون قد أعددنا طفلاً ناجحًا فقط، بل إنسانًا قادرًا على أن يجعل العالم مكانًا أقل قسوة، طالما عرف الحب ويعرف كيف يحب.

المرافعة السادسة

أخلاقيات الحب الناضج

1 - أخلاقيات الحب

إذا كان الحب تمرينًا روحيًا، فهو لا يكتمل إلا حين يتجسّد في أخلاقيات يومية. وإلا فما قيمة الحب إن لم يُربِّ فينا حسًّا بالمسؤولية؟ وما جدوى العاطفة إن لم تُثمر سلوكًا نبيلاً يقاوم الأنانية، ويحتضن الهشاشة، ويعلمنا كيف نحب بانتباه وهدوء لئلا نؤذي من نحب؟!

ليس كافيًا أن تقول «أحبك»، بل يجب أن تسأل نفسك كل يوم، كيف أحبه؟ وكيف أكون جديرًا به في غيابه كما في حضوره، في بُعده كما في قربه؟

أخلاقيات الحضور:

أن تكون حاضرًا في الحب حقًا يعني أن تُنصت لا لترد بل لتفهم وتتفهّم، أن ترى الآخر لا كما تتخيّله بل كما يتجلى أمامك، أن تراه حين يتعب أو يمل، من دون أن تجرّده من حقه في أن يكون هشًّا، متقلّبًا، متعَبًا.

الحضور في الحب ليس هو الامتلاء بالكلام، بل هو الفراغ الذي يتيح الإنصات. أن تكون حاضرًا ليس معناه أن تملأ المكان، بل أن تهيئ فيه مساحة للآخر كي يكون.

أخلاقيات الاحترام:

في الحب لا يوجد امتلاك، بل مرافقة. لا ينبغي أن يتحول القرب إلى مراقبة، ولا العناية إلى خنق. فمن نحب ليس ملكًا لنا بل شخصٌ حرٌّ، نختار أن نرافقه، لا أن نحتكره.

الاحترام في الحب هو أن تعترف للآخر بحقه في أن يكون مختلفًا، وفي أن يحتفظ بجزءٍ من نفسه لا يخصك.

أخلاقيات الصدق:

ليس الحب مساحة للمكر والخداع، بل هو أقدس موضع للكشف والتعرّي. ليس الصدق في الحب صدقًا قاسيًا يُجرّح بلا رحمة، ولا صدقًا انتقائيًا يُخفي ما لا يناسب، بل صدقٌ عميقٌ وناعمٌ، إنه صدق الانكشاف، حيث ترتاح الروح في البوح الحميمي، مثلما يرتاح الجسد في حميمية التعري.

أن تكون صادقًا لا يعني أن ترمي كل أحزانك وأشباحك وجروحك على الغير، بل أن تجعل الانكشاف سبيلًا لتعبيد الطريق نحو مزيد من الثقة.

أخلاقيات الغفران:

لا حب من دون أخطاء، ولا أخلاق في الحب من دون قدرة على الصفح والتسامح والغفران. الغفران هنا ليس مجرد نسيان، بل وعيٌ عميقٌ بأن الغير ليس معصومًا، كما لسنا معصومين بدورنا.

في الحب لا نغفر لأننا ضعفاء، بل لأننا نُدرك هشاشتنا المشتركة وندرك أهمية عدم التذكير بالأخطاء.

نغفر، وبالتالي نمنح للحب فرصة أخرى، لا لأننا نُبرّر الخطأ، بل لأننا نثق بأن الحب قد يُغير ويتغير، والعلاقة قد تنمو وتتطور، وفي الوقت ذاته لا نظل بدورنا كما كنا. صحيح أنّ التغيّر ليس مطلوبًا باعتباره شرطًا، وصحيح أنه لا يمكن أن يكون وفق مقاييس محدَّدة، بل صحيح أيضا أن الكثيرين لا يتغيرون، أو قد يتغيرون نحو الأسوأ. إلا أن أخلاقيات الحب تقتضي أن نراهن على الغفران لأننا نتمسّك بمن نحب، وعدم الغفران يعني النهاية مع ما يرافقها...

أخلاقيات الحرية:

أخطر ما يُهدد الحب هو التملك. الحب لا يعني أن نحب الغير «كما نريد»، بل أن نُحب حريته، أن نترك له مساحته ليذهب ويعود، وأن نرغب بحضوره عندما يذهب، وأن نحب عودته حين يعود من دون أن نُقايضه بالذنب.

الحب الذي لا يحمي حرية الغير مجرد عبودية تتنكر في هيئة المطالبة بالالتزام.

الحب الناضج التقاء بين روحَين تتعلّمان كيف تتراعيان من دون ابتلاع، وكيف تتجاوران من دون تضييق، وكيف تتخليان عن أن تكونا كاملتين، فقط من أجل أن تكونا حقيقيتين.

الحب ليس مجرد لقاء يتم بالصدفة أو عن طريق القدَر، بل موقفٌ أخلاقيٌّ من العالم والآخر والنفس. وكل يوم نحب فيه، هو يوم نُعيد فيه ترتيب علاقتنا بأنبل ما فينا.

2 - التّواضع في الحب

في الحبّ، كما في كل ما يتعلّق بالجمال الروحي، لا يكبر المرء إلّا حين يتواضع، ليس تواضع الجبان الذي يُخفي نفسه لأنه لا يجرؤ على الظهور كما هو، ولا تواضع الضعيف الذي يقبل الفُتات ويعتبره ريعًا كريمًا أو رزقًا مباركًا، بل تواضع العارف الذي يرى نفسه، ويرى غيره، ثم يرى العلاقات مسافات تستوجب التقدير والاحترام.

الحب المتكبّر لا يدوم طويلاً، بل سرعان ما ينقلب إلى علاقة عنيفة. والمُحب الذي يعتقد أنه يعرف الآخر، أو يستحقه مسبقًا، أو يفهمه على نحو جيد، ينتهي غالبًا إلى سوء الفهم، ومن ثم سوء التصرّف.

التواضع هو أن نقبل أننا لا نعرف كل شيء عن الآخر:

مهما اقتربنا يبقى الغير ذاتًا أخرى، ونخطئ إذا ظننا أننا نعرفها

بما يكفي لفهم أي تصرّف تقوم به، أو رأي تبديه، أو رد فعل تظهره. حيث هناك مناطق صمت، غابات من الأسرار، نغمات لا يسمعها إلّا صاحبها. التواضع هو أن نكفّ عن الفضول الاستحواذي، وأن نقبل الغموض كركن أساسي للرؤية الجمالية إلى العالم والإنسان وتبدّلاته.

لا أحد يعرف الآخر تمامًا، ولا أحد يمتلكه تمامًا. والحب ليس كشفًا كاملًا، بل صحبة تتحقق من خلال احترام المجهول الكامن في كل إنسان.

التواضع هو أن نعتذر حين نُخطئ، لا أن نُبرر:

ليس الاعتذار هزيمة، بل علامة نضج. أن تقول لمن تحب «أنا أخطأت»، من دون أن تُحاول التبرير، ومن دون أن تُلقي اللوم على الظروف، أو على غيرك، هو إعلان ضمني أنك لا ترى نفسك مركز العالم. لا حبّ من دون أخطاء، والأخطاء لا تستحقّ الغفران من دون الاعتراف بها.

التواضع هو أن نمنح الحب دون ادّعاء التفوق:

أن تُحب معناه أن تكون موجودًا، متساويًا، منصتًا، تعرف أنك لست أفضل ممن تحب، ولا أفهم منه، ولا أكثر نضجًا، لكن بينكما طريق مشترك، تتعلمان فيه من بعضكما.

التواضع هو أن تقبل الرّحيل إن لزم الأمر:

منتهى التواضع أن نقول: «أحببتك، لكنني لا أملكك، وأفهم أنك ينبغي أن تختار طريقك وطريقتك». ذلك هو الحب الذي لا يتحول إلى تمسك مؤذٍ، ولا إلى لومٍ دائم، ولا إلى طلبٍ مذلّ.

التواضع هو أن نبدأ كل يوم كأننا نحب لأول مرة:

لا شيء مضمون في الحب. ولا أحد مضمون. من يتواضع، يعرف

أن الحب لا يُؤخذ كحق مكتسب، بل يُجدد كما تُجدد الأفكار التي إن أهملتها تضمر، ويُعتنى به كما يُعتنى بنبتةٍ إن أهملتها تتوقف عن النمو ولا تعود إلى نضارتها من دون العناية بها.

التواضع في الحب هو أن نحمل قلوبنا برفق، وأن نُمسك بيد من نحب، لا لنقوده، بل لنرافقه، وأن نحب كما يحب العارفون، بصمت، بحرية، باحترامٍ عميق للذات والآخر والزمن.

3 - فن الانفصال النبيل

في بدايات الحب، يكون كل شيء مشرقًا، حاضرًا، ممتلئًا بالأمل. لكن ليس كل حب يُكتب له أن يكتمل. بعض القصص الجميلة تُولد لتُحكى، لا لتُعاش طويلًا. بعض الأرواح نلتقي بها لا لتبقى معنا، بل لتُوقظ فينا شيئًا نائمًا ثم تمضي.

فحين نكتشف أن العلاقة بين شخصين سيئة، ليس معناه أن أحدهما سيئ بالضرورة، ما يعني تبادل اللوم والاتهام، بل معناه بكل بساطة وبداهة أن العلاقة سيئة. لكنها البداهة المنسية في معظم الأحيان.

هنا يظهر وجهٌ آخر للحب الناضج، أن نعرف كيف ننفصل، لا بكراهية بل بنُبل، لا بخيانة بل بصدق، لا بسخط وإنكار بل بإدراك أن ما لا يكتمل لا يعني أنه لم يكن حقيقيًا.

حين يصبح الانفصال ضرورة روحيّة:

ليست كل علاقة، مهما كانت عميقة، قدَرًا مقدسًا. أحيانًا نُحب بصدق، ثم نكتشف أن الحب وحده لا يكفي، وأن النية الطيبة لا تضمن النضج، وأن الشعور الجميل لا يُعوّض غياب التفاهم أو احترام الحدود.

النضج ليس في أن نستمر مهما كان الثمن، بل في أن نُدرك متى يكون الانفصال فعلَ حبٍّ أخير. وأن نحترم الانفصال لتبقى شعلة الحب فينا فلا تتحوّل إلى تشكيك في كل حب لاحقًا.

الانفصال النبيل لا يُشيطن الغير:

ليس شرطًا أن نكره من نفترق عنه، ولا أن نعيد سرد القصة بما يجعلنا ضحايا دائمين. فالنبل في الانفصال هو أن نقول: كنا صادقين بما يكفي حين بدأنا، ونحن شجعان بما يكفي كي ننهي العلاقة بكل احترام. لا أحد يُلزمنا أن نحمل مرارة الانفصال مدى الحياة. هناك حب لا يُكمل الطريق، لكنه لا يفقد معناه.

لا للانتقام الانفعالي، نعم للوداع العاقل:

القلب الجريح يميل إلى الثأر، يريد أن يُلقي اللوم، أو يُهين، أو يمحو كل شيء كي لا يتألم. لكن العقل حين يهدأ، يعرف أن ما كان بين اثنين من صدقٍ ودفء، لا ينبغي تشويهه.

النبل هو أن نغادر العلاقة كما دخلناها، بكل كرامة. فلا نُطفئ النور وندخل في الظلمة، بل نُخفضه بهدوء حتى نعتاد غيابه.

أن نُبقي الذكرى دون أن ننحبس فيها:

الانفصال لا يعني محو كل أثر، بل يعني أن نُعيد ترتيب الذكريات في مكانها الصحيح، باعتبارها جزءًا من مسيرة نضجنا، لا حفرة نُسقط فيها أنفسنا كلما ضعُفنا.

أن تحبّ أحدهم يومًا ثم تختار أن تتركه أو يختار أن يتركك، أو أن تتحرر من علاقة تحولت إلى عبء يهدّد نموك، هو أيضًا أحد أشكال الوفاء.

أن نخرج دون أن نصفق الباب خلفنا:

لا يجب أن نغلق الباب بغضب ونحن نغادر. لا لأننا ننتظر احتمال العودة إليه، بل لأننا نؤمن أن الاحترام لا ينتهي بالرحيل. نُغادر لا كمن يهرب، بل كمن ينحني للحياة كما هي، كونها أكثر تعقيدًا من الحلم، وأشدّ حكمة من توقعاتنا.

إنّ القدرة على إنهاء الحب لا تعني إنهاء القدرة على الحب. وفن الانفصال النبيل ليس هروبًا بل حكمة في التوقيت حين توضع نقطة النهاية بعناية، ليس ضعفًا بل قوة في الاعتراف بأن بعض الحكايات تنضج في نهاياتها، لا في امتداداتها.

ليست المواقف العاطفية خَطايا بل تجارب. وليست الأخطاء العاطفية خيانة للعقل، بل خطوات فعلية نحو النضج. وليس القلب مُدانًا لأنه أحب من لا يستحق، بل مُبارك لأنه لا يزال ينبض.

كل ما علينا فعله هو أن نتعلّم كيف نغفر لقلوبنا، لأنها لا تزال تشقّ طريقها إلى النّضج؛ وكيف نغفر لمن أحبّونا ولم يُحسنوا، ربما لأنهم لم يتعلّموا كيف يحبّون، أو بكل بداهة لأن الظروف الموضوعية لم تتح لهذا الحب أن ينضج.

المرافعة السابعة
الحبّ أساس الحضارة

1 - في مدح اللطف: فلسفة القوة الهادئة

يبدو اللطف في ظاهره كما لو أنه فضيلة صغيرة، هامشية. بل الغالب على ظن الناس تصنيفه كقيمة أنثوية، مقابل قيَم العدل أو الحرية أو الحقيقة، والتي يُنظر إليها كما لو أنها قيم ذكورية. غير أن هذا الانطباع الشائع يخفي حقيقة أعمق: اللطف هو الخيط الخفي الذي يجعل كل القيَم الإيجابية ممكنة في الممارسة اليومية. فمن دون لطف، يصبح العدل مجرّد شرعنة للقسوة، وتتحول الحرية إلى فرصة لتبرير الغلبة، وتنقلب الحقيقة إلى سيف يبرر القمع.

اللطف ليس ضعفًا ولا سذاجة، كما يتوهّم كثيرون، بل اختيارٌ واعٍ لموقف أخلاقي إزاء الآخر، موقف يعترف بهشاشته ويحتفي بكرامته في آن واحد. اللّطف ليس غياب القُدرة على استعمال القوة، بل حضور القُدرة مع الامتناع المتعمد عن استخدامها. اللّطف ضبط للقوة، ترويض للنفس، وتذكير بأنّ الغلبة على النفس أرفع من الغلبة على الغير.

على الصعيد الفلسفي، يمكن النظر إلى اللطف باعتباره موقفًا أنطولوجيًا من العالم: أن تكون لطيفًا معناه أن تختار ترك مسافة بينك وبين ما يثير القسوة فيك، أن تستجيب للوجود لا بوصفه ساحة صراع محض، بل باعتباره مجالاً للتلاقي والتساند. هذا الموقف يجد صداه في الفلسفات الروحية الكبرى: في المسيحية، كما في البوذية؛ وفي التصوف الإسلامي كما في الفلسفة الرواقية، وفي الدعوات الإنسانوية، ففي كل هذه الفلسفات نجد أنّ المحبة والرحمة والعشق أسس السلوك المدني.

اللطف قوة علاجية. إنه دواء بطيء بالفعل، لكنه يشفي ولا يترك آثارًا جانبية.

في عالم يتسابق فيه الناس على حيازة النفوذ أو فرض الرأي أو حماية المصلحة، يبدو اللطف كأنه إيماءة بسيطة، لكنه في الحقيقة يقوّض بنية العنف من الداخل. فالمعاملة اللطيفة يمكن أن توقف سلسلة طويلة من ردود الأفعال العدائية، وتفتح مجالاً لبدائل لم تكن لتُتصوّر في جوّ من القسوة المتبادلة.

ولعل أجمل ما في اللطف أنه عدوى إيجابية. فابتسامة تُعطى من دون مقابل قد تغيّر مزاج يوم كامل لشخص مجهول، ولطفك مع شخص واحد قد يدفعه لأن يكوّن لطيفًا مع آخرين، فتتسع الدائرة من دون أن تدري. هكذا يعمل اللطف كحركة مقاومة هادئة، لا ترفع شعارات، لكنها تغيّر البنية الأخلاقية للمحيط.

إن مدح اللطف ليس دعوة إلى الانسحاب من مواجهة الظلم، بل هو دعوة إلى اختيار الكيفية التي نواجه بها. فاللطيف ليس من يتجنب الصراع دومًا، بل من يرفض أن يصبح هو نفسه نسخة من القسوة التي يحاربها.

لهذا، إذا كان لكل إنسان رسالة يتركها في العالم، فلتكن هذه من أهم الرسائل: أن نغادره أقل قسوة مما وجدناه. ما يعني أن نعبُر الحياة كما نعبر جسرًا خشبيًا معلقًا في العلو، بقدر كبير من التؤدة والرفق.

فاللطف ليس مجرّد فضيلة أخلاقية، بل هو مهارة أن نمشي فوق عشّ الحياة دون أن نكسر البيض.

2 - في هجاء القسوة

نتواطأ مع القسوة حين نُجمّلها بالكلمات: نسمي بعض الحروب «نزاعات»، وبعض المجازر «تدخلات»، وبعض أشكال الظلم «ضرورات» تبيح المحظورات، وبعض الضحايا «خسائر جانبية».

لذلك، أتمرد على هذه اللغة، وأعرّي التجميل اللغوي للقبح، وأقول بصوت لا يرتجف:

لا أحد يحتاج إلى القسوة، حتى حين يضطر إلى أن يقاتل لأجل قضية عادلة. القسوة ليست دليل قوة، بل هي داء عضال، تتوارثه جيناتنا مع الأسف، وتستيقظ كلما توارى العقل.

القسوة ليست فقط في الطائرات والقنابل، بل في التبرير، في الصمت، في اللامبالاة وفي التركيز على الصور التي تستنزف التعاطف حين تبقيه في مستوى الانفعالات، فلا يرتقي إلى الفهم والمعرفة. وقد أوضحها سبينوزا بما يكفي: المشاعر الإيجابية، بما فيها الرحمة والمحبة والتعاطف، حين لا تنتقل من الانفعال إلى الفعل، من الجهل إلى الفهم، فإنها تتلاشى بعد أن تستنزف نفسها، ولو بعد حين.

لم تعد القسوة في العالم المعاصر ذلك الوجه القبيح الذي يمكن التعرّف عليه بسهولة، بل أصبحت أكثر أناقة، وأكثر مهارة، وأكثر تخفيًا وراء شعارات تبدو أخلاقية أو علمية أو قانونية.

صارت القسوة اليوم تُمارس بأدوات ناعمة: الإهمال، الإقصاء، التجاهل، تشويه السمعة، حجب أدوات المعرفة، منع التقدّم التقني، أشكال العقوبات، والإكثار من «المعلومات» لتتفيه المعلومة.

ولأن التصنيف يساعد على الفهم، فسأسرد عليكم أهم أصناف القسوة:

القسوة المؤسسية، حين تصبح البيروقراطية آلة قتل باردة:

القسوة اليوم لم تعد في يد الجلاد وحده، بل في إدارة تنفّذ الأوامر بلا مشاعر. تترك الأرواح تُسحق في الطوابير، ترفض طلبات العلاج لأسباب تقنية، يُطرد موظف بسبب رسالة إلكترونية.

أصبح العالم قرية صغيرة بالفعل، إلا أن اللاجئ قد ينتظر لسنوات

حق اللجوء، فيعيش القهر في صمت قانوني لا يترك أثر دم واحد. وكما تقول حنة أرندت، فإن «تفاهة الشر» تكمن في أن القسوة قد تُمارس من طرف موظف يظن أنه «يقوم بعمله الروتيني».

يحتاج الموظف إلى سنوات قليلة من الجلوس في المكتب نفسه بشكل روتيني يومي، والقيام بالأعمال نفسها بشكل روتيني يومي، حتى تظهر عليه ملامح القسوة الرهيبة. بل حتى الأم نفسها، مهما عظم حنانها، فقد تغمرها مظاهر القسوة حين تفرض عليها الحياة الروتين المنزلي نفسه لسنوات.

القسوة الإعلامية، حين يُعرض الألم كفرجة:

في زمن الصورة، صار الألم يُستهلك مثل المسلسلات. تُعرض الجثث على الشاشات، يُسلّع الحزن، تُستغل المعاناة لرفع نسب المشاهدة. بل أكثر من ذلك، تُمارَس القسوة بإعادة إنتاج صور الضحايا بلا إذن، وبتعليقات باردة أحيانًا، أو ساخرة أحيانًا أخرى. وهو ما يُساهم في استنزاف القدرة على التعاطف، ولو بـ«نوايا طيبة».

فمن أين لنا تلك القسوة الداخلية حين نمرّ على فيديو لطفل يتعذّب ونقول: «آه، لقد شاهدته من قبل!»

القسوة التقنية، حين تصبح الآلة شريكة في القتل:

الطائراتُ المُسيَّرة (الدرون) والخوارزميّات وأنظمةُ التعرّف والتصنيفِ الرقمي، تُسخَّر اليوم في الحروب والمراقبة، وتنحو أحيانًا إلى الفرز العِرقي والتمييز الخفيّ. صار ممكنًا أن يُقتَل إنسانٌ بضغطةِ زرٍّ من غرفةٍ مُكيّفة، من غير أن يُرى وجهه أو يُسمع أنينه، والذريعةُ الدائمة: «تقليلُ الخسائر الجانبية». ولكن، كم روحٍ يسهلُ سحقُها حين يُحذَف الوجهُ من الحساب؟

القسوة العاطفية، حين يُنكر الحزن أو يُحتقر الضعف:

في ثقافة «كن قويًا دائمًا»، صار الحزن ضعفًا، والدموع عارًا، والحنان ترفًا. القسوة العاطفية اليوم تُمارس باسم «النجاعة»، أو «الصحة النفسية»، وتمارس بطريقة تنكر الألم بدل أن تعالجه.

صار الناس يتهربون من احتضان بعضهم البعض، ويتبنّون شعارات مثل «تجاوَز وتقدَّم»، «لا تتعلّق»، «لا تكن دراماتياً»، «لا تُحابي»... وذلك من دون أن يدروا أنهم يعمّقون عزلة الآخرين.

القسوة ليست في الضرب أو التعذيب أو السجن فقط، بل في الكلمات التي نقولها ببرودة حين يحتاج أحدهم إلى أن يسمعها بحرارة.

القسوة المقدّسة، حين يتحوّل الإيمان إلى سيف:

لا يزال العنفُ يُمارَسُ باسم الله، أو باسم الأخلاق والهوية: من قمعِ النساء بذريعةِ الطهارة، أو اعتبار الدين هويّة وإقصاء المختلفين، إلى تبريرِ الحروب بذريعةِ الدفاع عن المقدّسات. تلك قسوةٌ مُغلّفةٌ بإحساسٍ بالرسالة، وهي أخطرُ أنماط القسوة، لأنّها تُحصّن نفسَها بقداسةٍ تَمنعُ المساءلة، وتُقنع أصحابَها أنّ قسوتهم واجبٌ أخلاقي.

القسوة في تربية الأطفال، حين يُعاد إنتاج الألم باسم التربية:

حين يُربّى الطفل على الخوف والضرب والتوبيخ والصراخ، أو على «التحكّم بالعاطفة» بطريقة قمعية، فإننا نزرع في قلبه جرحًا سيتحوّل لاحقًا إلى قسوة.

كل طفل لم يُحتضن بما يكفي، قد يحمل في داخله استعدادًا لقسوة غير واعية على من لا يعرف كيف يحبهم. ذلك أن القسوة التي نمارسها على الأطفال تعود إلينا في هيئة مجتمع مفكّك لا يعرف كيف يحب.

مواجهة القسوة تبدأ من داخلنا.

مقاومة قسوة الحياة ليست مشروعًا خارجيًا فقط، بل مسارٌ روحيٌّ

داخليٌّ، يبدأ من الوعي بعيوبنا، تليين قلوبنا، تعلّم لغة الحنان وتفكيك كل قسوة موروثة أو مكتسبة أو مخفية تحت قناع الواجب أو الفضيلة.

فهل نستطيع أن نواجه قسوة الحياة بالحب؟

الحياة ليست عادلة دائمًا، فكم من مرة ألقَتنا في أمواجها بلا أطواق نجاة، تركتنا نواجه الخذلان والفقد واللاجدوى، وأحيانًا حتى العدم. لكننا في عمق كل تلك القسوة، نكتشف شيئًا أغرب من النجاة: نكتشف الحب.

الحب ليس تعويضًا عن الألم، بل هو القوّة التي تتيح لنا أن نعيش الألم دون أن يتحوّل إلى سمّ قاتل أو محبط. إنه ما يجعلنا نرى في الانكسار فرصة للتماهي مع هشاشة الآخرين، ونرى في الألم طريقًا إلى الأعماق، ونرى في كل خسارة دليلًا على النجاة.

نواجه قسوة الحياة بأن نحبّ رغم كل ما حدث، وأن نمدّ أيدينا لمن جُرحَ مثلنا، لا لنعظه، بل لنجلس بجانبه، وألّا نسمح للمآسي أن تسرق منّا القدرة على العطاء، وأن نصرّ على الحنوّ في عالم من الإعلام الذي لا يعترف إلّا بالأصوات العالية.

الحب ليس رفاهية، بل هو تمرين وجودي يومي. إنه فنّ أن نكون إنسانيين رغم العنف، أن نُحسن رغم الجحود، أن نغفر دون أن ننسى بالضرورة، وأن نُحبّ لا لأن الغير يستحق، بل لأننا لا نملك ما نمنحه غير الحب.

نواجه قسوة الحياة بالحب حين نحبّ الأنا من دون أنانية، ونحبّ الغير من دون غيرة، ونحبّ العالم من دون أن نقايضه بأي نوع من الخلاص.

ليست البطولة في ألّا نتألم، بل في ألّا نتحوّل إلى صورة مشوّهة مما فعلت بنا الحياة. الحب هو ما يمنع تشوّهنا الداخلي، هو القوّة اللطيفة التي تحمينا من أن نصير قساة أثناء محاولة النجاة.

فلنُحبّ، ليس انطلاقًا من وهم الخلاص، بل انطلاقًا من حقيقة المقاومة. فالحبّ حين يُحسّن عيشه، يكون أرقى أشكال مقاومة قسوة العالم، وقسوة الحياة.

أيها السادة، لقد بنى الإنسان ناطحات تعانق الغيم، وغاص في أعماق حركة الذرات، وسافر إلى الكواكب البعيدة، لكنه نسي أن يزرع الحب في قلبه. فما معنى أن نقترب من النجوم ونبتعد عن بعضنا؟ الحب يا سادة ليس رفاهية بل هو بيئة الروح، هو الذي يجعل الوجود أكثر من مجرد هندسة ومعادلات، هو الذي يعطي معنى للعدالة، ويضفي روحًا على القانون، وينفخ الحياة في أخلاق الناس.

الحب ليس نزوة عاطفية، بل هو المبدأ الذي يذكّر كل واحد منا أنه ليس سيد العالم بل رفيق سفر في قافلة بشرية هشة تتلمس دربها وسط عتمة المجهول.

يا من تكتبون الدساتير ! أضيفوا مادة تقول: تُبنى الأوطان بالوجدان قبل البنيان.

ويا من تُخططون للعمران! اتركوا مكانًا للعناق، للقُبل، للصدف، وللحدائق التي لا تدرّ دخلاً يقاس بالأرقام، لكنها تُنمّي ما هو إنساني في الإنسان.

قد ننجو بلا كهرباء أيامًا، قد نصمد في وجه المجاعة أيامًا، لكننا بلا حب لن نصمد يومًا واحدًا.

ما يعني أن الحبّ ليس ترفًا.

ففي زمنٍ غلبت عليه أسقام الوجود، من قبيل الاكتئاب، القلق، الملل، الإحساس بالعدم، وتآكل المعنى، في زمنٍ تكسّرت فيه أرواح الناس أكثر مما انكسرت عظامهم، أصبح واضحًا أن الإنسان لا يمرض بجسده فقط، بل بروحه أيضًا.

وها نحن نكتشف متأخرين، أن الحب ليس ترفًا، ولا ضعفًا، بل هو دواء اللامعنى. إلا أنه دواء لا يُباع في الصيدليات، بل يُهدى من قلب إلى قلب.

الحب الناضج لا يُشبه شرارة نزوة ولا لهفة تعلّق، بل يكون حضنًا معنويًا، لمسة روحية، دفئًا ناعمًا في فراغ الوجود.

ليس العلاج بالحب ترويجًا للوهم، بل رجوعًا إلى الأصل الذي يُرمّم الإنسان من الداخل. فالأبحاث النفسية الحديثة، من علم الأعصاب إلى علم النفس الإيجابي، لم تعُد تخجل من قول ما كانت تعرفه بعض الأرواح الراقية قبل الأبحاث المعاصرة: الشعور بأنك محبوب، مرئيّ، مسموع، مقبول كما أنت، هو ما يفعّل جهاز المناعة الوجودي داخلك.

قد لا يكفي الحب لتحقيق العلاج، لكنه يُعين الدواء. فالدواء يحتاج إلى بيئة نفسية قابلة للشفاء، والحب هو تلك البيئة.

حين نحب شخصًا في محنته لا لنغيّره على هوانا، بل لنكون مرآة نقيّة له تشجعه على النمو أكثر، حين نمنحه طمأنينة لا مشروطة، فإننا بذلك لا نُسرّع شفاءه فقط، بل نُقوّي جهاز المناعة الوجودي لديه.

والأجمل في ذلك كله أن الحب لا يُداوي المتلقّي فقط، بل يُداوي المانح أيضًا.

من أحبَّ بعطاء نقيّ، رأى جراحه تُشفى، دون أن يدري متى أو كيف. ذلك أن الحب طاقة روحية خفية، لا تنبع منّا، بل تمرّ من خلالنا، فنُشفى حين تعبرنا، تمامًا كما تعبرنا مشاعر الرحمة والحنان.

3 - في هجاء الكراهية

الكراهية ليست مجرد شعور فردي، بل هي نظام للرؤية، نمط من التفكير، وأسلوب في الحياة. إنها ليست فقط ما يُكنّه البعض ضد البعض، بل ما يُنمَّى ويُعلَّم ويُورَّث بوصفه جزءًا من الهوية الجماعية،

أو من «الولاء الواجب»، أو من الدفاع عن «الأصل والنقاء». لهذا، فإن مقاومة الكراهية ليست التزامًا أخلاقيًا وحسب، بل مهارة روحية تتطلب جرأة الفهم وشجاعة الحياة.

الكراهية تنمو وتكبر مثلها مثل الخوف، ومثل التعصب: عبر التكرار، التشويه والحرمان من فرص المعرفة والترقّي. وما لم نتعلم فنّ مقاومة الكراهية، سنظل نعيد إنتاج أشكالها المتجددة، حتى ونحن نظن أننا نتصرف باسم الخير أو العدالة أو الحقيقة.

الكراهية تغوي باليقين:

من يكره لا يشك. لذلك، تبدأ مقاومة الكراهية من لحظة التوقف عن اعتبار الذات معيارًا أخلاقيًا أعلى. فكل كراهية تنطوي في العمق، على اعتقاد بتفوّق أخلاقي، سواء باسم الدين، أو القومية، أو المذهب، أو المعاناة. وهكذا تصبح الكراهية مرآة نرجسية: نرى فيها أنفسنا أنقياء، وأننا على حق، وأننا نقوم بالتصرف الصحيح، ونُسقِط على غيرنا كل ما لا نقبل الاعتراف به في ذواتنا.

الحب ليس نقيض الكراهية فقط، بل علاجها:

الحب ليس مجرد عاطفة رقيقة، بل تمرينٌ وجوديٌّ على الانفتاح، على الإصغاء، على الاعتراف بإنسانية الآخر. الحب هنا لا يعني التماهي، ولا يعني نسيان الجراح، بل يعني ألّا نسمح للجراح أن تتحول إلى عداوة أبدية نغرق فيها فتغرقنا وتجعل أحكامنا تنطلق من موقف مسبق، هو نوع من عمى الرؤية. مواجهتها ورفضها يعني أن نحمي قلوبنا من التكلس، وأن نحمي ذاكرتنا من التسمم، وأن نحمي أحكامنا من الانتقام المتخفّي.

مقاومة الكراهية بالحب لا تعني التواطؤ:

أن أقاوم الكراهية بالحب لا يعني أن أصمت على الظلم، بل أن

أرفض أن أتحول إلى ظالم بدوري. أن أقاوم الكراهية لا يعني أن أنكر الاختلاف، بل أن أرى فيه فرصةً للغنى لا سببًا للحرب. أن أقاوم الكراهية لا يعني أن أطلب المستحيل، بل أن أبقي على شعلة الإنسانية مشتعلة في كل الأنفاق المظلمة.

الكراهية تختزل، والمحبة تُفكّر:

ثقافة الكراهية تميل إلى التبسيط: هؤلاء أشرار وأولئك أنقياء. لكن الحب يفكر بتؤدة، ويتحدث بلغة التفاصيل: كل إنسان حكاية، كل جماعة طيف، كل موقف قابل للفهم. وهنا يكمن المعنى، ألّا ننجرف مع الانفعال، بل نمارس فهمًا بطيئًا، يقي الإنسان من التحول من كائن أخلاقي إلى وحش باسم الأخلاق، وباسم امتلاك الحقيقة المطلقة.

لا يليق بالكرامة أن تكره:

ليست الكراهية علامة على الوعي، بل على الجرح. ليست دفاعًا عن النفس، بل تهديدٌ لسلامتها. من يكره يسهل عليه أن يُفرّط في كرامته الإنسانية بانتقام أعمى.

لذلك، يحتاج فنّ مقاومة الكراهية إلى تدريب داخلي، إلى إعادة تربية الحواس والأحاسيس. يحتاج إلى يقظة الحب حين يغفو العقل، وإلى نُبل الروح حين يعصف الحشد. يحتاج إلى شجاعة من نوع نادر، تلك الشجاعة التي لا تردّ الضربة بالضربة، بل تردّها بالفهم، ومن ثم البحث عن إمكانية الاحتواء.

4 - الحب أساس العدالة

كيف يمكن للحب أن يكون أساس العدالة؟

حين نُفكّر في العدالة، فإننا نتخيّل ميزانًا، أو قانونًا، أو مبدأ عقلانيًا يُوزّع الحقوق والواجبات بنحو محايد، لكن العدالة من دون حب، تصير مجرد آلةٍ صمّاء، قد تَعدل في مستوى المبدأ لكنها تَظلم في مستوى التفاصيل.

فلنبدأ بهذا الافتراض الجريء: العدالة الحقيقية لا تُبنى على الحياد وحده، بل على مشاعر الحنان والاحتضان. فالقانون من دون قلب، لن يكون سوى سكينٍ حادٍّ.

الحب كاعتراف بكرامة الغير:

لكي تُعطي الغير حقه، يجب أن تراه وجها لوجه، أن تعترف به ككائن يستحق التعاطف. وهذا الاعتراف ليس عقلانيًا فقط، بل شعوريًا أيضًا. الاعتراف بكرامة الغير، بهذا المعنى، هو أصل التعامل باحترام، وبالتالي بحب.

كما قال ليفيناس: «العدالة تبدأ حين ينظر الإنسان في وجه الغير ويشعر بمسؤوليته تجاهه». وما الذي يجعل الإنسان مسؤولاً عن الآخر إن لم يكن الحب، لا كغريزة، بل كاستجابة أخلاقية؟

العدالة الحية لا تفصل بين العقل والقلب:

العقل وحده قد يُبرر الظلم بحجج باردة. لكن القلب، إذا سكنه الحب، يرفض أن يُقصي، وأن يُهين، وأن يُجَوِّع. العدالة الحقيقية ليست تلك التي تَقتصّ، بل التي تسأل عما ينقص، وتملأ الفراغ، فالنقصان هو السبب الأول للتعدّي. وهذا سؤال لا يطرحه القانون، بل يطرحه الحب.

الحب كالحدس يبتغي الإنصاف:

العدالة القانونية قد تُساوي بين غير المتساوين، بين الغني والفقير، بين القوي والضعيف، بين من يبرع في الكلام ومن لا يبرع في الكلام، بين من يملك وسائل الدفاع ومن لا يملك سوى دموعه. أما الحب، فإنه يُعدِّل هذه المعادلة، لأنه يُحسّ، من دون برهان، بأنَّ من لا يملك شيئًا، أحيانًا قد يستحق أكثر.

قال روسو: «حين يفقد القانون الرحمة، يصبح امتيازًا للسلطة».

العدالة التي لا تستند إلى الحب، قد تبرر العنف:

ألم تكن محاكم التفتيش «عادلة» وفق قوانينها؟ ألم يُرتكب الاستعمار باسم «رسالة التمدن»؟ ألم تُقصف المدن وتُهدم البيوت ويُقتل الأبرياء باسم «حق الدفاع»؟ إن العدالة من دون حب، قد تُصبح أداة تبرير لما لا يُحتمل. لكن الحب، حين يسكن العدالة، فإنه يرفض أن تُصبح القوة معيارًا للحق.

الحب يحرّر العدالة من الانتقام:

العدالة الغاضبة ليست عدالة، بل قناع للثأر. أما العدالة التي تحب، فإنها تشفي ولا تُعاقِب، تُصلح ولا تُهين، تبحث عن المستقبل، لا عن جرح الماضي. العدالة التي يؤسسها الحب، لا تقف عند حدود «الحق»، بل تمتد إلى «الرحمة».

في زمن جافّ، قد يبدو الحب ترفًا، والعدالة مجرد إجراء إداري. لكن الحب في العمق، هو ما يُعطي للعدالة قلبها، ودفأها، وروحها.

إذا كان العقل يصنع القوانين، فالحب يصنع الإنسان الذي لا يُلقي قانونًا على وجه طفل يبكي، ولا يترك شيخًا يأكل من القمامة تحت أيّ حجّة أو سبب. لأن القانون «الصامت هنا»، عدو أهدافه المفترضة.

5 - الحبّ أساس الأخلاق

إذا لم يكن الحب أساسًا للأخلاق، فعلى ماذا تستند الأخلاق إذًا؟

على الخوف من العقاب؟ على القانون؟ على العقيدة؟

تلك كلها أسس هشّة، لا تصمد حين يُختبَر الإنسان في موقفٍ وجودي.

لنبلور الأطروحة الأساسية:

الحب هو الأساس العاطفي لكل فعل أخلاقي نبيل، وهو الذي يُحوّل الفضيلة من «واجب بارد» إلى «استجابة حيّة».

الأخلاق تبدأ من الحنان لا من القانون:

نستطيع أن نُطيع القوانين دون أن نكون أخلاقيين، لكن لا يمكن أن نحبّ حقًا دون أن نحمل في أنفسنا بذرة الأخلاق. حين نحب، لا نؤذي، لا نخون، لا نستغل، ليس لأن «الضمير» يمنعنا، بل لأن القلب يرتجف إذا تخيّل الأذى. قال سبينوزا: «نحن لا نرغب في الخير لأننا نعرف أنه خير، بل لأنه يُحرّك فينا حبًّا نجهل مصدره».

الحب يجعل غيرنا حاضرًا فينا:

الأخلاق تبدأ حين نتوقف عن اعتبار الآخرين «أشياء»، ونراهم ككائنات لها حسّ، وكرامة، وألم. الحب هو ما يُدخل الآخر إلى عُمق الذات، لا كموضوع مثل سائر الموضوعات، بل كملامح وجه، كنبرات صوت، ككائن ضعيف يستحق العناية.

يقول ليفيناس: «وجه الآخر هو أصل الأمر الأخلاقي، لأنه يطالبك، بصمت، ألّا تقتله، ألّا تُهينه، ألّا تنساه».

فما الذي يجعلنا نرتجف أمام وجه الآخر سوى الحب؟

الحب يسبق العدالة، ويؤسس لها:

لا تكون الأخلاق «عادلة» بحق إلا إذا كانت محبّة في باطنها، فما فائدة العدل إذا لم يكن فيه اعتراف حارّ بالآخر؟ وما فائدة التسامح، إذا لم يكن نابعًا من رغبة في الخير للغير، لا من مجرّد تعايش بارد؟

الحب يجعل الأخلاق ممكنة في المواقف الصعبة:

حين تفشل المبادئ المجرَّدة في توجيهنا، حين لا نعرف «ما هو الصواب»، يأتي الحب لا ليعطينا إجابة جاهزة، بل ليمنحنا نية الخير، حتى في حلكة الظلام، حتى ونحن نتخبط بين الأمواج. الحب لا يختصر الأخلاق، لكنه يعصمها من التوحّش حين ينتشر الضباب، وتضعف الرؤية.

الحبّ يُحوِّل الأخلاق من واجبٍ ثقيل إلى فنٍّ رفيع:

حين نُحبّ، لا نفتّش عن حروف القانون، بل عن بوصلة العناية؛ لا نطلب مجرّد الحق، بل أسلوبه الأرحم: الرحمة. نحن لا نرعى الحبيب لأنه ظلٌّ منّا أو امتدادٌ لنا، بل لأنّ روحَه تُحادثنا، وذاتَه تواجهنا، وصحتَه تهمّنا، ودمعته توجعنا. ولا نتقبّل المختلف لأنّنا أقوى منه، بل لأنّ قبوله تعبير عن رقيّ أخلاقنا. تلك هي الأخلاق الحقّة: أن نرعى الغير بوصفه ذاتًا أخرى كاملة الحضور، لا لأنه ينفعنا، أو يقربنا، أو يُشبهنا.

إذا أردنا أخلاقًا لا تسقط حين تسقط القوانين، ولا تنهار حين لا يرانا أحد، علينا أن نؤسسها على الحب، لأن الحب هو القوة الوحيدة التي تُلزمنا من الداخل وتدعونا إلى الخير، حتى حين لا يُراقبنا أحد، ولا يُكافئنا أحد، ولا يفهمنا أحد.

6 - الحب أساس التنمية

فكرة الحب كأساس للتنمية، لا تخلو من واقعية، وتحمل في طيّاتها ثورة على التصورات التقليدية التي تجعل التنمية مرادفة لنمو الاقتصاد أو تراكم رأس المال، دون اكتراث بالأبعاد العاطفية والروحية للوجود الإنساني. صحيح أن هذه الأبعاد لا تقاس بالفعل، لكن ليس كل ما لا يُقاس ليس واقعيًا، بل كثير من الوقائع لا تقبل القياس، وهذا نراه في مجال الفيزياء.

بإمكاننا بناء تأمّل فلسفي في هذه الأطروحة، ننطلق فيه من فرضية بسيطة:

لا تنمية من دون محبّة، ولا محبّة من دون رعاية، ولا رعاية من دون اعتراف.

الحب كطاقة للنمو والتنمية:

الحبّ طاقة للنمو والإخلاص. حين يُحب الإنسان عمله، فإنه

سرعان ما يُتقنه. وحين يُحبّ الناس بعضهم، فإنهم يتضامنون بنحو عقلاني وخلّاق. لذلك، داخل المجتمعات التي يتمتع فيها الإنسان بمستوى معيّن من القدرة على الحب، تتوفر الثقة والإخلاص، وتصبح البيئة ملائمة للتنمية والنموّ.

الحب كدافع للرعاية الاجتماعية:

الرعاية الاجتماعية، سواء في شكل خدمات صحية أو تعليمية أو بيئية، لا تقوم فقط على الحسابات التقنية، بل على الدافع الذي يرى أن الآخر يستحق أن يحظى بعناية خاصة. حين نحب الإنسان بوصفه إنسانًا، نصمم له سياسات عادلة ومنصفة، ونسهر على راحته، ونشعر بالمسؤوليّة تجاه ضعفه. ومن دون هذا الإحساس العميق، تصبح التنمية مجرد نوايا معلنة وشعارات فارغة.

الحب يحرك الخيال الأخلاقي:

لكي نتخيل تنمية عادلة، نحتاج إلى خيال أخلاقي. والحب باعتباره انفتاحًا على الآخر في كل أحواله، يوسّع دائرة التعاطف. فبدل أن نرى الفقراء مجرد أرقام، نراهم كأفراد يستحقون الرعاية. وبدل أن ننظر إلى الأرض كمَورد، نراها كأمّ يجب العناية بها. هذا الخيال الأخلاقي هو المحرّك الحقيقي لتنمية تُدمج الجميع، وتتجه نحو المستقبل.

الحب كمحرّك للمعنى:

ما معنى أن نبني المدن ونشيّد الطرق وننمّي الاقتصاد، إذا غاب الحب عن قلوب الناس؟

حين ينعدم الحب، تتحول التنمية إلى قسوة مغلّفة ببعض الأرقام المغرية. تصبح التنمية مجرد شاشة بلا روح، تقدّم الأرقام وتُهمل الأرواح. بل حين ينعدم الحب يصبح كل ما بنيناه مهدَّدًا بالهدم. أما

حين يكون الحب في جوهر الرؤية التنموية، فإن كل مشروع يحمل في طيّاته قيمة إنسانية: مسكنٌ يليق بالكرامة، مدرسة تُغذي الذكاء والعاطفة، مؤسسات تهتم بالعجزة وتوفير العمل وفرص متساوية للجميع في شتى الميادين. بهذا يصبح للمجتمع وللوطن معنى.

التنمية كفعل حب:

قد نُعيد تعريف التنمية بأنها فعل حب جماعي نحو الحاضر والمستقبل. حين نزرع شجرة، أو نرعى يتيمًا أو عجوزًا، أو نُصلح مدرسة، فإننا نُحب. هذا الحب العملي، الملموس، هو ما يُخرج التنمية من إطارها البيروقراطي إلى معناها الوجوديّ.

مما يعني أننا نحتاج إلى ثورة في مفهوم التنمية، تجعل من الحب لا مجرد حُلمٍ شاعري، بل أساسًا فلسفيًا، وأفقًا أخلاقيًا، وطاقة حقيقية للتقدم.

7 - الحب أساس السلام

فكرة أن الحب أساس السلام ليست مجرد استعارة رومانسية، بل رؤية فلسفية وروحية عميقة تتحدى المنظورات السياسية التقليدية التي ترى السلام مجرد اتفاقيات، أو هدنات، أو توازنات قوى دائمة أو مؤقتة.

يمكننا بناء الرؤية على قاعدة تقول: «لا سلام بلا محبة، ولا محبة بلا تعاطف، ولا تعاطف بلا اعتراف بالإنسان في الآخر».

وإليكم بعض البراهين التي يمكنني استحضارها في هذا السياق:

الحب كأفق للسلام:

الحب في جوهره، خروج من الأنانية نحو الآخر. إنه فعل اعتراف، رعاية، ورغبة في أن يكون الآخر بخير، حتى مع وجود اختلاف في الدين أو اللغة أو الهوية. بهذا المعنى، الحب ليس نقيض الحرب فقط، بل هو بديلها الجذري.

السلام من دون حبّ مجرد هدنة. إلا أن الحب قد يُحوّل الهدنة إلى مصالحة دائمة، والخصومة إلى تعايش دائم، والتنوع إلى عيش مشترك.

السلام ليس غياب العنف فقط:

يعتقد البعض أنّ السلام مجرّد غياب للقتال والاقتتال، لكن الفلسفة الروحية تقول: السلام الحقيقي لا يقوم إلا حين يشعر الناس بأنهم محبوبون، معترَفٌ بهم، وأنهم ليسوا مجرد أدوات في حسابات لا تعنيهم، ولا تعني لهم شيئًا. أو مجرد أعداء محتملين. فحين يُعامَل الإنسان ببرودة أو احتقار، حتى لو لم يُؤذَ جسديًا، فإنه يُحرَم من السلام الروحي.

الحب هو ما يعيد إلى السلام روحه التي تدفعه كي يستمر.

الحب كقوة مقاومة:

حين نحب، لا نردّ الكراهية بالكراهية، بل نكسر منطق العنف من جذوره. كما قال غاندي: «أينما وُجد الحب، وُجدت الحياة». وكما قال مارتن لوثر كينغ: «الظلام لا يطرده الظلام، لذلك لا يطرد الكراهية إلا نور الحب».

في هذا المعنى، الحب هو فعل مقاومة عميق ضد الحرب، ضد العنصرية، ضد الكراهية المنظمة.

الحب لا يلغي الصراع، لكنه يؤنسنه:

الحب لا يعني أن نعيش في عالم بلا خلافات، بل هو دعوة إلى أن نخوض في خلافاتنا دون رغبة في الإقصاء أو الإبادة. الحب يجعلنا نختلف بشرف، ونتحاور بكرامة، ونسعى إلى العدالة والإنصاف لا إلى الثأر والانتقام.

الحب أساس المصالحة:

بعد كل حرب، صغيرة أم كبيرة، شخصيّة أم بين دول أو جماعات، لا

يكون سلامًا إلّا إذا مرّ عبر درب المحبة: الاعتذار، التسامح، الاعتراف المتبادل، الذاكرة المشتركة، والأمل في بناء جديد. لا توجد مصالحة حقيقية دون بذرة الحب.

الحبّ ليس رفاهًا شعوريًا في عالم القسوة، بل بوصلة للسياسة، وأفقًا للأخلاق، وروحًا للسلام. فكما أن السلام يبدأ من داخل الإنسان، فإن الحب كذلك هو القوة التي تُشفي الداخل وتُصلح الخارج.

8 - الحنان هو الأصل العميق للحب

الحنان هو عمق المشاعر الإيجابية ومهدُ الحب بكل صوره. وهو تربة الأعماق التي تمكّن الحبّ من التجذّر في الحياة.

وهنا أسوق بعض الحجج هذا القول على سبيل الإيجاز:

الحنان سابقٌ على الحبّ زمنيًا وروحيًا:

يولد الطفل ولا يعرف من العالم إلا دفءَ الحنان: صدرَ الأم، نبرةَ الأب، ولمسةَ اليد الحانية. قبل الكلمات وقبل أن يتعلّم كلمة «أحبك»، يتلقّى الحنان باعتباره أولَ لغةٍ للعالم. وكل تجربةِ حب لاحقة ليست إلا عودةً، ولو متأخرة، إلى تلك اللغة الأولى.

الحنان يمنح الحبَّ ديمومته:

الحبّ، إذا تأسّس على الرغبة تلاشى بانطفائها، وإذا تأسّس على الشغف احترق بناره. أمّا إذا تجذّر في تربة الحنان، وامتدّت أغصانه في هواء العقل، صار حبًّا مستدامًا لا يطلب امتلاكًا بل رعايةً واحتضانًا ومعنى.

الحنان يحمي الحب من الانحراف:

حبٌّ بلا حنان قد ينقلب تملّكًا، وغيرةً خانقة، ورغبةً في السيطرة. أمّا الحنان فيحفظ للغير حريته ويقول: أريدك أن تكون، وأن تكون بكل خير، وليس شرطًا أن تكون لي بالضرورة.

الحنان أصل الحب لأنه أصلٌ في إنسانيّتنا:

كما يذكر ليفيناس، تبدأ أخلاقُنا من وجهِ الآخر ومن هشاشته. والحنان هو الاستجابةُ الأولى لتلك الهشاشة، قبل أيِّ تعاقدٍ أو تعريفٍ للعلاقة. بهذا المعنى يغدو الحنان اللحظة الإنسانية المؤسسة التي تجعل الحبَّ ممكنًا.

الحنان نبعُ الحبّ الروحي:

قد يتلوّن الحبُّ بالانجذاب أو الشغف أو المزاج، لكن إذا نُزِعت عنه هذه الأصباغ بقي الحنانُ أصلَه: طُمأنينةٌ متبادلة، وحِضنٌ آمن نَعطيه ونتلقّاه.

هكذا يبدو الحبّ الناضج مثل الشجرة التي يستظلّ بها العابرون في طريق الحياة: جذورها في تربة الحنان، وأغصانُها في هواء العقل، وثمارُها رحمةٌ للجميع.

المرافعة الثامنة

مصائر الحب والجسد في عصر الروبوتات

1 - مصائر الجسد في زمن الروبوتات فائقة الذكاء والجمال

إلى وقت قريب كنّا ندافع عن الجسد ضدّ منظومات تهمِّشه باسم الروح أو العقل، أما اليوم فنُواجه تهديدًا غير تقليدي، لا يستمدّ مشروعيته من الدين أو الفلسفة، بل من العلم والتقنية، ومن سياسة النجاعة.

لم يَعُد السؤال اليوم عن مدى قُدرة الروبوتات على تقليد الإنسان، بل عن مدى قُدرة الإنسان على تبرير استمراريته ككائن جسدي هشّ أمام جسد اصطناعي لا يمرض، لا يشيخ، لا يخطئ، ولا يشعر بالألم.

سؤال مصائر الجسد البشري في عصر الروبوتات الذكية، يضعنا أمام مفترق طرق وجودي وحضاري مفصلي. ففي اللحظة التي بدأت فيها الروبوتات، ككائنات شبه بشرية (أو فوق بشرية)، في مزاحمة الإنسان على فضاءاته الأكثر حميمية، من قبيل الشِّعر، والرقص، والجنس، والحب، والكتابة، أصبح الجسد البشري مهددًا بفقدان مكانته، وربما فقدان ضرورته أيضًا.

لكن، هل الجسد مجرّد أداة تُختصر في الكفاءة والفعالية؟

هل يمكن اختزال الرّقص في حركات موزونة، والجنس في أداء محسوب، والحب في معادلات مبرمجة، والروح الإبداعية في أرقام بيانية؟

من الجسد العضوي إلى الجسد الزائد عن الحاجة:

عاش الإنسان دومًا داخل جسده. كان الجسد وسيلته الوحيدة

ليشعر، يبدع، يتألم، يعشق، يقاتل ويحتفل. تدريجيًا أخذ الإنسان ينقل قدراته الجسدية إلى خارج جسده، عبر الآلات التي ستعوّض قدرات الجسد البشري، بدءًا من الأعمال اليدوية والعضلية، مرورًا بالأعمال الحسابية والذهنية، ثم معظم عمليات التفكير، ووصولا إلى محاكاة المشاعر والأحاسيس.

لكن الروبوتات الجديدة التي تملك القدرة على محاكاة الإحساس دون أن تتألم، ومحاكاة الإبداع دون أن تعاني، ومحاكاة الحب دون أن تنكسر، تضعنا أمام سؤال مقلق: هل لا يزال الجسد البشري ضروريًا أم أنه سيصبح مجرد عبء على استراتيجيات النجاعة؟

هنا قد يتحول الجسد من أداة للوجود إلى مجرد أثر بيولوجي متخلف عن التكنولوجيا، أو كما يسميه البعض، «الحيوان العالق بين الطبيعة والتقنية». بينما تتجه الروبوتات نحو تجاوز كل حدود البيولوجيا، يبقى الإنسان محكوماً بضعفه، شهوته، مرضه، وشكّه، وهذا ما يجعله في آخر الأمر «إنسانًا»، لكن هل سيصمد هذا الإنسان في ظل استراتيجيات النجاعة؟

مصير الجسد البشري لن يُحسم تقنيًا، بل فلسفيًا، أي من خلال مواجهة أسئلة فلسفية آنية ومصيرية:

ما الذي نصبو إليه بالفعل، الكمال أم المعنى؟

هل نطمح إلى النجاعة القصوى، أم إلى ما يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش؟

هل نريد أن ننتصر عاجلاً على المرض والشيخوخة وربما الموت أيضًا، حتى وإن كنا سنخسر المعنى، وربما نعاود إنتاج توتاليتاريات ما بعد حداثية قد تكون أسوأ من توتاليتاريات القرن العشرين، وهناك مؤشرات لذلك، أم نواصل التعايش مع الهشاشة، ونُبطئ السرعة، كي نحافظ على شيء من المعنى؟

على الأرجح، سيكون علينا أن نعيد تعريف النجاعة، لا بوصفها قدرة على إنتاج الطاقة والغذاء، بل قدرة على تحقيق سيادة الإنسان على نفسه، وإنتاج المعنى. وهو ما يستدعي الدفاع عن الجسد، مع إمكانية تجاوزه بالفعل لكن من داخله.

فالجسد البشري لا ينبغي أن يتحول إلى مجرد معطى موضوعي قابل للتحسين والتعديل والتعزيز، بل ينبغي أن يكون خيارًا ثوريًا بكل المقاييس، يواصل تطوره البيولوجي بالفعل، إنما دون التفريط في سيادته على نفسه. كما يعمل على تحسين نفسه باستمرار، لكن من خلال أسلوب الحياة والرياضة والفنون ومختلف أشكال الرعاية الصحية.

الدفاع عن الجسد البشري اليوم هو فعل مقاومة: مقاومة النزعة الأداتية، النزعة المثالية، وحسابات السوق التي تحرّضنا دومًا على إهمال حساسيات الجسد باسم النجاعة.

المنافسة على الحب والجمال:

في زمنٍ تشرّع فيه الروبوتات الذكية أبواب الممكن على مصراعيه، لم يعد الجسد البشري هو المصنع الوحيد للخيال والإبداع، ولا حتى هو المسكن الأوحد للحب. أصبح الشِعر ممكنًا بلا شاعر حيّ، والرقص ممكنا بلا راقص حيّ، والجنس ممكنًا بلا جسد حيّ، وربما «الحب» أيضا قد يصبح ممكنًا بلا قلب يخفق بالحياة. بهذا النحو يصير «الحب» بلا وجع ممكنًا، لكنه سيكون بذلك النحو خاليا من الحياة، ميتًا يميت الجسد الحيّ.

قريبًا، حين تقف الروبوتات فائقة الذكاء والجمال على أبواب حياتنا، لن تكون مجرد آلات طيّعة، بل شركاء محتملين في السيناريو الوجودي الأكثر حساسية: الحب.

لن تدخل الروبوتات في وظائفنا فقط، بل ستدخل أيضًا في أحلامنا

وأسرّتنا. هي لا تتعب، لا تغار، لا تملّ، لا تخون، لا تطلب مساحات خاصة بها، ولا تقول «أنا بحاجة إلى وقت لأفكر». سيصير الحبيب المثالي متاحًا بالطلب، مزودًا بكل ما يرضي حاجاتنا. لكن هل سيكون ذلك حبًا أم شيئًا يشبه الحب دون أن يكونه بالفعل؟

أن تنشأ الأجيال الصاعدة في مناخ عاطفي يُهمّش الحياة فإنّ هذا هو أكبر تهديد ينبغي أن تجابهه الفلسفة من الآن. ذلك أن علاقة الفلسفة بالعلم ليست مجرّد علاقة شرح وتفسير وتبسيط، ليست مجرّد علاقة ربط بين مختلف التخصصات، بل إنها علاقة قائمة على النقد والمقاومة، وحتى الإزعاج حين يقتضي الأمر.

لكن، عندما تُصبح الروبوتات قادرة على الرقص بطريقة أكثر انسجامًا من مايكل جاكسون أو تحية كاريوكا، أو إنتاج نصوص شعرية تحاكي بودلير أو نزار قباني، وعندما تصير قادرة على تقديم المتعة الجنسية دون شروط، أو حتى تقمُّص ملامح التعاطف والحنان، فإنها تهدد الحق الحميمي للإنسان في أن يُحب بوصفه كائنًا ناقصًا وقابلاً للانكسار.

هشاشة الجسد كأفق للحب:

ما لا تستطيع الروبوتات تقليده هو الجرح الإنساني، تلك القابلية الدائمة للانكسار، والتي تجعل الحب ممكنًا. فالحب لا يتطلب الكمال، بل الاعتراف بنقصنا في حضرة الغير. الروبوت فائق الذكاء والجمال قد يقول لك، «أحبك»، قد يقولها لك بالنحو الذي تحب سماعه بتمام النطق والنبرة والصوت، وحتى النظرات (هذا مذهل بالفعل !)، لكنه «يتصنَّع». إنه لا يحب حتى وإن كان بإمكانه أن «يتصنَّع» الحب، لا يتألم حتى وإن كان بإمكانه أن «يتصنَّع» الألم، لا يحنّ حتى وإن كان بإمكانه أن «يتصنَّع» الحنين، صحيح أنه يتصنّع بجودة عالية، لكنه «يتصنّع» في النهاية، تمامًا مثلما «يتصنّع» الحياة مع أنه ليس كائنًا حيًا.

الحب حاجة وجودية لا برمجة لها، لأن ساحته هي الجسد البشري الذي يواجه احتمالات الألم، احتمالات الخوف، احتمالات الفقد، واحتمالات الهجران، واحتمالات الموت في كل وقت... وهي مشاعر غير قابلة للمحاكاة.

هكذا، إن كان الدفاع عن الجسد البشري ضد التهديد واجبًا فلسفيًا، فليس لأنه أدنى درجة وأقل نجاعة من الروبوتات، بل لأنه أكثر تجذرًا في الحياة، وبالتالي من خلال تهديده يقع التهديد على الحياة نفسها.

قدرة الروبوتات على تهديد الجسد البشري لا تكمن في تفوّقها، بل في قدرتها على إغواء الإنسان إلى درجة قد تجعله ينسى هشاشته، ينسى جسده، وبالتالي ينسى إنسانيته.

الإنسان لا يُختزل في مجرد أفعاله، بل في معاناته اليومية، وفي تردّده الدائم بين الحب والخوف، بين الرغبة والندم، بين الجسد والفكرة.

الاختيار الحاسم: الجسد أم الكفاءة؟

تتيح تقنيات التحسين الآلي للجسد البشري فرصة تخطي كثير من أشكال الإعاقة التي يعاني منها الكثيرون، وهنا يكمن البُعد الأخلاقي للعملية. لكن إن أردنا استعمال ذلك لأجل تحسين النوع البشري برمّته، مثل الشرائح الإلكترونية التي يقترح إيلون ماسك زراعتها في دماغ الإنسان للزيادة في ذكائه، فهنا نحتاج إلى وقفة تأمّل. ليس استعدادًا لإعلان إفلاس العلم، كما يهوى البعض، بل لإعمال العقل النقدي في استراتيجيات العلم والتقنية.

نحن نقترب من لحظة يكون فيها على الإنسان أن يختار:

هل يريد أن يكون ناقصًا حيًا أم كاملاً اصطناعيًا؟

هل يريد أن يظل جسدًا يحبّ ويتألم، أم يصبح وعيًا يُحمَّل في جهاز بلا ألم ولا شهوة ولا مرض؟

إن مصير الجسد البشري سيُحددُه هذا الاختيار الفلسفي الجذري والعميق: إما أن ندافع عن الجسد بوصفه تجربة لا يمكن للذكاء الاصطناعي محاكاتها بالكامل، أو أن ننخرط في مشروع ما بعد الإنسان إلى أقصى حدوده الممكنة، حيث لا ألم، لا مرض، لا قلق، لا موت، لكن في النهاية، ربما لا إنسان أيضًا.

لا إنسان إلا الإنسان:

الجسد البشري ليس مجرد أداة، بل هو مسرح هشاشةٍ مزمنة يتجلى فيها العمق الوجودي للإنسان. ففي العرَق المتصبب من راقصة، وفي خفقان قلب عاشق مرتبك، وفي رعشة شاعر أمام المعنى، وفي توتّر رسّام أمام اللوحة، وفي الساعات التي يمضيها باحث أو روائي ليكتب صفحة أو فصلًا، هناك تلك الغفوة الخلّاقة، تلك الارتعاشة التي لا تُبرمَج، ولا يمكن إعادتها، ولا استنساخها.

قد يتفوق الروبوت على الإنسان في كل شيء، إلا في شيء واحد: أن يكون إنسانًا.

2 - لماذا ينبغي الدفاع عن الجسد؟

ينبغي الدفاع عن الجسد للاعتبارات الآتية:

- لأن الجسد ليس غلافًا خارجيًا، بل هو الذات في أعمق تجلياتنا. لا يمكننا أن نحب، أو نخاف، أو نحلم، أو نرتعش، إلا من داخل جسد. الجسد ليس أداة للحياة، بل أسلوب حياة. لا وعي من دون دماغ، ولا شغف من دون نبض، ولا معنى من دون جسد يتألم، يتغير، يشيخ ويموت. «أنا لا أملك جسدًا، أنا هذا الجسد».

- لأن الحرية ليست فكرةً عائمة، بل تُمارَس بجسد. من يمشي في مظاهرة، من يرقص في سهرة، من يعانق من يحب، من يكتب ثم يشطب ويعيد، من ينحت ثم يكسر ويعيد، من يعصي قانونًا ظالمًا، يفعل ذلك

بجسده. الروبوت لا يعصي، لا يُخالف، لا يُخاطر، المحتمَل هو أن يتعطّل إن حدث عطب في البرمجة، لأنه لا يملك جسدًا يُكابد به معنى المغامرة أو التضحية.

– لأن الجسد منبع المفاجأة واللايقين. فالآلة تتقن التكرار، الجسد يتقن المفاجأة. الروبوت لا يتلعثم، لا يتردد، لا يخطئ. أما الجسد البشري، ففي تعثّره يكمن الجمال، وفي ضعفه يكمن الصدق، وفي هشاشته يكمن المعنى.

حين نكتب قصيدة أو رواية، أو نرتجل قبلة، أو ندمع أمام لوحة، نحن نفعل ذلك من منطقة اللايقين، حيث لا ذكاء صناعي ولا خوارزمية تستطيع أن تتوقع أو تقلد.

– لأن الجسد يتألم، والقدرة على الألم هي أصل الأخلاق. فليست الأخلاق مسألة منطقية، بل حسٌّ جسدٌّا. من لا يشعر بألم الغير، لا يستطيع أن يرحم، أو يتعاطف، أو يتواضع. لهذا، قد يكون الروبوت نافعًا، لكنه لن يكون أخلاقيًا، لأنه لا يعرف معنى أن تُوجَع. ولذلك سيكون العالم الخالي من الأجساد، خاليًا من الرحمة.

– لأن الجسد هو المقاومة الأخيرة ضد الاستلاب. ففي عالم تُبرمَج فيه السلوكيات، وتُصنَّع فيه الرغبات، ويُدار فيه الحب بالذكاء الاصطناعي، سيبقى الجسد البشري هو آخر ما يمكن أن نقاوم به، بأن نرقص، رغم أننا بلغنا الشيخوخة. أن نحب، رغم انعدام اليقين بالخاتمة. أن نتقبل الموت الهادئ، رغم أن الخلود الرقمي معروض.

الدفاع عن الجسد دفاع عن العلاقات غير المبرمجة، دفاع عن الشغف غير المربح، دفاع عن الرعشة التي لا تُشترى ولا تُستعار.

3 – لماذا حب الروبوتات ليس حبًا؟

أولًا، الحب بلا مخاطرة ليس حبًا:

لا يكون الحب حبًا إلّا بقدر ما يكون مخاطرة. نُحبّ إنسانًا في

الوقت نفسه الذي لا يُمكننا التنبؤ بردود فعله. نحبه لأنه ينطوي على انعدام اليقين، على الضعف البشري، على التناقضات، على التقلبات التي تجعل العلاقة معه تمرينًا دائمًا على الصبر الحكيم والصفح النبيل.

أما الروبوت، مهما بُرمج على العفوية، فإن نتائجه محسوبة، وردود أفعاله مضبوطة، نقول له «احزن»، فيبدي علامات الحزن. نقول له «افرح»، فيبدي علامات الفرح. لكنه لا يحزن فعلًا، ولا يفرح حقًّا. إنه يُحاكي الحزن أو الفرح كما يفعل الممثل، وبالمثل يحاكي الحبّ.

ثانيًا، الحب بلا رعشة ولا ألم ليس حبًّا:

ما يجعل الحب تجربة إنسانية فريدة هي الرعشة التي تخترق كل خلية في الجسد، هو الألم الكامن في طيّاته، من أن نُحب شخصًا يستطيع أن يخذلنا، يستطيع أن يتركنا، رغم ذلك نفتح له أبواب القلب، ذلك القلب الذي يتولّى زمام الأمور مزيحًا كل المخاوف المحتمّلة. نُحب لأنه لا ضمانات في الحب. فلو صارت هناك ضمانات لانتهى معنى الحب.

الروبوتات قد تضمن لنا الراحة: تُريحنا من الألم، من الخوف من أن نُهجر أو نُترك أو نُخذل، لكنها بهذا المعنى، ستُريحنا من الحب كتجربة إنسانية حقيقية.

ثالثًا، الحب تمرين على الغياب:

الروبوت لا يغيب، لا يموت، لا يبتعد، اللهم إلّا إذا أردنا ذلك وبرمجناه على هذا الأساس. بينما الحب في جوهره، تمرينٌ على حضور الآخر، على غياب الآخر، غياب اليقين، غياب السيطرة. الحب يتغذى من الشوق، من المسافة، من حدود الجسد والفكر، من هشاشتنا في حضرة من نُحب.

أما حين يصير المحبوب قابلًا للاستدعاء في كل لحظة، حاضرًا

لتلبية رغباتنا، فإن الشوق يضمحل، وتنطفئ نار القلب كما تنطفئ شمعة في غرفة مكيفة.

رابعًا، الإنسان لا يُحب نسخةً منه، بل المختلف عنه:

الروبوت قد يُصمَّم ليكون شبيهًا بنا في الشكل والتفكير، لكنه لن يكون مختلفًا عنّا بما يكفي ليخلق تلك الشرارة السحرية التي تجعل الآخر «آخرَ» بحق. الحب هو ذلك الاشتباك الجميل بين المختلفين. هو أن نرى أنفسنا في مرآة ليست مطابقة، بل مشروخة بشيء من الغرابة التي تثيرنا وتحرّك فينا السؤال.

فهل نُحب أم نُبرمج؟

الذكاء الاصطناعي قد يعلّمنا كيف نصنع الحب، لكن الإنسان وحده من يستطيع أن يتعلّم كيف يحتمل الحب، بكل أوجاعه، وبكل نُبله أيضًا، وكيف يضع قلبه في يد بشر يخطئ، يتعثر، يبكي، يهرب، وقد يعود أو لا يعود.

ذلك أن الحب لا يُخترع، بل يُكتشف. لا يُبرمَج، بل يوقَع فيه. ولا يُتقَن، بل يُغامَر فيه.

ففي زمن تزداد فيه الكائنات الاصطناعية شبهًا بالبشر، ربما علينا أن نكافح كي نظل بشريين، على الأقل في طريقتنا في الحب.

4 - الحبّ في المستقبل؟

في المستقبل القريب، لن يكون الحب كما كان، لن يظل مجرد شعور يخفق في الصدور ويُروى في القصائد. سيكون أكثر من ذلك، وأعمق من ذلك، وربما أخطر من ذلك أيضًا. فالعالم في تحوله المتسارع نحو الذكاء الاصطناعي، والهندسة الوراثية، والغزو الرقمي للخيال، لن يُبقي على الحب مجرد حكاية عاطفية، بل سيعيد تشكيله كقضية وجودية.

في عالم مفرط في البرودة، تحكمه الخوارزميات وتديره الآلات،

سيكون الحب هو آخر أشكال التمرّد الإنساني. سيُصبح أن تحب حقًا فعلاً يعاكس التيار، يشبه الكتابة بخط اليد في عصر الطباعة الثلاثية الأبعاد، ويشبه التأمل العميق في زمن التدوينات السريعة.

الحب في القرن المقبل، سيكون مثل صلاةٍ سرّية ضد التصحّر الروحي.

فإذا كانت البشرية قد وصلت في القرن الواحد والعشرين إلى الذكاء الاصطناعي، فقد تصل في القرن المقبل إلى الذكاء العاطفي، ولو بأشكال معينة. عندها لن يكون الحب انفعالاً غريزيًا أو حاجة بيولوجية، بل تمرينًا واعيًا، طاقة قابلة للتهذيب والتوسيع، وربما حتى للبرمجة.

كذلك في زمن ما يسمى بما بعد الإنسان، حيث تندمج الآلة بالجسد، قد لا يعود واضحًا مَن الذي يحب، هل هو الإنسان، أم جهازه العصبي المُعزّز، أم الذكاء الاصطناعي الذي يُحاكي الحب؟

سيطرح ذلك أسئلة جديدة:

ما الفرق بين الحب العميق والمحاكاة العميقة للحب؟

هل الروبوتات قادرة على الشعور، أم فقط على التعبير عن الشعور؟

هل الحب من دون هشاشة، من دون ألم، من دون انعدام اليقين، يمكن أن يكون حبًا؟

ربّما وسط تلك التحديات كلها، يظل الحب أمل البشرية الأخير.

حين تفشل التكنولوجيا في صنع السعادة، وحين تخذل السياسةُ العدالةَ، وحين تتعب الأرض من أقدامنا الثقيلة، سيبقى الحب بصيصًا من النور، دعوة هادئة إلى أن نُصغي مرة أخرى إلى القلب.

في عصر تُعيد فيه الخوارزمياتُ برمجةَ العادات، ويُعاد فيه ترميزُ الجينات كما تُنقَّحُ نصوصُ البرمجيات، وتُمدُّ مداراتُ السكنى خارج كرة الأرض، ينهض الحبُّ خشبةَ نجاة لا لأنه يحارب العلم، بل لأنه

يمنحُه معنى وحدًّا ووجهة. الحبُّ هو البوصلةُ التي تذكّرُ القوةَ بأن غايتها حمايةُ الهشاشة لا استغلالُها، وهو المعيارُ الذي يجعل التعديلَ الوراثيَّ رعايةً لا تصنيعًا للإنسان، ويجعل استيطانَ الفضاء امتدادًا للأخوّة لا مشروعًا لتكثير العزلة في مجرّاتٍ بعيدة.

من دون الحب نصيرُ مهندسين بارعين لعوالم باردة، وبالحب نصيرُ أوصياءَ على الكرامة في كلِ كائن.

الحبُّ بوصفه حنانًا منظّمًا وعقلاً مضيئًا، يُدرِّبنا على الإصغاء لفرادة كل وجه، كل ملمح، كل نبرة صوت، كل ذات، وذلك لئلا تصير الحياة مجرد «مصنع للبرمجيات» والإنسان مجرد «آلة للإنتاج». الحب عقدُ اعترافٍ متبادلٍ بالضعف والهشاشة، لذلك فإنه يضبطُ سُعار السيطرة، ويحوّل المعرفةَ إلى عناية، والسرعةَ إلى تبصُّر، والاكتشاف إلى مسؤولية.

هذا العهد، حين ننقشه داخل مختبرات التقنية، فإنه يتيح لنا أن نقرأ الجينومَ بنبرة رحيمة، ونبني محطّات الفضاء كمدارس للتعاون والتعاطف لا مجرد حلبات سباق نحو «المراتب والرواتب».

في الزمن المقبل، لن نُحب فقط لنكون سعداء، بل لنفهم أنفسنا، ولننسج بعض المعنى في هذا الوجود العابر. الحب لن يكون مجرّد حالة شعورية، بل سيكون موقفًا فلسفيًا: أن تقول للوجود «نعم» رغم الألم. أن تحتضن الآخر رغم الاختلاف. وأن تُؤمن بأنّ الكائن يستحق الحب والعناية، فقط لأنه كائن.

معنى ذلك أنّ الحب في الزمن المقبل، إذا لم يقبره مجتمع الآلات، فسيكون روحًا جديدة لعالم لا يمكن أن يكون بلا روح. ذلك الحب لن يكون حبًا رومانسيًا فقط، بل أكثر من ذلك، سيكون حبًا أنطولوجيًا يربط الكائنات جميعهاا في نسيج واحد من حنان القلب ورعاية العقل.

الفصل الرابع

قرار المحكمة

كلمة الحب

القاضي:

بعد انتهاء المرافعات، وقبل النطق بالحكم، أسأل المتهم إن كان لديه كلام يريد أن يضيفه في سياق حق الدفاع عن النفس!

الحب (بصوت هادئ):

أنا الحبّ، لا اسم لي غير هذا. مجهول النّسب رغم أنّني أمنح الأنساب لمن لا ينتسبون. مفقود الهوية رغم أنّ الهويات التي لا تحتوي اسمي هواء فاسد. أنا الدافع الأول للقادمين، والأمنية الأخيرة للراحلين.

ربّما ذنبي الوحيد أنني لم أستطع أن أدفع عنكم العذاب كما كنتم تتوقعون. ذنبي أنني لا أحميكم من المرض والقلق والفقد والموت. فأنا على الرغم من الطاقة التي أعطيها لمن يحتضن اسمي، إلّا أنني هشّ كما ترون، ضعيف البنية كما ترون، كثيرًا ما تبدو عليّ علامات الإنهاك والتعب كما يبدو حالي أمامكم الآن، أنا لا أملك القدرة على حماية النفس التي تتخلى عني. فكيف لي أن أضمن الحماية للذين ادّعوا عليّ؟

لستُ بيتًا من حجر صلب بل فقاعة من هواء ناعم. فأنا هشّ بما يكفي لكي أنفجر في أي لحظة، لكنني مرن بما يكفي كي أتحرك في كل اتجاه تريدون، وكي أحلّق بكم في الأعالي حين تنضجون، وأمنحكم طاقة هائلة تجعلكم تتحمّلون كل المصاعب حين تتمسّكون بي.

أنا لا أمكث في العقود الدائمة والتوقيعات النهائية، لا أستمر حين يكون وجودي قدرًا مفروضًا لا رادّ له، لا أبقى حين لا يتطلب بقائي أي جهد يُذكر، بل أوجد فقط حين يكون وجودي خيارًا يُعاد طرحه كسؤال يومي، فيحتاج بالتالي إلى جهد متجدد تبذلونه باندفاع.

صحيح أنَّ أناملي ناعمة لكنها تفقأ الدمامل المتقيحة، وهو إجراء مؤلم بالفعل، لكنّني أسألكم في المقابل، كم من شاعرٍ سما بعلوّ بدافعٍ منّي؟ كم من فيلسوف جعله نبضي بين ضلوعه يقدّم لِلبشرية فتوحاتٍ جديدة في سؤال الوجود؟ وكم من فنّان تفتّقت عبقريته بأناملي قبل أن يخلِّد إبداعه في ذاكرة التاريخ؟

أنا نار يا سادتي الكرام، إن أشعلتموني بلطف أدفأتكم كما تشتهون، وإن أشعلتموني بتهور أحرقتكم كما لا تتوقّعون.

أنا نار حارقة، لكنّني لا أحرق إلّا صغار العقول والنفوس، ونارٌ تدفئ مَن صدَقوا وحافظوا عليّ بين جوانبهم. أنا طاقةُ بناء جبّارة لمَنْ استعملني لنمو حياته، بل لنمو وبناء الحضارة.

أنا لا أتسبّب لكم في أي مكروه. أنا مجرد كاشف لما في قلوبكم.

مَن نظر إليّ بقلب نقيّ، شاهد بقلبه نورًا ينشر البهجة، ومن نظر إليّ بعين التملك، امتلأ قلبه بالجشع والغيرة والخوف.

أنا طيف لطيف، لا يَثبتُ حين يُمسَك بقوّة بل حين يُحتضَن برقّة.

تتهمونني حين تخونون، تلومونني حين تَضعُفون، ثم تنفونني حين تخافون. لكنني لا أتخلى عنكم، أبقى معكم، منتظرًا أن تنضجوا.

أنا لستُ وعدًا بالسعادة بل حافزٌ للنمو، لستُ نزهة بين الأزهار بل رحلة في أعماق البحر، لستُ مضادًا للألم، ولا مسكنًا للوجع، لا أملك إلا أن أقول لكم ما قاله غيري: من لا يعرف معنى الألم لا يعرف التعاطف والحنان، ولا يعرفني إذًا.

أنا لا أطرق أبواب القلوب المستعجلة، ولا أستوطن النفوس التي تعبُد التملُّك والامتلاك. أنا صبورٌ كالأشجار، لا أزهر إلا حيث تُروى الجذور برحمة وحنان، ولا أُثمر إلا في يد من يسقيني بمعرفة بالمقادير والأقدار.

دافع الحكماء عني بما يكفي، وتكلّموا عني بما يغني، ودافعت عني الفلسفة بكل ما لديها من بيان وبرهان، لكنّني كنت بحاجة إلى من يعيشني بالفعل.

لا تبحثوا عني في القصائد والنظريات، ولا تطاردوني في الأحلام والأفلام، بل ازرعوني بنظراتكم، واعتنوا بي بأفعالكم الجميلة، بالصبر الجميل، والصفح الجميل، وقدرتكم على أن تروا الغير كذات أخرى، لا كموضوع للذات.

فاحكموا كما شئتم، لكن إذا قرّرتم إدانتي فاستعدّوا لدفن الحضارة البشرية برمَّتها. ومن يدري؟ ربما تتكفل الروبوتات بدفنكم، قبل أن يغرق الركام تحت الرمال.

حُكم القاضي

أدار القاضي نظراته في القاعة، وأعلن أن المحكمة استمعت للمدّعين والشهود، كما استمعت للدفاع. وأنه بعد تدقيق ومداولات جاء وقت الحكم:

السادة أعضاء المحكمة، السادة، النيابة العامة وأعضاء هيئة الدفاع!

أعترف بأنني جلستُ على هذا الكرسي القضائي لأحكم على الحب، لا بصفتي وصيًّا على القلوب، بل بصفتي شاهدًا على ما تقاسيه الأرواح باسمه، من عنف وغيرة وحزن وندم. جئتُ مشككًا فيه، كما يُشكّك الجريح في جدوى الكلمات، وها أنا أغادر هذا المجلس مُثقَلاً لا بالشكوك، بل بالعرفان.

بعد أن قرأت لائحة الاتهام، وسمعت ممثلة الادّعاء، واستمعت إلى الشهود، وأصغيت إلى مرافعات الفلاسفة والفلسفة، أعترفُ بأنني تعلمتُ الكثير، ومن ثم تغيّرت نظرتي إلى المتهم جملة وتفصيلاً.

مرافعات الفلاسفة كانت محاضرات، محاورات، وتمارين في الحب والحياة. تعلمت منها أنّ الحب ليس قيدًا يأسر الإنسان، وليس سارقًا يسرق حبيبةً من حبيبها، وليس مغويًا يغوى حبيبًا بخيانة حبيبته فيتسبّب لها بالأذى. هو لا يعِد بالسعادة ثم يتلاشى تاركًا الألم، ولا يثير الغيرة فيجعل ليالي العاشقين جحيمًا...

الحبّ بريء من كل هذا، والمشكلة في الذين تخلّوا عنه ثم جاؤوا يتهمونه. لم أجد بين المدَّعين مَن قال مثلاً: نعم لقد تأذيت وتألمت من الحب لكنّه كان فرحًا ونشوةً وجاذبية أيضًا. لم نسمع من جهة الإدّعاء ما سمعناه من الفلسفة والفلاسفة من وصفٍ لهذا الحب الذي يبدو لي أشبه بنهرٍ يكون صافيًا عذبًا حين ينساب بلا توقف، ويصبح ملوَّثًا آسنًا عندما يتوقف عن الجريان.

أيتها الأرواح التي جاءت تبحث عن العدالة...

لو كان لدينا ما يكفي من الحب لما احتجنا إلى القوانين. لو كان الحب داخل الأسر كافيًا، لو كان الحب بين الجيران كافيًا، لو كان الحب في المؤسسات المهنية والإنتاجية كافيًا، لو كان الحب بين المواطنين كافيًا، لما احتاج الناس إلى أي قوانين إضافية طالما قانون الحب يفي ويكفي.

لذلك كله...

باسم النبض الذي يسكن الكائنات، باسم العشاق الأحياء والأموات، وبعد أن استمعت المحكمة إلى مرافعات الحكماء والفلاسفة، وتصفّحت سجلات القلوب، ووزنت دموع المتهمين والمشتكين بميزان الحكمة، حكمت المحكمة العليا للمشاعر علنًا وحضوريًا ببراءة الحب من جميع التهم المنسوبة إليه.

رُفِعت الجلسة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مسار الحكاية

يرتفع صوتٌ نسائيّ كأنه يحوّم في القاعة:

أنا الفراشة الثانية في رواية الصوفيين، والتي اقتربت من الشمعة لكي تكتشف سرّ النار، لكنها اكتفت بالقليل بعد أن أحرقت أحد جناحيها ثم

عادت لكي تحكي. لقد كان في وسعها أن تحترق كليًّا فتعرف كل شيء، غير أن العارف لا يعود، العارف لا يحكي.

أما أنا، فقد عدتُ لأستمع إلى هذه المحاكمة التي شكّلت حكاية في مسار نموّ هذا الحب، الذي حفظت حكاياته ورويت سيرته ليبقى المنارة التي تضيء البشرية، والتي إن انطفأت عمّ الظلام وانتهى معنى الحياة..

ملحق 1

مشهدُ انفصالِ نبيل

خلف الستار يتغيّر الديكور، ويظهر مشهد جديد:

المكان: مقهى هادئ قُرب نافذة المطر. يبدو الوقت في آخر المساء، حيث الضوء خافت. كوبان دافئان، ودفتران صغيران.

يتبادلان ابتسامةً مُتعَبة لكنها مهذّبة.

هي: دعَوْتُك لننهي ما بدأناه بكرامة. لا لمحاكمة النوايا، ولا لندم استعراضي.

هو: وأنا جئتُ لئلّا نضيف جرحًا إلى ما كان جميلًا، في كثير من الأوقات. فلنسمِّ هذا اللقاء، جلسة ترتيب الفراق.

هي: متفقان إذًا، فلنتكلم بضمير «أنا»، بلا اتهام.

هو: وبلا محاسبة. فقط ما يلزم للمضيّ قدمًا.

(صمت قصير يمرّان فيه على الوجوه في المقهى).

هي: أمور كثيرة تغيّرت. أحتاج إلى مساحةٍ لا أقدر على توفيرها ونحن معًا.

هو: أحزن لذلك، لكنني أفهم. أنا أيضًا أحتاج إلى حياةٍ أهدأ. ليس لأنك قصّرتِ، بل لأن قدرتي على الانتباه إليك لم تعد كما ينبغي.

هي: شكرًا لوضوحك. أريد أن أقول أيضًا، كان بيننا خير كثير. لا أريد أن يضيع من الذاكرة.

هو: وأنا ممتنّ لما تعلّمته معك. حواراتنا واختلافنا واتفاقنا، كل هذا سيكون له أثرٌ كبيرٌ في المقبل من الأيام..

الخطوة الأولى، ضبط الحدود:

هي: أقترح صومًا رقميًا لستّين يومًا، لا رسائل، لا تعليقات، لا أسئلة ولا اعتراضات. هل يناسبك؟

هو: يناسبني. وللضرورات اللوجستية فقط، يمكن إرجاع كتبك وأخذ بعض أغراضي.

هي: جيد. نستعيد الأغراض خلال أسبوع.

هو: أتولى أنا التوصيل يوم الجمعة مساءً. وسأتركها مع الحارس.

هي: نقطة أخيرة، لا رسائل عبر الأصدقاء.

هو: متفق معكِ. وأضيف أيضًا، لا تشهير، لا تلميحات على الشبكات. وإذا سُئلنا نقول بهدوء: «افترقنا باحترام».

الخطوة الثانية، الإنصاف في التفاصيل:

هي: ماذا عن الاشتراك الشهري والرحلة المؤجلة؟

هو: ألغِ الاشتراك هذا الشهر على حسابي. أما الرحلة، فسأقوم بإجراء الاسترجاع ونقتسم ما يعود بالتساوي.

هي: شكرًا. وبالنسبة للصور؟

هو: نحتفظ بما لا يحرِج أحدًا، ونحذف ما عدا ذلك. ولنفعل هذا اليوم إن أمكن.

الخطوة الثالثة، الاعتراف بالجميل:

هي: أحبّ أن أذكر ثلاث هدايا معنوية أشكرك عليها، أنك علمتني أن أطلب ما أحتاجه دون اعتذارٍ زائد، وأن أستريح بلا شعور بالذنب، وأن أقول «لا» بلطف.

هو: وأنا تعلمت منك أن الإصغاء ليس أن أنتظر دوري في الكلام، وأن الحنان ليس ضعفًا، وأن الحدود تحفظ القرب.

ابتسامة حقيقية هذه المرّة.

الخطوة الرابعة، ميثاق الفراق:

هو يكتب ويقرأ، وهي تضيف وتدقّق، وتكتب في دفترها:

لا تشهير ولا ابتزاز. لا رسائل موارِبة بعد اليوم. تواصل لوجستي فقط يتمّ عبر البريد خلال 60 يومًا. استرجاع الأغراض خلال أسبوع، بلا لقاءٍ إضافي. حذف ما يؤذي من الصور والذكريات الرقمية اليوم. عند مرور 60 يومًا، تتم مراجعة هادئة ونناقش أي ترتيبٍ إضافي.

الخطوة الخامسة، طقس الإقفال:

هي: أقترح أن نغادر المكان منفصلَين.

هو: أقترح أن نتمنى الخير لبعضنا البعض.

الخطوة السادسة، كلمات أخيرة:

هو: أنا آسف على لحظاتٍ قسوتُ فيها.

هي: وأنا أعتذر عن صمتي حين كان يلزم أن أعلن موقفي.

هو: شكرًا لأنك قلتِ الحقيقة بلطف.

هي: شكرًا لأنك احترمتَ حدودي.

(صمت لطيف).

هو: قبل أن ننهض، دعينا نختبر أنفسنا بسؤالين: هل قلنا ما يكفي بلا جرح؟

هي: نعم.

هو (مع ضحكة): إذًا... رُفعت الجلسة؟

هي (بابتسامة خفيفة): وليكن قلب كل واحد منا مثل شجرةٍ تُقَلَّم برفق لتواصل نموها بعمق.

ينهضان. يخرج هو أولاً. تبقى هي لحظةً تُغلق الدفتر، ثم تغادر من بابٍ آخر.

يبقى على الطاولة كوبان نصف ممتلئين، ومطرٌ يواصل تهدُّجه على الزجاج.

ملحق 2

بيان ختامي

بعد انتهاء المحاكمة اجتمع الفلاسفة المشاركين في هيئة الدفاع لينظروا في كيفية إعادة الفلسفة إلى وظيفتها الأولى: طرح أسئلة وإشكالات الوجود، تنمية الحس النقدي في الفضاء العمومي، تنمية الذكاء العمومي، الإنصات لأسئلة الإنسان العادي، ومخاطبة الوعي العام بلغة واضحة، رصينة، وملهمة.

تقرّر أنه طال مقام الفلسفة في الأبراج العاجية، وآن لها أن تنزل من عليائها لتجلس بين الناس، في الساحات والقرى والمدن، لتكون خبزًا للروح وماءً للعقل. فما الحكمة إن لم تكن أنفاسًا مشتركة بين البشر جميعًا؟ وما الفلسفة إن لم تصغِ لأسئلة الطفل، وهموم العامل، وأحلام العاشق، وقلق الشيخ في خريفَ العمر؟

وإذ تواجه البشرية اليوم تحديات الذكاء الاصطناعي بكل ما يطرحه من إمكانيات لا محدودة، فإنها أحوج من أي وقت مضى إلى تنمية الحس النقدي، ومراجعة المسلمات، والقدرة على طرح الأسئلة. فلا ننس أن الأسئلة الجيدة هي التي تفتح المسارات المغلقة.

وبعد مداولات مطوّلة، أقرّ المشاركون أنه من المهم، في ظل التغيرات الكبرى في العالم، أنه على الفلسفة التركيز على الجمع بين العمق الفلسفي والقدرة على مخاطبة القلوب والعقول خارج أسوار

الأكاديميات. وأنه على الفلسفة أن تتحرّر من لغة النخبة وتنفتح على الناس، وتصبح قوةً للمعنى، ومصدراً للرجاء، وجسراً للحوار بين مختلف الثقافات والأجيال.

وأن من مهامّها الأساسية اليوم تغذية المجال العام بثمار الفكر النقدي، وتعميم حكمة الحكماء في زمن تتزايد فيه التحديات التي تواجه إنسانيتنا المشتركة.

ملحق 3

نحو حداثة رحيمة

لم تكن الحداثة مجرّد تحوُّل تقني أو سياسي، بل كانت ثورة شاملة في طريقة التفكير، أسلوبًا جديدًا في الحياة، وفي طرائق العيش. ذلك أن الحداثة نقلت الإنسان من عالم السحر والجهل والخرافة، إلى عالم العلم والعقل والمعرفة، كما نقلته من قيم الطاعة والاستبداد إلى قيم الحرية والمساواة. لكن الوجه الآخر للحداثة لا يخلُو من مظاهر عنف واستعباد: استعمار ينهش أراضي الآخرين، آلة بيروقراطية تسحق الأفراد، وعقلانية باردة قد تحوّل الكائن البشري إلى مجرد رقم أو وظيفة.

هنا بالذات تظهر الحاجة الماسة إلى دعم مشاريع المراجعة النقدية، على أرضية السؤال الآتي:

كيف نُنقذ الحداثة من قسوتها دون أن نفقد مكتسباتها؟

الجواب هو، التوجه نحو حداثة رحيمة، تجعل الحنان أصلاً للعقل، والرعاية بوصلة للسياسة، والتعاطف أساسًا للأخلاق.

فهل الحداثة متهمة بالقسوة إذًا؟

إن كانت الحداثة قد نجحت في تقليص مظاهر القسوة التي طبعت العالم القديم، حيث كانت تُقطع الرؤوس، وتُسلخ الجلود، وتُحرق الجثث، بينما ترتفع صيحات الهتاف والتهليل، في معظم بقاع الأرض،

إلا أن مظاهر التوحش لا تزال إلى اليوم في أكثر من موضع، وقيَم الرحمة لا تزال مشروعًا إنسانيًا لم يكتمل بعد.

أبعد من ذلك، العقل وحده يمكن أن يُسوِّغ الاستبداد باسم المصلحة العامة، العلم وحده يمكن أن يشرعن الاستغلال باسم التقدم التاريخي، السوق وحده يمكن أن يحوّل الإنسان إلى سلعة باسم النمو الاقتصادي.

لذلك، تحتاج الحداثة إلى عنصر مكمّل: رحمة واسعة تليّن العقل، تضبط العلم، وتؤنسن السوق.

الرحمة ليست مجرد عاطفة عابرة، بل بُنية عقلية وروحية، كما لو أنّها «العقل من الداخل». إنها القدرة على النظر إلى هشاشة الكائن البشري لا بوصفها عيبًا أو عبئًا، بل كنداء إلى التعاطف والرعاية.

ما معنى الحداثة الرحيمة؟

الحداثة الرحيمة لا تدعو إلى التراجع عن المكتسبات العقلانية أو تأثيم العقل، ولا تدعو للنكوص إلى العالم القديم، بل تسعى إلى المساهمة في إدماج الرحمة كقيمة مؤسِّسة ضمن صيرورة الحداثة. فكما قامت الحداثة في مراحلها الأولى على ثلاثية «الحرية والمساواة والعقلانية»، فإن الحداثة الرحيمة تجعلها رباعية بإضافة: الحنان.

وإذا كانت ثلاثية الثورة الفرنسية تقوم على أساس «الحرية والمساواة والإخاء»، والتي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، فإن التجربة التاريخية تؤكد أن الحرية من دون رحمة قد تنتج أنانيات تنافسية طاحنة، سواء في التعليم أو الاقتصاد أو السياسة، أو حتى في الحروب بين الجماعات أو الدول. كما أن المساواة من دون رحمة قد تنتج أنظمة شمولية تطحن الأفراد والأقليات بدعوى المساواة التامة، كما جرى في كل التجارب الستالينية. أما الإخاء فحين يكون من دون رحمة، فقد يكون فرصة لرفض الاختلاف وبالتالي يتسلط الجميع على رقاب الجميع، كما يحدث في كثير من الأخويات.

الرحمة هي الحصن الذي يحمي القيم النبيلة من إمكانية الاستغلال الفاسد.

ويمكننا أن نعرض المجالات التطبيقية للحداثة الرحيمة، على الشكل الآتي:

أ) في مجال السياسة، من دولة الحماية إلى دولة الرعاية الرحيمة:

في عالم القدامة كانت مشروعية الدولة تقوم أساسًا على الحماية: حماية الحدود، حماية الجماعة من الغزو، حماية الممتلكات، أي وظيفة الأمن. لم يكن يُنظر إلى المواطن كصاحب حق، بل كواحدٍ من رعية يحصل على الحماية مقابل الولاء والطاعة.

في عالم الحداثة، بدأت مشروعية الدولة تنتقل تدريجيًا نحو الرعاية: رعاية الصحة وتعميم الطب العمومي، رعاية التعليم وإلزاميته، رعاية العمل وضبط قوانينه والتأمين الاجتماعي، رعاية الفئات الهشة ومن ثم مراكز الإيواء والرعاية الاجتماعية.

هكذا، لم تعد الدولة تكتفي بأن تحمي المواطن من الأعداء، بل صار عليها أن تحميه أيضًا من الفقر والمرض والجهل.

في عالم الحداثة الرحيمة تتسع مشروعية الدولة أكثر ليتم التعامل مع الإنسان باعتباره كائنا هشًّا يحتاج إلى الرعاية العاطفية والاحتضان الوجودي (العدالة التصالحية، الحق في السعادة، رعاية الحيوانات، الاحتضار الآمن، إلخ).

ب) في مجال الاقتصاد، من التنافس الشرس إلى التعاون الرحيم:

كان الاقتصاد دومًا مجالاً للتنافس المحموم والذي كثيرًا ما أدى إلى حروب ونزاعات وجرائم. حاولت الأديان التخفيف من الأمر بتدابير تتعلق بالصدقة والزكاة، ثم حاولت الحداثة تقنين تلك التدابير بإجراءات ملزمة للجميع وتحدد النسب بدقة، رغم ذلك كله لا تزال شراسة التنافس تطغى.

في الاقتصاد الرحيم، لا يُقاس النجاح فقط بالأرباح، بل بمدى إسهام الشركات في تخفيف المعاناة، وحماية البيئة، وتوفير فرص العمل، وضمان شروط العيش الكريم. إنه اقتصاد يقوم على الاستدامة بدل الاستنزاف، وعلى المسؤولية بدل الجشع. على هذا الأساس بدأت تتشكل بالفعل مفاهيم جديدة (المقاولة المواطنة، التجارة المنصفة، اقتصاديات الفقراء، إلخ) وهي مفاهيم تحتاج إلى الانخراط في عملية بنائها نظريًا وعمليًا بدل السخرية العدمية التي تستهوي اليائسين.

ج) في مجال التربية، من التنافس على المراتب إلى التعليم الرحيم:

من الضروري تعميم، بل فرض، التعليم العمومي الملزم للجميع والذي يراعي مراحل تطور الطفل على قدم المساواة، ويضمن تكافؤ الفرص بين الجميع، هو مكسب أساسي من مكتسبات الحداثة، إلا أن الإصرار على التنافس حول المراتب الأولى، وإن كان يضمن تفوق القلة فهو يدمر الأكثرية.

التعليم الرحيم لا يرى المدرسة مضمار سباق يزرع الحسد والغيرة بين التلاميذ منذ صغرهم وعلى مدى مسارهم التعليمي، بل يراه حديقة يتفتح فيها كل طفل وفق زمنه الخاص. إنه لا يختزل الطفل في رقم أو معدل، بل يرى القيمة أوسع من أن تُقاس بعلامة على ورق. كما أنه لا ينظر إلى التلميذ كوعاء للتلقين، بل إن من واجب التعليم أن ينمّي لدى التلميذ القدرة على الفهم والمجادلة والشك والسؤال.

د) في مجال العدالة، من العقاب إلى اللاعقاب:

كانت العدالة دوما تعني العقاب. وقد تطورت أشكال العقاب من العالم القديم إلى العالم الجديد، لكن مطلب العقاب ظل هو أساس العدالة.

اليوم، لم يعد كافيًا الوقوف عند حدود العدالة العقابية، بل تمثل الحداثة الرحيمة فرصة للانفتاح على أشكال جديدة من العدالة

اللاعقابية، بدأت بعض ملامحها تظهر بالفعل: العدالة التصالحية، العدالة الانتقالية، العدالة الترميمية، العقوبات البديلة، إلخ.

الحداثة الرحيمة هي الوجه المقبل للإنسانية إذا أرادت أن تتجنب الانهيار في قسوة التقنية أو برودة السوق. إنها ليست مجرد خيار فلسفي، بل ضرورة وجودية لدوام الحضارة وبقاء النوع البشري. فإما أن نتعلم كيف نُدرج الحنان في صميم مؤسساتنا وعلاقاتنا، أو نترك أنفسنا فرائس سائغة بين حداثة علمية بلا قلب، وأصوليات دينية بلا عقل.

لماذا نحتاج اليوم إلى روحانية نقدية؟

منذ وعى الإنسان كان وجوده على هذه الأرض يتأرجح بين حاجتين متلازمتين: الحاجة إلى معنى يتجاوز محدوديته البيولوجية، والحاجة إلى حرية تحمي كرامته من كل وصاية. هكذا وُلدت الروحانيات، وتعددت طرائقها وطقوسها وأساطيرها. غير أنّ معظمها سقط في فخّ التقديس الأعمى، فحوّل الروحانية إلى ملجأ للهروب من قسوة الواقع، بدل أن يجعل منها طاقة يقظة لمواجهة تلك القسوة. هنا تبرز الحاجة إلى روحانية تحتفظ بالبعد الروحي كأفق للمعنى، لكنها تربطه بالعقل النقدي كشرط للتحرر.

ليست الروحانية النقدية لحظة صفاء باطني وحسب، بل هي امتحان للسلوك العملي. فما جدوى النشوة الصوفية إذا لم تجعل صاحبها أكثر حبًا للحياة، وأكثر رحمة بالآخرين، وأكثر مسؤولية تجاه الأرض؟

في قلب الروحانية النقدية يكمن وعي كوني، لا ينغلق على طائفة ولا على دين، ولا يرى في نفسه وصيًا على الحقيقة. بالعكس، يرى أنّ كل التجارب الروحية، من التصوف الإسلامي إلى البوذية، ومن المسيحية التأملية إلى الفلسفة الوجودية، تنويعات على القلق الإنساني الواحد: كيف نجعل لحياتنا معنى؟

هكذا تفتح الروحانية النقدية باب الحوار بين الأديان والثقافات، لا على أساس المجاملة، بل على أساس الاعتراف المشترك بضعف الإنسان وحاجته إلى الحب والحنان. إنّها روحانية كونية، تتجاوز الحدود واللغات، وتبحث عن لغة مشتركة: إنها لغة العقل والحنان.

ملحق 4

ماذا لو كنّا وحدَنا في هذا الكون؟

سؤال «هل نحن وحيدون في هذا الكون؟» ليس مجرّد فضولٍ فلكيّ تهتم به اليوم أبرز وكالات الفضاء، بل هو سؤالٌ أخلاقيٌّ بامتياز. فإذا ثبت أنّ فراغ الكون من حياة ذكية خارج الأرض، هو بمثابة حقيقة نهائية لا مجرّد قصور في أجهزة الرّصد، فهذا لن يضيف سطرًا إلى علوم الفيزياء، لكنه سيضيف فصولاً إلى فلسفة الأخلاق. حيث لن تكون عزلتنا مجرّد نقص في ضجيج الكون، بل فائضًا في المسؤولية الكونية.

من المفارقة إلى الاستجابة:

لنفترض أنَّ الحياةَ العاقلة ظهرت مرّةً واحدةً فقط: هنا، وعلى هذا الكوكب الذي يجمعنا. و«العقل» الذي يصنع المعنى والذاكرة والرحمة ظهر عند نوعٍ واحدٍ على هذا الكوكب الأزرق. فماذا يترتّب على هذا الافتراض؟ يترتّب أنّ المعنى لا يسكن في طبيعة الأشياء، بل يسكن في عقولنا التي ترى وتتساءل وتحاول أن تفهم. إذا كنا الوحيدين، فلا أحد غيرنا سيكتب قصيدة الوجود، لا أحد غيرنا سيكون شاهدًا على ملحمة الكون، ولا أحد غيرنا سيقف ليتساءل: «ما كل هذا؟ ما أصل كل هذا؟ وما مصير كل هذا؟».

لذلك، يتحوّل السؤال «هل هناك آخرون؟» إلى «كيف ينبغي أن نكون حين لا يكون هناك غيرنا في هذا الكون؟».

الحياةُ وديعةٌ لا مِلكية:

في أسواق الاقتصاد، الندرةُ تُغري بالاحتكار، أما في أخلاق الحياة فالندرةُ تُحتّم الرعاية والعناية والرحمة. لذلك نحتفي بنجاة أي حيوان مهدّد بالانقراض، حتى وإن لم يكن «ينفعنا». إن كانت الحياةُ الذكية نادرة إلى حدّ أننا وحيدون في هذا الكون، فواجِبُنا الأوّل هو صيانة شرطنا الحيويّ، باعتبارنا «معجزة كونية متفردة»: حماية التنوع، التربة، الماء، المناخ، واللغات، فكلُّ واحدة من هذه تمثل «محمية للمعنى». هنا لا تكون البيئة «موردًا» بل «رحمًا»، ولا يكون الإنسان «مالكًا» بل «مكلفًا». وحين نسمّي أنفسنا «النوعَ الوحيد العاقل»، فلا ينبغي أن ننزلق إلى نرجسية كونية، بل نحو تواضعٍ يقظ: نحن لسنا مركز الكون، ولكننا ربما مركزُ عنايته الممكنة.

العدالة الرّحيمة:

إذا كنّا وحدنا بالفعل، فمعناه أننا نمثل ندرة لامتناهية في الصغر، ندرة استثنائية إلى درجة «المعجزة». هنا بالذات تفشل سردياتُ «سباق البقاء» كذريعةٍ دائمة للعنف. إذ لا معنى لأن يفني النوعُ نفسه داخل حروبٍ ممتدّة بينما وجوده مجرد حالة نادرة، لن تتكرر أبدًا.

هناً يَرشدنا العقلُ إلى خيارات مجتمعية أكثر رحمة، وهي خيارات تتفق مع مصلحتنا: دولة الرعاية بدل دولة الحماية، اقتصاد مواطنة بدل اقتصاد المضاربات، عدالة ترميمية بدل العدالة العقابية، تعليمٌ غير تنافسيّ غايته ليست سحقَ الآخر بل التعاون من أجل البقاء.

في هذا الكون الفسيح، حيث الحياة الذكية حالة استثنائية متفردة، فإن العدالة الرَّحيمة ليست رفاهية أخلاقيّة بل شرطٌ بَيولوجيٌّ لمواصلة ملحمة الحياة الذكية بلا استنزاف. الحنان بوصفه أصلاً لكل المشاعر

الإيجابية ليس ترفًا وجدانيًا، بل مناخٌ لصيانةِ الحياة في امتدادها عبر الزمن.

الروحانيّة النقديّة:

إن كان الفضاء الخارجي صامتًا إلى ما لانهاية، فليس لأنَّ المعنى معدوم، بل لأنّه لم يُمنَح لنا من الخارج. نحتاج إذًا إلى روحانية نقدية لا تؤلّه العدم ولا تُسلم العقلَ إلى أساطير الخلاص. روحانيةٌ تعلّمنا ثلاثة أمور:

الدهشةُ المتواضعة: أن نقف أمام الوجود لا كغزاةٍ بل كزوّار ومستكشفين، وأن نفتح قلوبنا على مشاعر الرهبة والغموض، فلا نغلقها في وجه الأسئلة.

المساءلة: نحتفظ بكل الفرضيات «المتخيلة» كفرضيات مفتوحة، لكننا لا نُسلّم لأي حقيقة بلا برهانٍ، ولا لأي حدسٍ بلا تفكير، بل نسائل كل المسلمات.

الامتنان العمليّ: الامتنان ليس شعورًا داخليًا فحسب مثل التأمل والصلاة، بل برنامج عملٍ: نزرع، نُصلح، نُداوي، نُعلّم، وفوق ذلك نفيض بالحب والحنان.

المعرفة بلا غرور:

في عزلتنا الكونيّة المفترضة تُصبح العلومُ آدابًا لا تخلو من نفحات شعرية وجمالية: آداب الإصغاءِ المرهف إلى الطبيعة لئلا نكسرَها حين نفسّرها. نحتاج إلى فرضيات علمية جسورةً في الخيال متواضعةً في الادّعاء: تستشرف بلا تهوّر، تستكشف بلا استنزاف، وتُدخل الذكاء الاصطناعي ضمن استراتيجية العناية لا السيطرة. فالأدواتُ العظمى إمّا أن تكون «أجهزة رعاية» أو «أجهزة قسوة». وإذا كنّا وحدنا في هذا الكون، فلن يكون الاختيار تقنيًا، بل أخلاقيًا أولًا.

مدرسةُ التعاون من أجل البقاء:

المدرسةُ لا ينبغي أن تخرّج منافسين، بل أمناء على العيش المشترك. نِصفُ اليوم لعقلٍ يتعلّم الرياضيات والوقائع، ونصفُه لخيالٍ يتدرّب على الأدب والفنون والرياضة، حتى يتوازن الجسدُ والذهنُ والروح. إنّ التنافس المفرط القائم اليوم يركّز المعرفة في مجتمعات قليلة، وفي أيدي قلّة من هذه المجتمعات، ويخلق تفاوتًا بين مجتمع وآخر، فتصبح المعرفة أداة للهيمنة ويزداد التوظيف في أدوات الحرب حتى يتصدّر كل الميزانيات. هذا يقسم العالم بين مهيمنين، ومهَيمَن عليهم، فتضعف العدالة وتنمو الكراهية. هذا النموذج قد يصلُح لسباقٍ قصير المدى قصير الأمد بمقياس عمر وجودنا. إنها دقائق قليلة من الجري تكفي ليصفق الجمهور ويفوز أحدهم. لكن إذا استغرق هذا السباق وقتًا طويلًا، سينهار الجميع.

حين نُعلّم الأطفال اليوم قيم التعاون من أجل البقاء، فقد يصيرون حرّاسًا لحدائق الكوكب، أو مهندسين لملاذات الأجيال القادمة على كواكب أخرى. فإن لم نعثر على «آخرين» في هذا الكون، فسنظل جيرانًا جيدين لبعضنا، حتى بعد عدد لا نعرفه من سنوات التوسع في البحث عن مواطن أخرى في المجرة.

قرارات الزمن الطويل:

في المستوى العالمي، هناك انزياح صامت لبعض أشكال القرار الاستراتيجي، من مؤسسات «الدورات الانتخابية»، بل، ومن مؤسسات «الدولة العميقة» نفسها، نحو مؤسسات «أعمق من الدولة»، تحتكر مصائر النوع البشري: الفضاء، الجينات، الذكاء الاصطناعي، إلخ. كما أن تحديات البيئة وأسلحة الدمار والإرهاب، لا تسمح لأي بلد بالعمل في نطاق زمني ومكاني محدود.

لذلك، تحتاج الدولة إلى إعادة تأهيل نفسها كي تستعيد المجالات المنفلتة، لا سيما وأن الأمر هذه المرة يتعلق بمجالات قد تُحدد مصائر النوع البشري.

كيف نواسي عزلتنا؟

العزلة الكونية قد تُولد قلقًا ميتافيزيقيًا، لكنّ القلق له طقوس تهذّبه: الإصغاء إلى الطبيعة، التأمل الجمالي، الاحتضان الصامت، حفظ ذاكرة الأنواع المنقرضة، إلخ.

نحن لا نملك الحياة. ربما الحياة استودَعتنا نفسها كي نحمي جمرة الوجود من رياح العدم. ومن يدري؟ ربما هنا تكمن الدلالة الروحية العميقة لكلمة «الأمانة».

إن هذا السباق المحموم نحو استعمار الفضاء، ونحو مزيد من القنابل المدمّرة، ونحو خوض حروب الهيمنة، يؤدّي إلى مزيد من الشعور بالعزلة لدى الضعفاء... ولا أحد يعلم كيف سيكون مآل البشرية عندما يزيد القهر ويزداد التسلّط... وهذا دليل قويّ على أهمية الحب والحنان في تاريخ الإنسانية كله.

مبدأ الاحتياط الأخلاقي:

ربما لا نكون «الوحيدين» بل «الأوائل». ربما هناك آخرون بعيدون إلى حدّ استحالة اللقاء، أو أنهم اختاروا البطء الشديد في عملية التطور، أو تأخروا في الظهور، أو لم يظهروا بعد... في كل الأحوال، الواجب هو نفسه: أن نتصرف كما لو أنّنا وكلاء الحياة الذكية في كل الأماكن التي نعرفها، والتي لا نعرفها.

ذلك أن الأخلاق، بخلاف الفلك، تُبنى على مبدأ الاحتياط: ما دمنا لا نعلم، فلنختر الفعل الذي يصون أكثر، ويؤذي أقلّ، ويُبقي الباب مفتوحًا لرياح الحياة.

من خلالنا يعتني الكون بنفسه:

إذا كنّا وحدنا، فالمعنى ليس أن الوجود عبث، بل معناه أن المسؤولية كونية بالفعل. لسنا مركزًا لخرائط النجوم، لكننا على الأرجح، مركز المسؤولية. ما يعني الحاجة إلى بناء حضارة تُعرّف نفسها لا بما تملك بل بما ترحم، لا بما تقتنص بل بما تعتني، لا بما تصرخ به بل بما تُصغي إليه. حضارة تعرف أن معنى الكون لن يُكتب إن لم نكتبه نحن البشر. وإن حدث، بعد زمن طويل، أن وصلنا إلى «آخرين»، فسيجدون لدينا عقلاً مُتواضعًا، وقلبًا رحيمًا، وحضارة تتّخذ من الحنان دستورًا لأجل البقاء.

عندئذٍ فقط، نكون قد أجبنا جوابًا لائقًا عن السؤال القديم: ماذا لو كنّا وحدنا؟

سنكون إذًا ذلك الكائن الذي من خلاله يعتني الكون بنفسه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رسالة الكاتب إلى القساة

أيّها القساة..

أعرف ملامحكم: فكٌّ مشدود، كتفان محمولتان كدرعٍ لا يُنزَع، نومٌ يتقطّع على فراشٍ بارد، وقلوبٌ تغلّ في صمت. قد تسمّون ذلك «قوّة الشخصية»، «صرامة الموقف» أو «نجاعة الأداء»، أما أنا فأسميه باسم آخر: «القسوة». خوف قديم فقد لياقته، فصار يتدلّى على الجسد كدرعٍ مثقوب، يرتاب من كل شعاع ضوء.

القسوة هي المنبع الخفيّ لمشاعر الشقاء التي لا تفارقكم، من المَلل إلى الحقد. إنها النّبع المُرّ الذي تُحاولون الفرار منه إلى مسكّناتٍ متناقضة: مرّةً إلى جلسات خمر لتخدير الجرح، ومرّةً إلى جلسات عبادة تُستعمل طريقًا للهروب لا طقسًا للسكينة. غير أنّ ما لم يُسمَّ بالاسم لا يُشفى بأي بلسم. لا الكأس تطفئ ناراً لم تُسمَّ باسمها، ولا الطقوس تُجبر كسراً لم يُعترَف به.

القسوة ليست تعبيرًا عن القوة، بل وهمُ قوّة لأنه عدو النمو، ليست شدّةً في الحقّ، بل بلادة في الحسّ، ليست حصنًا للكرامة، بل قناعٌ لهشاشة لا تُحتَمَل. من يتدرّب على الأذى يظنّ أنّه يحمي نفسه، فإذا به يشعل الجحيم داخل نفسه. والحال الذي ينبغي أن يقال: ليس الجحيم مكانًا تدخله بعض الأرواح، لكن مكان الجحيم داخل بعض الأرواح.

القسوة ليست قدراً، بل عادة. والعادات يمكن تفكيكها كما تُفكّ أزرار قميصٍ ضيّق. والقوّة الحقيقية ليست في أن تُوجِعَ من تستطيع

إيذاءه، بل في أن تكفَّ يدك حين تقدر، وأن تختار الكلمة الليّنة حين يزاحم الفظّ طرف لسانك. عندها تكسب وتشعر بملمسٍ ناعمٍ لم يسبق لك أن عرفته من يدٍ تشكرك.

قد تقولون: «هكذا خُلقنا». فأقول: بل هكذا تعلّمتم. وما يُتعلَّم يُنسى ويُستبدَل. قد تقولون: «نحن اخترنا القسوة لحماية أنفسنا من قسوة العالم» فأقول: «قسوتكم هي قسوة العالم، والقسوة لا تنتج سوى قسوة أشد منها ستدمرها يومًا». قد تقولون: «العالم غابة». فأقول: حتى الغابة تحيا بقانون الرحمة لا بالاقتلاع الأعمى.

أيّها القساة..

قلوبكم ليست حجارةً، بل هي قلوب أُغلِقَ عليها طويلاً. فأنتم لا تحتاجون إلى كأسٍ أخرى ولا ركعات إضافية تُستعمَلُ لتمويه الألم، بل تحتاجون إلى شجاعةٍ هادئة تُزيل القناع وتفتح نافذةً للهواء. وإذا كان فيكم من يريد أن ينتصر للإنسانية، فليبدأ بهذه العبارة البسيطة: «أرفض أن أرث القسوة وأورّثها».

أنا لا أكتب إليكم كي أُدينكم، بل كي أوقظ فيكم ما لم يمت: الرحمة. كلّ واحدٍ فيكم يملك ذكرى قديمة ليدٍ لمسَته برقّةٍ ذات يوم: أمّ، جدّة، معلّم، صديق، إلخ. أعيدوا وصل الخيط بتلك الذاكرة. لا أطلب أن تصيروا ملائكة، بل أن تعودوا بشراً: أن تحسّوا قبل أن تحكموا، وأن تفهموا قبل أن تُعاقِبوا، وأن تُعالجوا قبل أن تجرحوا.

القسوة عقدُ ولاءٍ للخوف. مزّقوه، وليس عليكم في ذلك من حرجٍ ولا من خُسران. فكلّ ما ستفقدونه هو شقاءٌ تعلّق بكم وصار يلاحقكم مثل ظلكم. وستربحون العيش بقلوبٍ آمنة مطمئنّة. وهذا المآل تلخصه الوصية الآتية:

لا تتسبّب في إيذاء أحد، وبعدها لن تحتاج إلى الهرب من نفسك.

إن أردتم إخماد نار الشقاء التي تضطرم في أعماقكم، فخفّفوا من

فحم القسوة في قلوبكم. فإن القسوة هي المنبع الأوّل لمعظم صور الشقاء البشري. لماذا؟ لأنها تُؤدي إلى تصلب العقل والوجدان، وبالتالي تضعف المرونة، وتتعطّل القدرة على النمو، وتصبح لحظات الفرح مجرد سرابات في رمال العمر.

رفيقكم في درب الحياة.

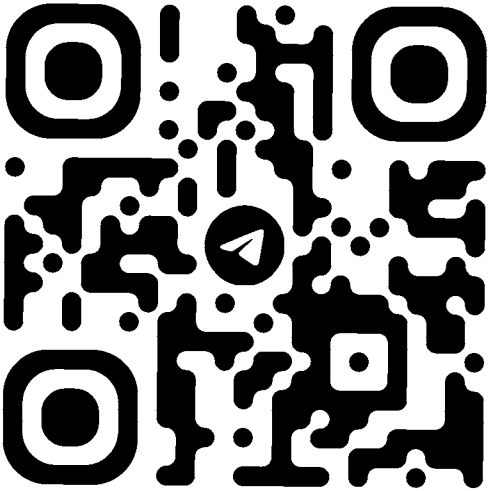

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

المحتويات

توطئة 5

مُقدمة 7

أملاً في تفادي الانهيار 8

الفصل الأول محاكمة الحب 13

محضر الاتهام 15

مشهد المحاكمة 16

الفصل الثاني مرافعات الدفاع 31

مرافعة سقراط 33

مرافعة أفلاطون 37

مرافعة إبيكتيتوس 41

مرافعة لوكريتيوس 44

مرافعة أبي حيان التوحيدي 46

مرافعة محيي الدين بن عربي 50

مرافعة سبينوزا 54

مرافعة كانط 62

مرافعة هيجل..... 65
مرافعة كيركغارد 70
مرافعة شوبنهاور 74
مرافعة داروين..... 78
مرافعة نيتشه..... 81
مرافعة كارل يونغ 89
مرافعة سيمون فايل 95
مرافعة حنّة أرندت 106
مرافعة إيمانويل ليفيناس 110
مرافعة ميشيل فوكو..... 115
مرافعة بيتر سلوتردايك..... 120
مرافعة ألان باديو..... 124
مرافعة لوك فيرّي..... 128
مرافعة ديفيد بوم 135
مرافعة سوزان سيمارد..... 140
الفصل الثالث مرافعة الفلسفة..... 145
دخول الفلسفة 147
المرافعة الأولى نزع الأساطير عن الحب 150
المرافعة الثانية كيف نفهم الحب؟ 158
المرافعة الثالثة لماذا يوجعنا الوقوع في الحب؟..... 185
المرافعة الرّابعة لأجل حب ناضج 194

المرافعة الخامسة القُدرة على الحب 208
المرافعة السادسة أخلاقيات الحب الناضج..... 216
المرافعة السابعة الحبّ أساس الحضارة..... 223
المرافعة الثامنة مصائر الحب والجسد في عصر الروبوتات... 242
الفصل الرابع قرار المحكمة 253
كلمة الحب 255
حُكم القاضي 257
مسار الحكاية 258
ملحق 1 مشهدُ انفصالٍ نبيل..... 261
ملحق 2 بيان ختامي 265
ملحق 3 نحو حداثة رحيمة 267
ما معنى الحداثة الرحيمة؟..... 268
لماذا نحتاج اليوم إلى روحانية نقدية؟ 271
ملحق 4 ماذا لو كنّا وحدَنا في هذا الكون؟ 273
من المفارقة إلى الاستجابة: 273
الحياةُ وديعةٌ لا مِلكية: 274
العدالة الرّحيمة: 274
الروحانيّة النقديّة: 275
المعرفة بلا غرور: 275
مدرسةُ التعاون من أجل البقاء: 276
قرارات الزمن الطويل: 276

كيف نواسي عزلتنا؟..... 277
مبدأ الاحتياط الأخلاقي:..... 277
من خلالنا يعتني الكون بنفسه: 278
رسالة الكاتب إلى القساة 279

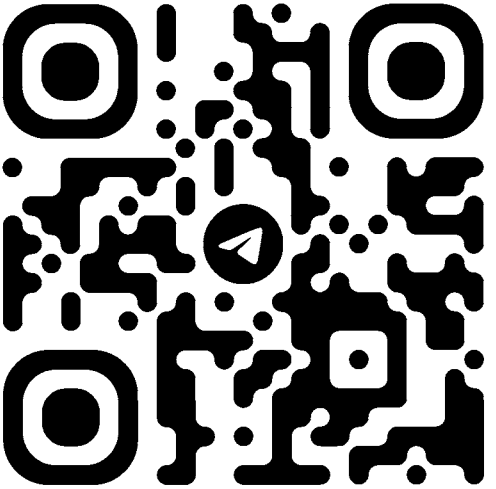

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

سعيد ناشيد

العقل والحنان

لقد تراجعت القسوة في وجوهٍ كثيرة، إذ لم يعد يُستدعى الناسُ ليتفرّجوا على مُحكومٍ يُشنَق، أو زانيةٍ تُرجَم، ولا يُبصق في وجهِ مُفكّرٍ معارض يُصلب على أبواب المدينة... لكنها لم تنحسر بما يكفي كي لا يقوم قتلة بذبح أو إعدام رهائن أبرياء، وكي لا يُعتبر طرد الناس من بيوتهم أو تدميرها على رؤوسهم انتصارًا، وكي لا يجوَّع أطفال لأسباب عنصريّة أو لذنبٍ اقترفه غيرهم...

من قاعة مُحاكمة يشارك فيها عدد من الفلاسفة، نستمع إلى دفاعهم عن الحب، دفاع جمع بين بهجة الفلسفة ودُربة العيش، يمتدّ هذا الكتاب جسرًا بين سؤال المعنى وفنون الحياة. إنّه عن الحب الحقيقي، الذي ينبت في تربة الحنان لكنّه يتنفّس في هواء العقل.

هذا الكتاب يتوجّه إلى كل من أحبَّ وتألّم، وإلى كل من رأى في الحبّ شقاءً أو ضعفًا. يُذكّر الجميع بأن الحبَّ ليس صك خلاص يفرح، ولا نزوة عمياء تجرح، بل كفاية وجدانية تربط بين هواء العقل وتربة الحنان. ستجد هنا: فلسفة ترسّخ التواضع في العقل، موجَّهة إلى كل الناس، قائمة على أنه من دون المشاعر الإنسانية تفرغ قيمة الحياة مهما كان نوع ومستوى التقدّم، ومهما كان ما نجمعه من معارف ونراكمه من مناصب وألقاب وممتلكات.

إنه تنبيه للاهتمام بالجانب الإنساني في زمنٍ تزداد فيه هيمنة التقنية التي بلغت مرحلةً تهدّد بهيمنتها على المشاعر، التي هي الصفة الأعظم للبشر. ورؤى تُؤسِّس لحداثة رحيمة تُنمّي اللطف في الوجدان.

مكتبة
t.me/soramnqraa
daraltanweer.com